سحر خليفة

روايتي لروايتي

سيرة ذاتية أدبية

دار الآداب

سحر خليفة

روايتي لروايتي

سيرة أدبية ذاتية

جميع الحقوق محفوظة©

تمهيد

في يوم ما، قبل أكثر من ستين سنة، كتب لي أستاذي الفنّان إسماعيل شقوط رسالةً يشدّ أزري فيها ويشجّعني، ويقول لي إنّ كتاباتي التي أرسلتها إليه ليقرأها أعجبته كثيرًا، وذكّرَته بالكاتبة الفرنسيّة الصّغيرة فرانسوا ساغان، لكنّه يحذّرني من مجتمعي ويقول لي ما معناه إنّ الموهبة وحدها لا تكفي، وعلى الفنّان الصّغير أن يبحث عن ظرف خاص يساعده على الإنتاج والإبداع وتكوين بوصلة توجّهه حتّى لا يقع في المحظور ويكرّرَ عادات الجوّ العامّ وممارساته.

لكنّي وقعت في المحظور وعادات الجوّ العامّ وممارساته. وقعت لأنّي كنت صغيرة ومرتبكة، ولم أفلح في تكوين بوصلة توجّهني وتساعدني على إيجاد الظرف الخاص.

وأتساءل الآن: كم من المواهب والإمكانيّات نزعَتها أو أفسدَتها عاداتُ الجوّ العامّ وممارساتُه؟ كم امرأةً ذاتَ مواهب وطاقات، وكم رجلًا، فقدا بوصلتهما ولم يبدعا، ولم ينجزا، لأنّهما وقعا في المحظور، وانزلقا إلى عادات الجوّ العامّ، وكرّراها؟

لكنّي نفدت بجلدي. وتمكّنتُ من إيجاد بوصلتي والخروج من المأزق ومن ممارسات الجوّ العامّ، بفضل صبري وإيماني ودعم آخرين أسعفوني وعلّموني. وهذا ما أريد إيصاله إلى كلّ النساء، وخصوصًا النساء ممّن انزلقنَ، ووقعنَ في المحظور، ولم يتمكّنّ من تكوين الجوّ الخاص، وكررنَ عادات الجوّ العامّ.

هذا ما أريد قوله في هذا الكتاب، وشيء آخر، هو أنّ الأدب ليس اختراعًا أو خَلْقًا، كما يدّعون، ولا عملًا خارقًا لا تقدر عليه إلّا النُّخبةُ، أو المصطَفُون الحائزون قدراتٍ عُلويّةً تكاد لئدرتها وقداستها تكون نفحة من نفحات السماء. فالأديب، كأيّ إنسان، ابنُ البيئة، بكلّ ما فيها من حلاوات ومرارات. وهي البيئة التي تهيّئ للكاتب أجواءه وتوحي إليه بمَشاهد وشخوص وثيمات يحوّلها بدوره إلى صور فنّيّة دراميّة تعيد تصوير الواقع أو تشكيله أو ترميزه؟ حتّى **الكوميديا الإلهيّة**، وهي المُغرِقةُ في التخييل والإيهام، ألم تكن نتاج تربية أوروبيّة ذاتِ منظور عنصريّ، سواء من حيث التحيُّزُ الدّينيّ أو الإثنيّ؟ ولو لم تكن كذلك، فهل كان دانتي وضع أنبياء ومصلحين وفلاسفةً وشعراء شرقيّين مع المجرمين والأفّاقين، في نار الجحيم؟ والتحفة الأدبيّة الخالدة، **الحرب والسلم**، ألم تكن نتاج تجارب

وخبرات عاشها تولستوي أو سمع بها، وكثّفها بمجهوده الصبور والمضني وجسّدها وأعاد إنتاجها في عمل أدبيّ مذهل؟ وحتّى تلك الأعمال التي تستخدم الطيور والحيوانات، كما فعل ابن المقفّع في **كليلة ودمنة**، أو ما فعله أورويل في **مزرعة الحيوان** التي كُتبت في عام ١٩٤٥، ألم تكن إسقاطًا على الأحداث التي سبقت عهد ستالين، وجرت خلاله؟ ولو لم يكن أورويل اشتراكيًا ديمُقراطيًا وناقدًا للسياسات الستالينيّة، فهل كان خطر في باله كتابةُ مثل تلك الرواية الرمزيّة؟ وأنا، لو لم أكن فلسطينيّة، ولو لم أعش تجربة الاحتلال الرهيبةَ، وحياةَ امرأة عربيّة تقليديّة، ولو لم أحظَ بظروف ساعدتني على نبذ الماضي، ولو لم أتدرّب على أيدي أساتذة بيرزيت وأجوائها التنويريّة، فهل كنت كتبت رواياتي بذلك الشّكل وتلك المضامين؟ تنسحب هذه الأمثلة، في رأيي، على الأدب ككلّ، أو معظمه، وتعطينا فكرة، بل تؤكّد أنّ الكاتب لا يخترع ولا يخلق، بل يكتشف ويكشف، ويغوص ويعقّب على ما لديه وما حوله، وأنّه بفضل مجهوده ومثابرته، وأيضًا موهبته، وأيضًا بفضل الظرف الخاصّ وبوصلته، استطاع أن يُنتج ما أنتج، بل إنّ إنتاجه محكوم ببيئته وتجربته، وحتمًا، بالضرورة، بالظرف الخاصّ.

درتُ في شوارع مدينتي. مسحت الطرقات التي انزرعت في عمق الذاكرة وقرار الوجدان. عادت إليّ كلُّ الصُوَر. رجعت كما كنت وأصغر، مع فارق الكآبة وذيول السنين الذابلة تتساقط حولي. لكن نَفَس الشحنة، ونفس القدرة على الإحساس، ونفس الخفقان والاستعداد للبكاء السريع. ورأيت الناس بعين جديدة، بل هي نفس العين الصبيّة القادرة على التقاط الخفقة والنبرة. وقلت أنا ما زلت أحسّ الرُوح، والرُوح كانت قبل الزمن. شيء عُلويّ في ذاتي يبغي التحليق والالتحام في عظم الألفة. والألفة بلدي وأمّي وحبٌ قديم أبعثه حيًا. أغنّيه وأجعل منه حدّوتة يتصاعد منها البخار ورائحة الجبن المشويّ ودهان الزيت. لم أكبر أبدًا. سأبقى نفس الطفلة. أحلم بتفاحة يراها كلّ الناس ولا نأكلها، بل نهضمها كالقصّة، وصلاة الصبح، وأذان صافٍ لا يلوّثه غبار النهار.

... وضربت في جنبات الحديقة. استعدت أفكارًا كنت قد مررت بها، حول صخرة ننقش عليها الدُموع ليكتشفها آخرون فلا يذرفوا نفس الألم. وقلت: عبثًا، لا بدّ لكلّ مَركب من رحيل، ولكلّ رحيل شراع، ولكلّ شراع هبّات ريح. والرّيح تتبدّل دومًا. وما كان يسيّر مركبنا نحو

الشمال يسيّر الآخرين نحو الجنوب. وما كان يسيّر الناس غربًا أضحى يشدُّهم قسرًا للشرق.

«مذكرات امرأة غير واقعيَّة»
(١٩٨٠)

البداية

طليقة

عدت ركضًا من المحكمة الشرعيّة. قفزت الدّرجات الحجريّة وأنا أطير مثلَ فراشة. ارتميت على عشب أخضر ينبت كالزّغب تحت زيتونة خرافيّة في دار العيلة، ورفعت ساقَيّ في الهواء وأنا أكاد أصرخ بأعلى صوتي: حرّة، طليقة. أخيرًا تحرّرت.

كنت في الثانية والثلاثين، لا أزال بعدُ ساذجةً وصغيرة، مثلَ مراهقة فجّة لم تبلغ العشرين، فقد تزوّجتُ ولم أُنهِ الثامنة عشرة. وقبل أن أدخل في العشرين بتُّ أمًّا مثقلة بالكوابيس وضِيق النّفَس، وأيضًا بضيق الحياة وذبول الفنّ الذي لطالما جعلني أعيش في دنيا تختلف عن الواقع وحدود الناس. لهذا ظننت، وأنا ألقي بنفسي على العشب الأخضر وأرفع ساقَيّ في الهواء، أنّي بتُّ حرّة طليقة، وأنّي سأكون منذ الآن، أيْ منذئذٍ، حرّة تمامًا من حياة القهر.

كنت صغيرة بعدُ، مراهقةً في الثلاثين، لأنّ حياتي في ذاك الوقت، كانت محدودة بزواج صارعتُ فيه بكلّ قواي من أجل أن أبقي على شيء منّي، أيْ أحلامي وأوهامي وقدرات فنّيّة ومواهب قُصفت فجأة كبرعم زهرة اجتُثّت بعنف وأُلقيَ بها داخل زجاجة مغلقة لتموت ببطء وتذويَ وتجفّ ولا يبقى منها سوى حشرة صغيرة، ذبابة سوداء، وفي أحسن الأحوال، نحلة بنّيّة بلا جناحين، وبلا ألوان.

لحسن الحظّ كنت أرتدي «جينز» استبدلتُ به فستانيَ القديم، وكأنّ الجينز سيُطلقني نحو بحر فسيح بأمواج ثائرة ترفعني إلى فوق، وتُنزلني تحتُ، وأنا أعوم بكلّ مهارة، ولا أغرق، بل أتحدّى كلّ الأمواج وأصارعها؛ بل أصرعها، وأصل إلى الشاطئ وأمشي على رمل ناعم، وأترك بصمات لا تتأثّر بمدّ أو بجَزْر.

دخلت الدار، وكانت أمّي تخيط شيئًا خلف الماكينة، وقلت بسرعة، وبلهجة أقرب إلى التقرير: «خَلَص، خلصت». فهزّت رأسها، وقالت من دون أن ترفعه: من قبله يا هبلة! وهذا مَثَل ظريف نقصد به الفكاهة أكثر من التنديد، لكنّ فيه بعضَ العتاب والتذكير بمرور الوقت بلا ثمرة. وهذا ما قصدته أمّي، لأنّها كانت تلحّ عليّ وتشجّعني طوال سنوات على أن أتخلّى عن ذلك الزواج الفاشل والزّوجِ الرّديء. كانت تردّد، كلّ يومين أو ثلاثة، من بين أسنانها بنفاد صبر: إشلحيه من رِجلك ولا يهمّك، بتاخدي أحسن من سِيد سِيده. وكنت أقول بذُلّ وانكسار: بسّ البنتين! وأنا شو أكون؟ فتردّد

هي: بتاخدي أحسن من سِيد سِيده.

وأظنُّ أنَّ هذا كان مصدرَ خوفي وتردُّدي وعدم قدرتي على اتِّخاذ قرار: أن أعود إلى دار العائلة في انتظار زوج ثانٍ يعيث فيَّ فسادًا كما فعل الزَّوج الأوَّل؛ يُفسد حياتي وحياةَ ابنتَي ويأخذ ما بقي من عقلي وأحلامي. ألم أكن أخطِّط، في قرارة نفسي، وطوال سنين، لأن أتحرَّر، وأبدأ حياتي من جديد، وأصبح ما كنت أتمنَّاه مذ وعيتُ على الدُّنيا واكتشفت ما لديَّ من شِعر وألوان وموسيقى؟ ألَم أنتقل إلى الكتاب بعد أن مزَّق لوحاتي بضربات «بوكس» كان يوجِّهها إلى بؤرة اللَّوحة فتتمزَّق الكَنَفا، وتتشقَّق الألوان، وينكسر الإطار. وفي أحسن الأحوال، كانت الكَنَفا تخرج من الإطار وتصبح معلوكة، ولا تصلح إلَّا للمكبّ؟

انتقلت إلى الكتاب، لأنَّ الكتاب أسهلُ وأرخص: أسهلُ حملًا، وأسهل تخبئةً، وأقلُّ كلفة. أذهب إلى مكتبة البلديَّة، وأحمل تلال الكتب بين ذراعَيَّ، فتكاد لارتفاعها تغطِّي وجهي، لكن تبقى عيناي أرى بهما مواقع قدمَيَّ ونظراتِ الناس، وخصوصًا الرجال، وهم يرون شابَّة صغيرة، طويلة نحيلة بشعر مالس ناعم وطويل، ياما سمعت كلمات عبد الحليم تتغنَّى به. فكلَّما مررتُ ردَّد أحدهم معاكسًا: «في موجة عبير، والشَّعر الحرير، عالخدود يهفهف، ويرجع يطير»! فأتمتم همسًا وبحقد كظيم: موجة تبلعك وتطيِّر مخَّك يا ابن الكلب، مش شايف الكتب! وطبعًا لا يرى الكتب، بل يرى الحرير وما تحت الحرير. هذا ما كنت في ذاك الوقت: مجرَّد حريرة بين الحرائر، أي نصف كيان؛ نصف إنسان.

قالت أمِّي: طيِّب والجامعة، قبلوكِ؟ قلت بأمل: قالوا ممكن. هزَّت رأسها ولم تعلِّق، إذ كانت تشك، طبعًا تشك، لأنِّي كنت في الثانية والثلاثين، وبلا توجيهي، بل بـ «مترك» قديم على الحافَّة، وبمعدل لم يصل إلى الستِّين لأنِّي سقطت في الحساب والجبر وقواعد اللُّغة العربيَّة والمحفوظات. في الحساب صفر، والجبر صفر، وقواعد اللُّغة العربيَّة والمحفوظات تحت الخمسين، ولم ينجِّني من السُّقوط الكامل، للغرابة، إلَّا الهندسةُ: مئة في المئة، والإنشاءُ واللُّغة الإنكليزيَّة فوق التسعين.

هذا ما كنت وأنا صغيرة: طالبة مزاجيَّة عابثة تهوى السَّرَحان والرَّقص والغناء والتمثيل، وعزفَ البيانو بلا نوتة، وتقليدَ الناس. أقلِّد فلانة وأقلِّد فلانًا فيضحك جمهوري المكوَّن من بنات المدرسة الداخليَّة، وحتَّى الراهبات، وأيضًا أخواتي وبعض القريبات، ويقلنَ عنِّي قويَّة وشيطانة ودمِّي خفيف. والحقيقة أنِّي في ذاك السِّجن المسمَّى الزَّواجَ، ما

كنت قوّيّة وشيطانة ولا كان دمي خفيفًا. انقلبت إلى شمطاءَ بوجه أصفرَ ومزاج كئيب أمشي ببطء، وأقوم بأعمال البيت كالمرتزِقة، وأحلم بالموت وبالكوابيس. لكنّي حين قرّرت، أو بالأحرى تجرّأت على أخذ القرار، عدتُ قوّيّة بدم خفيف، وبقيت كذلك حتّى الآن.

كانت أمّي قد قالت لي حين عدت من ليبيا حيث أمضيت آخر ثلاث سنوات من سنيّ زواجي الكريه:

ـ وشو ناوية تعملي بحياتك؟

قلت بسرعة، ومن دون تفكير، لأنّ الأمر كان قد أصبح واضحًا في ذهني وضوحَ الشمس:

ـ سأكون كاتبة روائيّة.

التفتت إليّ، وكانت تطبخ، والمغرفة في يدها وقفت في الهواء، وسألت بشيء من العَجَب من أحوالي:

ـ نعم!

وظلّت المغرفة مرفوعةً في الهواء إلى أن قلت:

ـ سأصبح كاتبة روائيّة؛ يعني أكتب روايات مثل السباعي وعبد القدّوس.

حملقت في وجهي ولسانُ حالها يقول، كما اعتادت، واعتدتُ على سماع تذمُّرها من مزاجاتي طوالَ حياتي:

ـ كنت أظنُّك كبرتِ وكبر عقلك!

خطفتُ المغرفة من يدها ولحست طرفها وقلت بنهم: طبيخك زاكي! أي ما معناه بلهجتنا الفلسطينيّة: طبخك طيّب.

قالت محذّرة بنفاد صبر:

ـ وكيف بدّك تعيشي يا شاطرة؟ لا عندك شهادة ولا وظيفة، مين يصرف عليك وعلى بناتك؟

وكانت تقصد أنّ والدي الذي كان وضعه فوق الرّيح، على حدّ قولنا وقولِ الناس في ذلك الوقت، تركنا وفرّ من الدار، دارِ العيلة، بعد أن هجر أمّي وتنكّر لنا ولأخي المشلول والمقعَد ولمعظم الأهل والأقرباء من جهة الأمّ. هجرنا وبتنا بالكاد فوق الرّيح، بل تحتها، وفي أحسن الأحوال، في مهبّ الرّيح. فقلت بسرعة:

ـ أدرس وأحصل على شهادة، ثمّ وظيفة، وأكتب روايات، مثل

السّباعي وعبد القدّوس.

وحين استدارت إلى طبختها، قصصتُ عليها، باختصار سريع، أنَّ روايتي التي كتبتها في السرّ عن زوجي: **لم نعد جواري لكم**[1]، قبلتها أكبر دار نشر في العالم العربيّ في ذلك الوقت، دار المعارف المصريَّة، وأنَّ حلمي مراد الذي كانت تتابع سلسلته الشهريَّة بشغف، كما تتابع روايات السّباعي وعبد القدّوس، قال إنَّه اكتشف فيَّ روائيَّةً ذات مستقبل باهر وشأن عظيم. وأضفت من عندي أوصافًا برّاقة ذات رنين أسبغتُ عليها الكثير من المجد والعبقريَّة حتَّى أقنعها بجدوى مشروعي، فظلَّت صامتة حائرة وعقلها يشكّ، ثمَّ يأمل، ثمَّ ينفتح على آفاق وأمانٍ، فقد كانت ذكيَّة ونبيهة ولديها ميول أدبيَّة، لكن، بسبب ظروف جيلها، لم تتأهَّل، وإنَّما فيها بعضٌ منّي، أو بالأصح، أنا لديَّ بعضٌ منها، لهذا فهمتْ بسرعة غريبة وساهمت في إعادة تكويني.

---

1 كان عنوان الرّواية في البداية **من أين يأتي الحزن**، ربَّما تيمنًا أو تأثُّرًا بالأدب الوجوديّ الذي كنت أغرف منه ولا أشبع. لكنَّ الناشر، حلمي مراد، رأى أن يغيّر عنوان الرّواية لتلائم قصيدة ركيكة كنت كتبتها عن الحريم مطلعها: «لأنّي امرأة، لأنّي من صنف الحريم، بَغلي تزوَّج أربعًا»... صدَّر بها الرواية مدخلًا لفتح النَّفس وجذب القرّاء!

أمُّ البنات

لم تكن علاقتي بأمّي سهلة، فقد كانت مليئة بالمطبّات والعثرات. وحتّى الآن ما زلت أعتبرها المسؤولة عمّا أصابني وأصاب عائلتنا من عدد لا بأس به من الانتكاسات والكدمات. فالقرارات التي اتّخذتها في ذلك الوقت، كانت تتّسم بالتسرّع وبرغبة ملحّة في السّيطرة والدّفاع عن الذات، ربّما للتعويض عن فشلها المتكرّر في إنتاج صبي ذكر، ومواظبتها المشؤومة على إنتاج البنات، بحيث أصبحت معروفة في جوّنا ذاك بأمّ البنات[1]. هذا ما كانت أمّي تُلَقّب به في ذلك الحين، أمّ البنات. وهذا اللّقب كان شتيمة في ذلك الوقت، وأظنّه ما زال كذلك في هذا الوقت. وإن كان تغيّر في بعض الأجواء، فهي لا تعدو بؤرًا متناثرة ضحلة، صغيرة جدًا، ولا تمثّل السّائد والمتداول في الجوّ العامّ. فما زالت البنت حتّى يومنا هذا تعني الخيبة، ومشروع عار متوقّعًا، وعبئًا ثقيلًا لا يُنتج إلّا الهمّ، همّ البنات. لهذا تُستقبَل البنتُ بالوجوم والتذمّر، وأحيانًا بالتنذّر والتشفّي، وكمٌّ هائل من الحسرات.

هذا ما حدث لي ولأخواتي. استُقبلنا بوجوم كان يصل إلى حدّ البكاء، وبكمٍّ هائل من التأفّف والتعازي. تدخل القريبات والصديقات على أمّي والدّموع في أعينهن، وبكلمات قُصد بها المواساةُ بسبب المصاب المتكرّر، إذ كنّ يقلن: ولا يهمّك، اللّي بتجيب البنت بتجيب الصبي، وانشالله تزيّنيهن بالصبيان. أمّا القريبات جدًا جدًا، فكنّ يندبن علانيةً، وبكلمات واضحة مكشوفة، تؤكّد لأمّي أنّها سقطت في الامتحان ثانية وثالثة وخامسة وثامنة، وأنتجت ما يستحقّ الرثاء. وأستغرب الآن كيف لم تُصَب أمّي بحمّى النفاس أو الجلطة في إثر كلّ ولادة لهذا العدد من البنات، وخصوصًا أنّها كانت ترى نتيجة السباق بينها وبين زوجة عمّي الوحيد والأقرب، إذ نجحت تلك فيما فشلت أمّي فيه، وكلّلت مساعيها بعشرة صبيان: أمّي المهزومة بثماني بنات، وزوجة عمّي المنتصرة بعشرة صبيان. ولنا أن نتخيّل ما كانت تحسّ به أمّي في مدينة، مثل نابلس، تزن المرأة وتقيّمها بحسب مهارتها في الإنتاج، فتغبطها وتحيّيها، أو تشفق عليها وتتنذّر، وتضطهد المرأة سرًّا أو علانيةً، إن كانت بذرتها لا تُنتج إلّا البنات.

وكان الإحباط لدى أمّي ولدينا نحن يصل إلى الذروة حين تؤكّد الواحدة منّا أنوثتها وتصل إلى البلوغ رغمًا عنها، فنرى دموع أمّي تتساقط، وكذلك دموع جدّتنا، متبوعةً بابتسامة صفراء من الوالد، فنحسّ بالإثم ممّا

جنينا، ونتساءل، أو بالأحرى أنا من كانت تتساءل: لماذا، يا ربُّ، خلقتنا من جنس البنات!

تعلَّمتُ في ذلك الجوّ، معنى وجودي وقيمتي في هذا العالم. تعلَّمت أنّي من جنس قليل القيمة، عديمِ النفع، ولا يستحقّ إلَّا الرِّثاء. كما تعلَّمت أنّي أحوي كمًّا هائلًا من التهديد بسبب جنسي، لأنَّه عورة، ومصدرُ خوف وتوعُّد، من أن أقوم بفعل شائن شبيه بما فعلته شادية في فيلم «ليلة الحنّة»، وما فعلته ناهد شريف في فيلم «أبو البنات»، حين انزلقت ولوَّثت شرف العائلة وتسبَّبت بخراب البيت وانكسار الأب، زكي رستم، وتلطيخ سمعة كلّ البنات. وللأسف، فقد كنت في نظر أمّي مؤهَّلة جدًّا، ربّما بسبب ميولي الفنّيّة، وانفجاراتي العاطفيّة، وتمرُّدي الصِّبيانيّ وطول لساني، لأن أقوم بفعل شائن شبيه بما فعلته شادية وناهد شريف، وجيشٌ عرمرم من البنات المنزلقات واللواتي ملأن الأفلام المصريَّة في الخمسينيّات، فقد كانت تلك الأفلام الزادَ والمحرّك لمخاوف أمّي المستترة، والعلنيّة، وكانت تتابعها بتأثُّر واجتهاد، وتتبنّى كلَّ ما جاء فيها من مواعظ وتحذيرات.

لجأتُ إلى القراءة، والكتابة، ثمَّ الألوان كوسيلة للهرب من ذلك الجوّ. لوحة بالذات أذكرها كانت تمثّلني في تلك المرحلة، وتلخِّص نظرتي إلى هذا العالم. كان اسم اللَّوحة «خلف الجدران»، تمثِّل فتاة مراهقة تنبطح على بطنها على أرض حديقة محاطة بالأسوار. في داخل الحديقة، خلف الجدران، ترتفع صفصافة تمدّ ذراعها نحو الداخل، والفتاة تنظر إلى ذاك الفرع وفي عينيها خوفٌ ويأس وقلة حيلة. ولوحة ثانية سمَّيتها «متمرِّدة»، تصوِّر فتاة ذات قَسَمات حادَّة وعينين حمراوين، تشدّ قبضتيها إلى صدرها كما لو كانت تتوجَّع من ضربة أو مرض عُضال.

اللَّوحتان رسمتهما بعد أن كال المديح لرسوماتي المنقولة، أستاذُنا الرَّسّام إسماعيل شمّوط، وقال لي ولمجموعة الرَّسامين الهواة، إنَّ على الرَّسام أن يرسم ما يحسّ بداخله، وما يراه ويكتشفه، لا أن ينقل من صور ورسوم لرسّامين أغراب من الخارج. «علينا أن نرسم من الداخل، أي ما نحبّ وما نكره، وما نفكّر فيه ونتمنّاه، وأن نشكّل مرآة لهمومنا وهموم الناس.» وفي إثر ذاك التَّعليق وتلك النصيحة، وفي المعرض التالي الذي أقيم في رام اللّه وترأَّسه شمّوط وشارك فيه رعيل الفنّانين الصغار، عرضتُ هاتين اللَّوحتين، فحيّاني شمّوط وشجَّعني، وقال لي ما ملأني بالفخر وكبَّر رأسي فعدت جريًا وقلت لأمّي: «أنت لا تعرفين قيمتي، فأنا فنانة موهوبة وسأصبح رسامة مشهورة، مثل شمّوط والرَّسّامين الكبار.»

فنظرت إليّ تلك النظرةَ، نظرةً حائرة شكّاكة، إذ كانت تعرف حدود دنيانا وحدودي أنا، المسموحَ بها، وأيضًا مخاوفَ تجرَّعتها من تلك الأفلام المسمومة فأصبح فنّانة مثل شادية وناهد شريف وأتسبَّب بكارثة لأمّ البنات وأبي البنات، كما حدث لزكي رستم في فيلم «أبو البنات».

طوال تلك المرحلة، مرحلة أمّ البنات وهَمّ البنات، لم أستطع التفكير في نفسي كعضوٍ مُنتمٍ إلى مجتمع ما، بل كضحيّة، وروح ضائعة لا تجد ملاذًا يؤويها أو يحميها. وربّما كنت في تلك المرحلة أعكس تأثُّري بالأدب الوجوديّ الذي كنت ألتهمه وأتشبَّع به. كنت مشدودة إلى ذاك النوع من الأدب لأنّه خُيِّل إليّ أنّه يبلور ما أحسّ به وأتألّم منه. ففي محاكمة كافكا، وجدت صورة تعكس ذاتي وتفسّر ما عبّرت عنه في رسومي، ولاحقًا في كتاباتي. ففي المحصّلة النهائيّة، لم تكن محاكمة كافكا أكثر من تجربة إنسان مغلوب على أمره، مستر k، المعتقَلِ داخل حالة عَبَثيّة لا حلَّ لها. فأينما ذهب مستر k، ومهما فعل، يواجَه بالهزيمة والإهانة نفسيهما، وبالألم ذاته. أمّا النهاية، فتمثُّل عقليّة انهزاميّة استسلاميّة تتقبّل «القَدَر» من دون محاولة للمقاومة أو طلب العون أو الإفلات.

وكما هو متوقَّع، فإنّ الشخص الذي قاد الحملة ضدّ تمرُّدي في ذلك الوقت، كان أمّي، أمّ البنات. فسُرتُ تجبُرها وتسلُّطها، في ذلك الوقت، دليلًا على القسوة الفطريّة. أمّا الآن، فأفسّرهما دليلًا على مرارتها ورغبتها في الدّفاع عن النّفس. كانت، ببساطة شديدة، تخاف أن نقوم نحن البنات، وخصوصًا أنا، بعمل مُخلّ أو شائن، كبنات أفلام الخمسينيّات. هذا بالإضافة إلى إحساسها المتأصّل بالذنب لأنّها المسؤولة عن إنجاب ذاك القطيع من المخلوقات المنتميات إلى الجنس قليل القيمة، وبينهن أزعَجُ وأنكَدُ فتاة في العائلة. وهكذا، فقد كانت هي نفسها تعاني ضغوطًا لا ترحم. لكنّ كبرياءها ما كانت تسمح لها بإظهار مشاعرها الممرورة أمام الناس. فبذكائها وقدرتها الفذّة على السّيطرة على نفسها وعلى الأجواء، تمكّنت من تبطين مخاوفها والتظاهر بصلابة الفولاذ ورسوخ الصخر. وكانت تخفي تحت تلك الهالة من الكبرياء والعَظَمة، في حقيقة الأمر، قلبًا مليئًا بالمخاوف والحَسَرات. كانت تحسّ بأنّها تستحقّ أفضل من ذاك: ثماني بنات! كانت الأجمل، والأذكى، والأقوى في العائلة، بل في محيطنا كلّه. وكان الجميع يعاملونها كما لو كانت ملكة متوَّجة، وكانت هي تمثّل ذاك الدور وتتمثّله. ولكنّ، بذاك القطيع من البنات، كانت تعاني إحساسًا راسخًا بالقصور والإشفاق على الذات.

التقطت أنا إحساسها وتجرَّعته. فمهما تظاهرتْ أو أبطنت أو موَّهت، كنت أحسّ بما تخفيه. وبطريقة ما نقمت عليّ لاكتشافي أسرارها وتحدّيّ سيطرتَها وصرامتها، وأنا بدوري نقمت عليها لأنَّها لم تقبلني ولم ترضَ بي وتعترف بي مخلوقةً ذاتَ وزن، وتستحقّ الحبّ والاهتمام. واتَّهمتها بالنفاق والقسوة. وجاهرت في وجهها بكلّ ما أحسست به وعانيته. وصحتُ، بحقد ومرارة، وبقلب يعصف بالأنواء: «لستِ أمّي، أنت بلا قلب». وقد كنتُ السَّبب في بكائها أكثر من مرَّة، فأقسمتُ مرارًا وتكرارًا بأن تقوم بتكسير رأسي. وحاولت بإخلاص شديد. وحين فشلت، أرسلتني إلى مدرسة داخليَّة تديرها أقسى الراهبات في القدس، ثمَّ راهبات الورديَّة في عمَّان، وهؤلاء أيضًا فشلن فيما لم تفلح هي فيه. ولهذا توجَّب أن أقحَم في زواج متسرِّع خرجت منه بأبلغ الجروح وأعتى الكَدَمات.

لكنَّ علاقتي بأمّي تغيَّرت بعد زواجي حين تكشَّفَ وجه زوجي الكارثيّ فبدأتْ تسايرني، ربَّما لتعويضي عمَّا سَلَف من إجحاف، وعمَّا سألاقيه في المستقبل من زواج يشبه الإصابة بمرض عُضال. وأنا سايرتها أيضًا لأنَّها الملجأ الوحيد المتوفِّر لي في ذلك الوقت، فتقلَّصت المسافة بيننا، وانتفت كليًّا حين تزوَّج الوالد عليها وأنزلها من عليائها، ففقدت بالتالي هيبتَها وصرامتَها، وباتت مثلي، وأنا مثلها، في الهَمّ سواء. وهكذا، حين رجعتُ من ليبيا واتَّخذتُ القرار بالتحرُّر والإفلات من ذاك الزواج، فتحتْ لي أبواب دار العائلة على مصاريعها، كما فتحت لابنتَيّ ذراعيها واحتضنتنا، وساهمتْ في إعادة تكويني، قدر الإمكان.

---

1 ثماني بنات، ماتت اثنتان في أثناء الطفولة، وبقينا ستًّا، بحمد اللّه.

دار العائلة

دار العائلة فوق عيبال، أي الجبل الشماليّ من نابلس، حيث الهواء النقيّ والنّسيم العليل والشمس تصدح حتّى المغيب. كانت مضرب المثل في مدينتنا من حيث الموقعُ والقرميد وفرندات الزجاج، وحديقةٌ كبيرة فيها الزنبق والياسمين وجفنات العنب، وتلك الزيتونةُ الخرافيّة.

كان والدي من الوجهاء. بات كذلك بعد أن أصبح ثريًا وصاحب أموال وعقارات. بدأ حياته يتيمًا فقيرًا ربّته أمّه من عرق الخياطة والإبرة، بعد أن سرق قريبٌ كان لها بمثابة الخال، ذهبات الزّوج المتوفّى وأنكر ما أخذ ونام عليه. وهذا ما وصفته في مدخل روايتي **أصل وفصل**: رجل نصّاب بعمامة، وامرأة ساذجة أُمّيّة، وأطفال صغار بحكم القُصّر. ولأنّ الأرملة خافت على ميراث القُصّر من وصاية الأعمام، لجأت إلى خالها المعمّم وخبّأت لديه ما كان تحت البلاطة من عثمليّات، أي مجيديّات عثمانيّة وليرات ذهبيّة، إذ لم يكن يوجد في ذلك الوقت بنوكٌ ومصارف وما شابهها. أخذ الخال النصّاب اللّيرات والمجيديّات وأنكر ما أخذ، فباتت جدّتي أرملة فقيرة وأمًّا لأيتام.

نشأ أبي يتيمًا فقيرًا مع أنّه سليل عائلة ذاتِ أصل وفصل. لكن، كما هي الحال في الغالب، لا أحد يتطلّع في خِلْقة الصغير الفقير حتّى يكبر. وهذا ما حدث. لم يقترب الأهل والناس منه إلّا حين اغتنى وكبر وصار وجيهًا. بدأ حياته في كنف أخيه الذكيّ المبدع، فتعلّم فنّ الميكانيكا والسيّارات. ثمّ مع الوقت، كبرت الميكانيكا، وصارت ميكانيكا وكهرباء ومخارط وسكب حديد وسيّارات، وبالتّالي صار والدي صاحب أموال وعقارات. وبيتنا ذاك، بيت العائلة، بفضل الميكانيكا والكهرباء والسيّارات، كان كبيرًا، وأكبرَ كثيرًا ممّا نحتاج، وما اعتاد الناس عليه في ذلك الوقت، لهذا لُقّبنا بالبرجوازيّين والبرجوازيّات، مع أنّ والدي بدأ حياته يتيمًا فقيرًا لا يملك من الدّنيا إلّا ذراعه، وطبعًا أمّي، وبدايةً تشكّل قطيع البنات. لكن، بفضل اسم الحمولة والعشيرة، وما أنتجته تلك الحمولة ذاتُ الأصول البدويّة بمرور الوقت من وزراء وسفراء وشعراء، لُقّبنا جزافًا بالبرجوازيّين والبرجوازيّات[1].

وأنا، للحقّ، نشأت نشأة برجوازيّة؛ أي ما معناه كثير من المال وقليل من الوذ واحترام العلم والتطيّر من نسل البنات. فأبي، كما قلت، نشأ فقيرًا، ولم يتعلّم، ولو أنّه كان يطرب لعبد الوهاب ويقلب شعره بالبريل كريم

ويدندن وهو يستحمّ أو يحلق ذقنه: يا وردة الحبّ الصافي، وخايف أقول إللّي بقلبي، وإيمتى الزمان يسمح يا جميل.

وأمّي كذلك لم تتعلّم. كان الوصول إلى الصفّ الرابع، في زمنها، أكبرَ إنجاز، لكنّها تهوى القراءة وتحفظ من الشعر والأبيات ما عجزت ذاكرتي عن حفظه طوال حياتي، وكانت تتبارى بالمناظرات الشعريّة، ودومًا تفوز على أعتى المتعلّمين والفُصَحاء. لكنّها، طبعًا، ابنةُ جيلها، بما في ذاك الجيل من صرامة ومفاهيم تتأرجح بين التقليد والتحديث. ولو لم تُلقَّب أمّي بأمّ البنات، لكانت، ربّما، أقلّ صرامة، لأنّها كانت تحسّ بالنقص، من المؤكّد بالنقص، لأنّها على الرّغم من قدوم ولد ذَكَر، الولدِ الوحيد المنتظَر، ظلّت تُلقَّب بأمّ البنات.

نشأتُ أنا في ذلك الجوّ، بين التقليد والتحديث، أي وسط اهتزاز في المفاهيم والتقاليد والخوف على الشّمعة من مصير البنات. وأنا أعترف، بل كلّي اعتراف بأنّي منحتُ أمّي ولو سهوًا، بتصرفاتي العابثة والعَبَثيّة، وطول لساني، وكسري الصّبياني للقوانين، أكبرَ تبرير لتزويجي من ذاك النغل. ما كانوا يعرفون أنّ ذاك النغل كان نغلًا بالفعل، لأنّه جاء ببسمة ساحرة رقيقة وقوامٍ ممشوق ببدلة أميركيّة مضبوطة، ولطفٍ آسر وصوت خفيض لم يطلع إلّا فيما بعد، فشبّهوه بروك هدسون أو دين مارتن، بل بالأحرى أنا شبّهته، إذ قال ما قال عن أميركا، وسحر أميركا، وأجواء أميركا الأخّاذة، والعلمِ والفنّ والحرّيّة، وادّعى أنّه يعرف أميركا ككفّ يده لأنّه أمضى فيها عشر سنين، وصال وجال وذاع صيته وعمل في أهمّ المؤسّسات وأرقاها حتّى كاد يصبح سفيرًا في هيئة الأمم، ثمّ تبيّن، لكن فيما بعد، أنّ مكوثه في أميركا لم يتعدّ ثلاث سنوات تعلّم خلالها لعب البوكر والزهر والروليت، وصار محترفًا في ذلك الكار حتّى بات الناس يلقّبونه بلاعب فوتبول، لأنّه يقامر كالمجنون ويضرب ضربات مثل الركلات، لكنْ دومًا يخسر للأسف، لأنّ ضرباته كالشلاليت، ولا مرّة جول!

أخي الوحيد، الذي جاء كقطرة غيث بعد طول انتظار، أصبح من فوره سيّدَ العائلة بلا منازع، وبالتالي كانت دنياه محقّقة مثل الأحلام. أدخلوه مدرسة داخليّة حتّى يُنقذوه من الإفساد، وحتّى يعتمد على نفسه، فكان يهرب من المدرسة ويعود إلى نابلس من ثاني مدينة تسلُّلًا وسيرًا على قدميه. يعيدونه فيهرب، ثمّ يعيدونه فيهرب، حتّى أخرجوه من المدرسة ولم يُكمل سنوات الابتدائيّة إلّا قسرًا، مع أنّ المسكين كان ذكيًا وصاحب نكتة، لكنّ الدلال حدّد مسلكيّته وقدراته وجعله يعيش طوال

حياته معتمدًا على النجدات وحنان الغير. وكيف يعتمد على نفسه وقد قوبل منذ البداية كمخلوق خارق، وجوهرةِ العائلة النادرة، ومنقذِ أبي وأمّي واسم العائلة وميراثِ الأهل وولايا العائلة القاصرات مذ بشّرت القابلة بمولود ذَكَر، بعد سلسلة من نسل البنات!

خرج هذا الولد من المدرسة، بحكم الأمَ ومشورتها، ليساعد أباه ويرث مهنته وأمواله، وكان ما زال ابن الستة عشر عامًا. وحتّى ترى فيه أمّي الرجلَ المقدام ورجل الأعمال، أصرّت على شراء سيّارة جديدة له، من الشركة، من أسرع موديل، وأخفّ موديل، لذلك الولد المدلّل، فركب الولد ابن الستة عشر عامًا تلك السيّارةَ الخفيفة وصار يسوق مثلَ الطيّار. يرى الناس السيّارة تطير في الهواء وتزعق في الجوّ مثلَ الصاروخ، فيتّصلون ويحذّرون ويتحسّبون فيقول الوالد «طيّب ومنشوف». لكن أمام جبروت الولد وحَرَناته، تضيع «طيّب»، وتذوب «منشوف»، ويخرج الولد منتصرًا ويظلّ يسوق مثل الطيّار حتّى وقع وكسر ظهره.

انكسر ظهر أخي الوحيد. انهرس نخاعه الشوكيّ تحت فقرات مفتّتة بفعل الصدمة، وعاش بقية حياته حتّى الممات وهو على كرسيّ العجلات. وبهذا الفصل من حياة دار العائلة، انتهت السّعادة وراحة البال، إذ ساد الحزن والهَمّ والغَمّ، وامتلأت الدار بالزائرين شبه المعزّين، وامتلأت أيضًا برائحة الأدوية والمطهّرات والإفرازات وصمتٍ وسكون لا تخدشهما إلّا صرخاتُ أخي المسكين، إمّا ألمًا وإمّا من اليأس والتذمُّر، وأيضًا بكاءُ أمّي الثكلى، إذ باتت تحسّ بأنّها ثكلى، وأنّها فقدت ابنها بالحياة، وأنّ من كان حلمها الوحيد بتعويض خسارتها في البنات بات قعيدًا، رهينَ الكرسيّ، كرسيّ العجلات.

«جاء الولد وامتلأت الدار بالزغاريد والشُّموع وملبّس الأفراح وتفريق العملة على الأطفال والفقراء وشيوخ الموالد والزبّالين والمسحّرين وصِبْية الفرّان والكوّاء ورؤوس المازّة في الشارع. وقفت امرأة سمينة في الشباك وأطلّت على الشّارع وأخذت تنعف قطع الشلن من وعاء الشوربة. وطارت الشلنات وتناثرت، فقفز الأولاد ونزل الصّبْية عن الدّراجات وترك صبيّ الكوّاء المكواة على صدر قميص فاحترق. وتدحرجت القطع الفضّيّة على أسفلت الشّارع والرّصيف ولحقها الناس بأيدٍ ممدودة ورؤوس محنيّة وظهور مقوّسة وهم يلهثون ويهتفون «ولد، ولد». وحفنة أخرى طارت في الهواء فارتفعت كشرار لِحام الأوكسيجين وماء الفضّة، فزاغت الأبصار، أبصارُ الأولاد والرجال

والنساء في النوافذ وعصافير سلك الكهرباء وغربان القرميد وضوء النهار وأشعّة الشمس وحبال الغسيل وأذان الظهر وبيّاع الفلافل. وارتفع حمدً كالصهيل فانفتحت السّماء عن ذكر الولد. وفي الصباح، والدار ما زالت مخدَّرة برائحة الشمع وعطر الملبّس والبخور، اجتمعت البنات حول القابلة وهي تفتح اللّفّة عن سرّ الفرح. وانتظرتُ أنا رؤية الطلعة البهيّة بشوق يفوق كلّ أشواق التفّاح. وكانت قطعة لحم معجونة برضوض زرقاء وحمراء ورأس ممزوج الشعر منتفخ الملامح. ووقفنا نتدافع حتّى نرى ونفهم التفسير فكانت زبيبة. عابثتها القابلةُ وأطلقت زغرودة فصاحت قطعة اللّحم وأطلقت نافورة ماء كالنشّاب. وهلّلت القابلة «كولونيا يا بنات الكولونيا». وفتحنا أكفّنا الصّغيرة نتلقّى الكولونيا ونمسح بها الرؤوس والجباه والعيون حتّى دمعت.»

من «مذكرات امرأة غير واقعية»

---

1 خليفة: فخذ من أفخاذ آل طوقان، وهي حمولة واسعة الامتداد، متعدّدة الأفخاذ والكنيات.

فقدت أمّي شهيَّتها للحياة. أهملت نفسها، وأهملت والدي، وكرَّست كلّ وقتها لخدمة أخي المقعَد كثير الطلبات، والمدلَّل، إذ زاد دلاله أضعافًا بفعل عجزه وإحساسه بالقهر من القَدَر الذي ظلمه وكسر ظهره. ولا أدري إن كان أحسّ يومًا بأنَّ القَدَر لم يظلمه بكسر ظهره فقط، بل بوجوده في عائلة أسرفت في تدليله، وفشلت في توجيهه، ومنحته ما كان السَّببَ في تدميره؛ أي إنَّ الولد كان أيضًا ضحيَّةً، في ذلك الجوّ بثقافته الذكوريَّة المتخلِّفة، كما كنَّا نحن، وكانت أمّي، وكذلك أبي، لأنَّ سلوك الفرد، كما بتُّ أعرف، هو نتاجُ عادات وتقاليد ومفاهيم، وأنَّ الفرد العادي مهما اجتهد فهو غير قادر على الخروج عن ذلك الإطار؛ إطارِ التربية والبيئة وعادات الناس، إلَّا بمعجزة وأعجوبة. وللأسف، لم تزرنا المعجزة والأعجوبة إلَّا مرَّة، أي حين هربتُ من ذلك الزواج.

بكى أبي، بكى كثيرًا مثلَ البنات. كان يشهق وينوح ويضرب صدره. يجلس في الفراندة الزجاجيَّة يذرف الدموع ويتمتم بالأدعية والحوقلات ويدعو اللّه أن يُنجده وينقذ ابنه. وحين استمرَّت الأدعية ولم تفلح، لجأ إلى المشعوذين والفتَّاحين، فكتبوا له أحجبة بالعشرات. وحين لم تفلح الأحجبة في إنقاذ الوضع، قرَّر الزواج على أمّي من مطلَّقة شابَّة في عمر ابنته. واكتشفتُ بهذا أنّي لم أصَب في أخي فقط، وإنَّما أيضًا في أبي، وأيضًا في زوجي، وأنّي أصبحت بلا مُعين، وبتُّ يتيمة، فقيرة، بلا سَنَد يحمي ظهري من غدر الزمان.

هجرنا أبي. ترك الدار، دارَ العائلة، ونفد بجلده. حمل حقيبة صغيرة لا تحوي سوى بدلتين وبعض جواربه وقمصانه، وتسلَّل في أثناء غياب أمّي وأخي في رحلة من رحلات العلاج الكثيرة التي تضمَّنت لندن والقاهرة والإسكندرية والكويت والعديدَ العديد من الأمكنة التي ما عدت أذكرها بعد كلّ هذه السنين، لكنْ أذكر أنَّ أمّي وأخي كانا، في ذاك الوقت، في رحلة علاج في القاهرة. كان أبي قد استأجر لهما فيلّا صغيرة في الزمالك، عن سبق إصرار وترصُّد، كي يُبعدهما عن أجوائه وما خطَّط له.

حين تزوَّج الوالد لم أنم تلك اللَّيلة. طوال اللَّيل وأنا أبكي وأندب حظّيَ، وحظَّ أمّي، وأخي المشلولِ، وقطيعِ البنات. أمّي الثكلى، وأخي العاجز، وأخواتي المتعثِّرات في زيجاتهنَّ العشوائيَّة المبتسرة، والخوف من زمن يغدر بنا وقد بتنا ولايا مقطوعات، لأنَّ الوالد، سندَ العائلة، انتهى أمره،

وأخي عاجز، وزوجي مقامر، وأخواتي كنَّ في مهبّ الرّيح.

كم كان وجود الوالد يمنحنا الإحساس بالأمان ويضمن لنا ألّا نُذَلّ أو نتهاوى في حُفَر اليأس! كم قال لي في إثر نوبات وعواصف تتلو خسائر زوجي المقامر، إنّي لن أُذَلّ أبدًا، أبدًا، ما دام موجودًا على سطح الأرض. لكنّي ذُللت، ذُللت كثيرًا، بل جُرحت وصُعقت وهو ما زال موجودًا على سطح الأرض. ألم يهدم تمثالَ الرجل المثاليّ ذي الخلق القويم؟ ألم يكن أحسنَ مثال للرجل العصاميّ المخلص في كلّ ما يقول وما يفعل؟ كان يصلّي ولا يقطع فرضًا، ويزكّي، وقلبه حنون على الفقراء والمحتاجين، ولا يكذب أبدًا؛ لا يعرف الكذب ولا التزوير. مستقيم أبدًا، وصادق أبدًا، وكريم ومنزّه أبدًا مثل قدّيس. هل كان كذلك حقيقة، أم أنّ خيالي صوّر لي، في ذلك الوقت، صورةً تمنّيتها في كلّ رجل، بل كلّ مخلوق على وجه الأرض؟ وحين فعل ما فعل، هل كان يقوم بما يُمليه عليه طبعه المدفون في داخله بعيدًا عنّا، بعيدًا عن العين؟ أم أنّ الأنانيّة والذُّعر من مصاب أخي جعلاه ينقلب إلى آثم؟ سمعني أحدهم أقول «آثم»، فنهرني وقال: آثم! آثم! ما وجه الإثم؟ ألله حلّل. قلت أناقشه: يتركنا الآن في هذا الوقت، في عزّ الأزمة وألم المصاب وينأى بنفسه! يلبس ويتزوّق ويتعطّر، ويغيّر إطار نظارته، ويضع منديلًا حريريًا في جيب الجاكيت حتّى يبدو أصغر سنًّا وأحلى شكلًا، ويبتسم ابتسامةً سعيدة، ويقول بقسوة وصفاقة: شو ناقص عليكم، اللّه حلّل.

وحين عاتبته للمرّة الأخيرة ودموعي تسيل على ذقني وتصل إلى صدري، قال بحدّة: يعني بدّكم أموت وأنا مقطوع؟ جمدتِ الدُّموع في عينَي وأنا أردّد كأنّي ضُربت على رأسي: مقطوع! مقطوع! وكان عقلي يفسّر لي أنّ الوالد، وربّما المجتمع بأسره، يعتبران أنّ أخي الذّكَر هو الوحيدُ المعتبَر وله قيمة. أمّا نحن البنات فلا وجود لنا. مجرّدُ زوائد دوديّة لا تصلح لشيء، بلا قيمة، ولا حتّى أساسًا موجودات. إذن هكذا، هذا ما نحن، وهذا ما هو، وهذا ما يصرّح به الشّزع، وهذا في نظر الوالد ونظرهم حقٌّ وحلال.

ها هو يهجرنا وينسانا، ينسى أمّي، وينسى أخي، وينسانا نحن، وينسى مواعظه وأمثلته على الحلال والحرام والخُلُق القويم. انهار المثال المرتفع، ونزل على الأرض. صار من الأرض. وأنا أيضًا بتُّ شظايا لأنّي فقدت إيماني بالصّدق والحبّ ووجوه الناس. ما عدت أرى إلّا أقنعةً زائفة في كلّ وجه. فقدت الواقع، بل نزلت بقسوة إلى الواقع، أرضِ الواقع، وما

عدت أصدّق أوهامي ووجوه الناس.

ذهبنا إليها لننصحها، أو بالأحرى لنؤلّبها، وإن تطلّب الأمر، نسترحمها، بعد أن فشلت كلّ مساعينا في إقناع الوالد بأنّ الزواج من أخرى في سنّ ابنته، والتنكُّرَ لأمّي وأخي، ولبناته المتزوّجات وغير المتزوّجات، وأحفادِه، سيُفقدانه حنان الأهل واحترام الناس. لكنّه أصرّ وهو ينظر إلينا من تحت النظارة الجديدة، بالإطار الجديد، نظراتٍ جامدةً وغريبة، أشعرتنا بأنّنا أمام رجل غريب لا يمتّ إلينا بأيّ صلة، ولا حتّى يشبه نفسه كما اعتدناه وأحببناه وقدّسناه.

ذهبنا إليها لننصحها، وإن تطلّب الأمر: نسترحمها.

تحدّثنا كثيرًا. وحين يئسنا من الوصول إلى أيّ اتّفاق يُرضينا، أيٍ التخلّي عن والدنا، ذهبتُ إلى العروس، وهي شقراء بجسد جميل، وبشعر طويل مسترسل. قرفصتُ عند قدميها، كما لو أركع، وحاولت أن أحكي معها بلغة المنطق، وأن أُفهمها أنّ مصالحنا مشتركة أو متشابهة، فنحن لا نريد أن نخسر والدنا وهي لا تريد أن تخسر شبابها مع رجل في سنّ والدها. «هل فهمتِ ما أقول؟» سألتها همسًا لأنّ كلّ ما حكيته كان همسًا، بيني وبينها، وأنا راكعةً ذليلة عند قدميها. هزّت رأسها وقالت بوجه ظننت أنّه يعكس الارتباك والحيرة: «فاهمة، فاهمة.» لكن فيما بعد، حين عاتبني والدي على ما قلت وما لم أقل، وحدّد موقفه منّي لسنين طوال، واتّهمني بالعقوق والوقاحة وقلّةِ الأدب، فهمت أنّها لم تفهم، أو ربّما فهمت بمنطقها، أو حاجتها، أو الاثنين.

وهكذا، باءت محاولاتنا بالفشل، بل جاءت بنتائجَ عكسيّة. فبدلًا من أن نستردّ الوالد خسرناه أكثر؛ أو على الأقلّ، خسرته أنا، وخسرني هو، لأنّه فيما بعد، وطوال ثماني عشرة سنة، بات غريبًا لا أعرفه ولا يعرفني. لا آبه به وبأحواله وبأمواله، لأنّي فهمت أنّ حياتي باتت عبئي، عبئي وحدي، فقد بتُّ يتيمة ووحيدة بلا سَنَد، وكذلك بلا مرشد يتدخّل في قراراتي ومسيرة حياتي واختياراتي. وربّما كان لذلك فضل كبير عليّ، لأنّي تعلّمت ألّا أتّكل على أحد، ولا أتوقّع النجدة من أحد، وأن أصارع الأمواج بقدراتي، قدراتي أنا، وما وهبني اللّه من عقل وصبر ومواهب، ولا أنظر إلى الخلف، بل إلى الأمام، بلا تردُّد، وباندفاع مقاتل لا يخشى العطب.

أبي يعود

لم تمرَّ سوى أشهر حتَّى عاد أبي يستسمحنا ويقول لنا إنَّه نادم على ما فعل، وإنَّه لا يستطيع العيش من دون عائلته، وإنَّ لا شيء في الدُنيا يحلو له بعيدًا عنَّا. قبَّل رأس أمّي ويديها، وقال أنت يا أمّ فلان ستّ الستات وستّ الكلّ. ونحن أيضًا قبَّلنا يديه واستقبلناه استقبالَ الفاتح المنتصر لأنَّه انتصر على ضعفه، ولأنَّ ضميره أيقظه وجعله يعود إلى أصله.

عاد إلينا وفرحنا به. وأمّي التي تقربه (هي ابنة عمَّته وهو ابن خالها) وارتضت به ووضعته تاجًا فوق رأسها وهو ما زال فقيرًا مُعدَمًا بلا وجاهة ولا أملاك، وعاشت من أجله وأجل أخي، ومن أجلنا نحن قطيع البنات، واقتسمت معه الحُلوة والمُرَّة في السَّرَّاء والضرَّاء، هي أيضًا فرحت بعودته ورضيت به على اعتبار أنَّه شريكها في الألم والمصيبة التي حلَّت بأخي وانهيارِ الأمان.

رضينا به وفرحنا بعودته واستقبلناه استقبالَ الأبطال. وللغرابة، انتقاني أنا، من دون بناته الستّ، اللَّواتي ما زلن في قيد الحياة، للقيام بدور خسيس أسعدني، لا لأنَّه خسيس، بل لأنَّه يجعلني أثأر وأتشفَّى بمن سبَّبت لنا الآلام وفقدان الأمان.

كانت الدُنيا شتاءً، وكان قد غافلها، كما سبق وغافلنا، وأغلق باب الدار بالقفل والمفتاح في أثناء زيارتها إحدى الصديقات أو القريبات. أحضر حدَّادًا جعل الدار محصَّنة بالأقفال والجنازير وأعمدة الحديد، فلا باب ولا شبَّاك ولا منفذ، كلّ شيء مسدود ومدرَّع ولا مجال فيه لتسلُّل أيّ مخلوق أو قطّة.

أعطاني المفتاح وقال لي إنَّها هناك منذ ساعتين أو أكثر، في البرد والهواء في المدخل، أمام الباب، في انتظار مجيئه ليُنقذها من ذاك الوضع، وقد أرسلتْ إليه مرسالًا في إثر مرسال تسأل بحيرة ما ذاك اللَّغز!! ما ذاك الحديد؟ ولماذا المفتاح لا يتحرَّك؟ ولماذا تُمنَع من دخول بيتها وتظلّ واقفة أمام الدار في المدخل، في مجرى الهواء والمطر والبرد؟ هي لا تعرف.

لم أجرؤ على سؤاله كيف عرف أنَّها تقف في المدخل منذ ساعتين أو أكثر. لم أجرؤ لأنّي خفت إغضابه وأنا التي فرحتُ جدًا، وشمتُّ كثيرًا برجوعه. خفت أن أذكِّره بما مضى، وما قالت له، وما قلت لها، وذيول

الحادث المأساويّ الذي جرحنا في العمق وأبكانا وقلّل قيمتنا بين الناس، لأنّ زواجه كان قصّة الموسم في مدينتنا التي تقتات على القصص والنوادر، وهي قصّة حَوَتْ من الأسف والإشفاق والفضيحة ما جعلنا نسير في الشارع برؤوس محنيّة كما لو كنّا متّهَماتٍ بذنب ارتكبناه، أو خطيئة.

أخذتُ المفتاح وذهبت إليها، وكانت بالفعل أمام الباب في المدخل والطقس شتاء وبرد ومطر. رافقني أحد العمّال من شركة أبي، وفتح الأقفال والزرافيل وفكّ الحديد، وهي تراقبنا بعينين جامدتين وفم مغلق. ولا كلمة. وحين دخلنا، قلت لها ما قال أبي، وخلاصته أن تأخذ حوائجها الخاصّة جدًا، وتعودَ إلى بيت أهلها بلا رجعة. ولا تأخذ شيئًا من متاع الدار، لا العفش ولا الأواني ولا اللّوحات، ولا حتّى الصُّور الخاصّة به وبها.

سألَتْ بذلّ وهي تبكي: ولا حتّى الصُّور؟

قلت بجمود: «ولا حتّى الصُّور»، وأنا أستدير بوجهي عنها وعن صورتهما فوق قطعة أثاث ضخمة ثمينة لا أذكر بالضبط إن كانت راديو أو مسجّلًا أو تلفازًا، وفي الصُّورة يبدوان كعاشقين ضاحكين شبه متعانقين، وعلى رأسيهما ما يشبه طراطير سهرات رأس السنة، وأمامهما شموعٌ وأطباق وكؤوس.

فتحتِ البوفيه وحملت بين يديها كدسة أطباق فقلت منبّهة: هذا ممنوع، قال أبي ألا تأخذي إلّا ملابسك وحاجاتك الخاصّة فقط لا غير.

شهقت ودموعها تسيل على خديها: ما هذا الظلم! ما كنت أظنّ أنّ فلانًا (وذكرت اسمه) بهذه القسوة وقلبه من حجر!

والتفتت إليّ وواجهتني وهتفت بنقمة: شو دِينه أبوك؟

حاولت أن أبدوَ مرحة فقلت بسرعة: حمدا لله، أبي مسلم.

هبّت تدافع عن نفسها: وأنا مسلمة. أهذا هو دين الإسلام؟!

استدرت عنها حتّى لا أدخل في نقاش عقيم، وحتّى لا أشارك في غضبتها وأنقلب على أبي وأقول لها إنّ ما فعله معها فعله مع أمّي، ومع أخي المقعَد، ومعنا نحن. ألم يظلمنا؟ ألم يتذرّع أمامنا وأمام الناس بأنّه يمارس حقًّا شرعيًا، بحسب القانون، وبتفويض صريح من الإسلام؟ لم أناقش.

فوجئت برجل كبير يدخل الدار من دون استئذان. رأيته كبيرًا لأنّي كنت بعدُ في منتصف العشرينيّات، وكان هو في الخمسينيّات أو

الستينيّات بشعر أشيب وصَلَع خفيف. دخل متجهّمًا وعرّف عن نفسه بسرعة وغضب، كما لو كان يشتمني، وهرع إليها وربّت على كتفها وقال لها: شدّة وبتزول، ولا يهمّك.

فهمت أنّه قريب لها، وأنّه بمثابة أخ، وأنّه جاء لينقذها، أو في أحسن الأحوال يسندها وقت الشّدّة.

سمعتها تقول: تصوّر، قال حتّى طقم أمّي الصينيّ ممنوع آخذه!

التفت إليّ وقال محاولًا استدرارَ عطفي وإشفاقي: مش حرام الظلم؟

قلت مواربة، وقد بدأت أحسّ بما في الموقف من ظلم وتعسّف: مش ذنبي. أنا مأمورة.

سأل بغضب يشوبه شيء من العتاب والاستغراب: وأنت ترضين بالظلم لامرأة مثلك؟ ألا تخافين أن يضعك اللّه في موقف مشابه؟

لم أُجبه لأنّي أحسَست بأنّ الموقف مربك وساخر وفيه حقارة إلى حدّ كبير، وأنّ العروس، عروسَ أبي، كانت ضحيّة كما كانت أمّي، وكما كنت أنا، وكما المئاتُ، بل الملايين ممّن ظُلمن ونُكّل بهنّ واستُنزفنَ وأُلقيَ بهنّ إلى النسيان، أو قعر الجحيم.

اقترب منّي وقال بلهجة استدرار واستعطاف: خليها تأخذ طقم أمّها، هذا الطقم جاءت به مع جهازها. كان لأمّها ونقّطتها به يوم عرسها. دعيها تأخذه.

ابتعدت وأنا أغضّ النّظرَ، وعقلي وقلبي يتخبّطان: فلتأخذْه.

قال برجاء: وبعض الحاجات والاحتياجات، فأبوك غني.

قلت بسرعة: تأخذ، تأخذ.

تشجّعت هي وقالت بلهفة واستعطاف: وهذي الصُّور. صوري أنا، وصوره هو... آه يا فلان...

وأخذت تنوح فدمعت عيناي. لاحظني الرجل فقال بأسًى: صحيح هَمُّ البنات للممات.

قلت مصادِقةً وبقلب حزين: صحيح، صحيح.

خرجت تجرُّ قدميها متّكئةً على ذراع قريبها. وأنا أغلقت الباب وهمٌّ ثقيل على قلبي ورأسي يترنّح في خضمّ الأفكار. ونبّهت نفسي إلى وضعي. قلت إنّي كنت أنتظر تلك اللّحظة بفارغ صبر. كنت أحلم بها

وأتمنّاها، فلماذا أحس بالحزن يُثقل صدري؟ لماذا لا أفرح أو أشمت؟ لماذا تصرَّف أبي بتلك القسوة؟ لماذا لم يواجهها، لماذا لم يُنذرها؟ لماذا عرَّضها لذاك الإذلال؟ بعد أن شبع منها يرميها بصورة فظَّة كما لو كان ينتقم منها، لماذا؟ ويحرمها أبسطَ حقوقها، لماذا؟ ما كان أبي سيّئًا ولا لئيمًا ولا فظًّا في تعاملاته مع الناس، فلماذا كان فظًّا وغليظًا مع امرأة أحبَّها وتزوَّجها؟ ألم تكن امرأته، كما كانت أمّي؟ وكان فظًّا وظالمًا مع الاثنتين، ولو قُيِّض له أخذُ ثالثة ورابعة لظلمهنَّ جميعًا بلا تمييز. لماذا؟ أبي الحنون الرقيق الكريم، المعطاء، الليِّن، كيف انقلب إلى غليظ متجبِّر؟ أهذا، طبعة المختبئ فيه، أم أنَّ هذا ما نشأ عليه كذَكَر له الحقَّ في استغلال الإناث؟ هذا، إذن، لأنَّه ذَكَر؟ ربَّما. ألم يُقَل له منذ الطفولة، وخلال صباه، وحتَّى الرجولة: هذا حلال، هذا حقُّك؟ وأبي لم يفعل إلَّا الحلال!

عودة بلا عائد

لم تَدُمْ عودة أبي إلّا فترةَ شهرين أو ثلاثة صرفها في البكاء والحزن على عروسه، وربّما بالندم وتبكيت الضمير، وربّما بالشّوق إلى مَن أسعدته وجعلته ينسى أزمة منتصف العمر وصدمة ابنه وكلّ همومه. يبكي ويقول: اشتقت إليها. فتصرخ أمّي وتكاد تجنّ. يقول كانت جميلة وشعرها ذهبيّ رائع، وكانت مرحة وتحبّ الحياة، وأنستني كلّ همومي. يقول ذلك كلّه، وينسى أنّ أمّي هي زوجته وليست أمّه. وأمّي المسكينة، تصيح أحيانًا وتعاتبه بأقسى الألفاظ، وتستمع أحيانًا إلى مناجاته تلك العروس البعيدة، أغلى إنسان على قلبه؛ أغلى منها، أغلى بكثير، وأغلى من ابنه وبناته، وأغلى من جوّ العائلة ودار العائلة، فتنادينا وتقول لنا بدهشة وذهول: أبوكن يقول كذا وكذا! ماذا أفعل؟ نقول: اصبري، فقد ينساها واللّه يهديه، حاولي، حاولي. فتهزّ رأسها وتحاول.

وهكذا، لم يمرّ أكثر من شهرين أو ثلاثة حتّى كرهنا عودته وتمنّينا ذهابه عنّا كي نستريح من أقواله ومن نظراته الجامدة والزجاجيّة، ومن جوّ الصراع الذي أفرزه وأحاطنا به. أشعرَنا بأنّنا المسؤولات عن تعاسته وحرمانه. أشعرَ أمّي بأنّها تقف حجرَ عثرةٍ في وجه سعادته والوصول إلى منية قلبه. أذلّنا جميعًا أكثر كثيرًا من السّابق. أذلّ أمّيَ بكبريائها وأنوثتها، إذ جعلها تحسّ بأنّها المسؤولة عن عدم اكتفائه. جعلها تشعر بأنّها في سباق مع الزمن، وآثار الزمن، والتنافس العبثيّ الخاسر مع امرأة في سنّ ابنتها. وبما أنّها ذكيّة وقادرة على التّفكير والتّدبير، لم يكن من السّهل عليها أن تذعن لهزيمتها أمام ما تعتبره نزوة وهروبًا من الواقع، فأخذت تقاوم بكلّ قواها، لكن هيهات! كان ينظر إليها تلك النّظرةَ ذاتَ المعنى بألف معنى، فتفقد توازنها وتكاد تموت من الإذلال والحسرة. نسيث في مأساته مأساةَ ابنها وأهملتها كلّيًا، أو جزئيًا، حتّى تسخّر كلّ قدراتها من أجل استعادته وإسعاده. لكن هيهات!

صارت تمقته. ونحن أيضًا صرنا نتساءل بدهشة وغضب: لماذا عاد؟! دعوه يذهب. فليذهبْ عنّا ويخلّصنا من جوّ الصراع والتأفُّف. لا شيء نفعله يملأ عينه، ولا يحسّ بأنّه منّا. لا يحكي معنا، ولا يضحك لِما نقول حتّى لو كان أعظم نكتة، ويزجر أطفالنا حين يقتربون منه، ويظلّ صامتًا في جلساته يهزّ ساقيه كما لو كان موتورًا فقد زمبركه وميزانه.

أخذت أمّي تتضجّر وتقول إنّ وقعته أسوأ كثيرًا من وقعة أخي،

وإنَّه آذاها وجرحها أكثر كثيرًا من جرح أخي، وإنَّه لو يموت فلن تأسف عليه. وهذا ما كان، إذ حين مات، بعد أكثر من ربع قرن من زواجه، شمتت به، وقالت لنا حين سألناها عن مشاعرها بفضول كبير، وهي تبتسم ابتسامةً ذكيَّة بخبث مقصود: ليس في الموت شماتةٌ، الحمد لله الذي أماته.

انقلب زوجي إلى كاسر بعد زواج أبي. كان بوجوده يهاب ويحسب الحساب لعدّة أسباب. السّبب الأوّل أنّ أبي الغنيّ والقويّ كان قادرًا على خسفه وإخراجه من وظيفته وتدميره. فبفضل وساطاته، انتقل زوجي من بنك عمّان إلى بنك نابلس، وتبوّأ رتبةً أعلى وأهمّ. وكان رأيه، قبل زواجه، في أنّ انتقاله ذلك الوقت، إلى نابلس، المحافظةِ الوادعة المستقرّة، سيُبعده عن أصحاب السّوء وأجواء الفساد، ويجعله يعيش، ككلّ الناس، في مدينتنا المستورة، في خلق قويم. كما أنّ وجوده في نابلس سيجعل مراقبته أسهلَ وتحت أنظار العائلة والأقرباء وأفواه الناس. فالناس في مدينتنا يراقبون ويتقوّلون ويحاسبون ويعاقبون. حتّى الأبرياء، في بعض الحالات، كانوا ينالون العقاب على ما اتُّهموا به زُورًا، وظلّت الفضيحة تلاحقهم حتّى شابوا أو دخلوا القبر. وكان أبي، من ناحية أخرى، قد أنقذ زوجي عدّة مرّات حين خسر أموالًا لا قدرة له على سدادها وهدّد الدّائنون بالطرد من البنك أو إدخالِه السّجن، فتدخّل أبي وسدّد تلك الأموال حتّى لا يفقد زوجي وظيفته ولا يدخل السّجن. لكن، حين ابتعد أبي وخلا لزوجي الجوّ، بدأ ينكّل بي ويُسمعني أبشع الألفاظ، ويُعيّرني بما فعل أبي، ويستهزئ بعائلتي المصونة ويسخر ويتلفّظ بها.

كان دومًا يحسّ بأنّي أفضل منه، فأنا أذكى منه (باعتراف الكثيرين)، وأغنى منه (مع أنّي عشت على الكفاف واهتزاز الحال في كنفه)، وذاتُ أصل وفصل، كما عُرف عنّا في ذلك الجوّ، وابنةٌ لأبٍ من الوجهاء والأثرياء، بعكس والده البسيط محدود الحال، وذاتُ إرادة وكبرياء. كما أنّ إسعاف أبي له حين أنقذه مرارًا من الأزمات ومنع عنه الطرد من وظيفته ودخول السّجن، جعلا إحساسه بالنقص يتضاعف، ونقمتَه عليّ وعلى والدي تشكّل حقدًا تراكميًّ في أعماقه، ولم يفصح عنه إلّا حين وقع أبي ووقعتُ معه، أو هكذا خُيّل إليه. خُيّل إليه أنّ وقوع أبي سيكسر رأسي ويُذلّني ويجعلني تحت رحمته صاغرة ذليلة لا قدرة لي على فتح فمي بأيّ تذمّر مهما سهر الليالي وغاب عن البيت. بدأ يظن أنّه حتّى لو طُرد من وظيفته أو دخل السّجن، فسأظلّ مرتبطة به وصابرة عليه لأنّ حامي حماي ذهب بعيدًا وبتُّ وحيدة، مكسورةَ الجناح، وأنّ لا ملجأ لي إلّا ما يقدّمه إليّ هو، سواء رضيت أو انفلقت.

وهكذا، اندفع زوجي في اللّعب كما لو كان تنفيذًا لمقولة: إن غاب القطّ العب يا فار.

يجيء الأقرباء ويقولون لنا إنَّهم رأوا زوجي في المكان الفلاني يقامر حتَّى لم يبقَ في جيبه ولا حتَّى نصفُ دينار، وإنَّه بعد أن يجفَ ريقه من الخسائر يدور على الحاضرين يستجدي ثمن فنجان قهوة أو كوب شاي ليبل ريقه. تسمع أمِّي ذلك الكلام فتبدأ بالدُّعاء على والدي الذي أذلَّنا وجعلنا مضغة في أفواه الناس. فلو كان الوالد موجودًا، فهل كان زوجي يجرؤ على فعل كذا أو قول كذا، واللَّعب هكذا حتَّى آخر قرش لديه؟

تجعلني كلمات أمِّي ودعواتُها أحسّ بالارتياح وتأنيب الضَّمير. فمن ناحية، كانت تصرُّفات زوجي تجعلني، على الرَّغم من الأسى، أحسّ بنوع من الشماتة بأهلي، وخصوصًا أمِّي، لأنَّهم دفعوني دفعًا إلى ذاك الزواج على الرَّغم من محاولاتي الإفلات في أثناء الخطوبة بعد اكتشافي بعضَ نواقصه المثيرة للشك وغموضه. ومن ناحية أخرى، بتأنيب الضَّمير لأنِّي أحسّ بأنَّ أمِّي المصابة بأبي وأخي لديها من الهمّ ما يكفيها. فابنها ما زال طريح الفراش، وزوجها عريس وتدور بشأن تصرُّفاته تقوُّلاتٌ وهزء وابتسامات، وذلك كلُّه يجعلها تحت تأثير ضربتين جعلتا حياتها أشبه بالجحيم. تبكي أحيانًا بصمت، وتصاب أحيانًا بنوبات صراخ يهزّ جدران الدار، ويصل إلى أنحاء الحيّ، ولا تهدأ إلَّا حين نطلب لها الطبيب ليحقنها بإبرة مهدِّئ أو منوِّم. وحين تصحو، تقول بما يشبه الاعتذار: الناس ببلوى واحدة وأنا ببلويين! نار في قلبي ونار في رأسي وحياتي جحيم. فكنت أفكِّر في هذا الجحيم، وكيف أساهم أنا، ويساهم زوجي الحقير، في صبّ الزيت على نارها، فتحمل همِّي، كما تحمل همّ أبي وأخي، وهمَّها هي، هي المهجورة المكسورة وقد باتت نواة ملفوظة بعد أن استبدلها بشقراء في سنّ ابنتها، وجعلها تحسّ بأنَّها عجوز شمطاء بلا قيمة!

نهدأ ونثوب إلى رشدنا بعد البكاء والصراخ وحقن المهدِّئ، وأكسّر عليها وتكسِّر عليّ، أيّ ما معناه، أواسيها وتواسيني، ونبدأ بكيل الشتائم وأقسى النعوت والألفاظ، ونقول كذا وكذا وكذا. والكذا تنطبق على زوجي وزوجها هي، أيّ أبي. فقدت ضميري في ذلك الوقت، لأنِّي حقدت، حقدت كثيرًا، وتمنَّيت لنفسي الموت حتَّى أرتاح من العجز وألمٍ عظيم.

وقعنا تحت احتلال وما زلنا نعاني نكبته حتّى كتابة هذه السُّطور، أي حتّى بعد نحو نصف قرن من الزمن الفرّ؛ أطول احتلال على وجه الأرض.

كيف وقعنا وكنّا نظنّ أنّ لدينا أقوى قوّة ضاربة في الشرق الأوسط؟ كيف فقدنا بقية فلسطين وكنّا نتهيّأ لاسترداد ما ضاع منها سنة ١٩٤٨؟ ألم نستقبل قرار عبد الناصر إخلاء مضائق تيران من القوّة التابعة لهيئة الأمم استعدادًا لعبور سيناء من أجل تحرير فلسطين، بالمظاهرات الصاخبة والزفّات والأهازيج والرّقص والغناء في الشاحات والشّوارع؟ وتمخّض الجبل عن فأرة. هذا ما اكتشفناه بعد كلّ الحماسة والهياج وأحلام اليقظة. اكتشفنا كم نحن واهمون وواهون وهشُّون وطفوليّون وطفيليّون. لم نكن ناضجين ولا مستعدّين للتّحرير، لا كأنظمة، ولا كشعب، ولا كقيادة. عبد الناصر، معبود الجماهير ومعبودي في ذلك الوقت، اعترف بخطئه وسوء تقديره، وأعلن علينا وعلى الأمّة العربيّة أنّه المسؤول عن الهزيمة، لهذا فهو يسلّم الوديعة ويتخلّى عن منصبه. هاج الشّارع المصريّ وماج، ونزل الملايين إلى الشارع يعلنون الولاء لقائدهم ويتمسّكون به. ونحن أيضًا، على الرّغم من احتلالنا وذلّنا والكارثة الجديدة التي أحاقت بنا، وقفنا أمام دُورنا المحاصرة بجنود الاحتلال نتبادل النّظرات والعبرات ونستمع إلى جهاز ترانزستور بيد جنديّ إسرائيلي كان يضعه على حافّة سور خلفه، يستمع من خلاله إلى خطبة عبد الناصر وتنازله وانكساره. وللغرابة، وسخريّة القدر، رأيته يمسح دموعه كما كنّا نمسح نحن دموعنا ويهزّ برأسه. ربّما كان يهوديًا من أصل عربيّ. ألم يكونوا جزءًا منّا؟ غريب. مفارقة. جنديّ إسرائيليّ يبكي على سقوط البطل وهزيمة عبد الناصر!

هكذا استقبلنا استقالة عبد الناصر، بالدُّموع والأسى وإحساس باليتم، لأنّه كان الأنبل والأخلص على الرّغم من خطئه. وما زلنا نحسّ، معظمنا، بأنّ خطأ عبد الناصر مغفور، لأنّه اجتهد ولم يُفلح، بينما الآخرون لا يجتهدون، وعن سبق إصرار وترصُّد لا يفلحون.

هكذا استقبلنا هزيمتنا كشعب وكأمّة. أمّا كيف استقبلتها مدينتنا، فقد خرجت وفود بالهتافات والزغاريد لاستقبال دبابات الجيش الإسرائيلي، وفي ظنّهم أنّها بشائر الجيشين العراقيّ والجزائريّ اللذين جاءا لنصرتنا! أمّا أنا وعائلتي الصّغيرة، فقد كنّا نختبئ في حمّام الطابق السُّفليّ،

حيث يسكن رجل في الثمانينيّات وزوجته العجوز. كنّا نستمع إلى القصف الهادر بين الجبلين ونحن نرتجف من الذعر ونتوقّع أن ينهار علينا البناء المكوَّن من طابقين ونموت تحت ركامه من دون أن يحسّ بنا أحد. كنّا نسكن في منطقة رفيديا الخضراء المحاطة بكروم الزيتون، والبيوت تتناثر وسط مساحات واسعة من أراضٍ فارغة غير مستغَلّة إلّا لزراعة البندورة والفقوس. وحين هدأ القصف وخرج زوجي ليستجلي الأمر، عاد وبصحبته جنديّ أردنيّ وقد خلع جاكيته العسكريّ وغطاء رأسه ولفّ ذراعه بالجاكيت الذي بات أحمر من نزف دمه. وحين كشفها، تبيّن أنّ ذراعه شبه مبتورة، ولم يبق إلّا عَصَبٌ واحد يصلها بكتفه. منظر مرعب كدنا نصاب بالإغماء من رؤيته. والوحيد الذي استقبل الوضع ببرود هو زوجي المغامر، والذي أصرّ على إيصال الجنديّ إلى المستشفى الوطنيّ في وسط المدينة، إذ لم نكن نعرف أنّ مدينتنا سقطت في يد جيش الاحتلال، وأنّ دباباتهم تحاصرها من كلّ جانب.

كانت سيّارة زوجي حمراء بظهر أبيض، قام بوضع خرقة بيضاء ألصقها بالأنتين رسم وسطها الهلال الأحمر فبدت كما لو كانت سيّارة إسعاف تُستخدم للطوارئ. ساق السيّارة حتّى المستشفى الوطنيّ من دون أن يوقفه أحد، إذ كانت الشّوارع خالية تمامًا، وبقي في المستشفى عدّة أيّام لأنّ الجيش حاصر مبناه، ومنع الخروج منه أو الدخول اليه.

خرجنا من مخبئنا، في أثناء وجود زوجي في المستشفى، لنُفاجَأ بأقسى وأبلغ مشهد جعلنا نصاب بذهول أفقدنا القدرة على النطق أو الحركة: شاهدنا جحافل اللّاجئين من بلدات الحدود مع إسرائيل وقراها، ممّن هُجّروا قسرًا من قلقيلية وكفر جمال وزيتا وارتاح وجلمة وعربونة وفقوعة وغيرها وغيرها، بعد أن طردهم جيشُ الاحتلال من أراضيهم ومزارعهم، ونقل بعضَهم بالشاحنات ورماهم على الحدود الأردنيّة، لكنّ الألوف هربوا من الجيش ووصلوا إلى نابلس بعد أن ضلُّوا طريقَهم في الجبال والوديان والبراري طوال أيّام. وصلوا مشيًا على الأقدام. جاءوا بأطفالهم وشيوخهم ودوابّهم، بحميرهم وأغنامهم وكلابهم، وهم جوعى وعطشى، وبعضُهم بأمراضٍ وجروحٍ وإصابات، وناموا في العراء في كروم الزيتون حول دارنا، ولا يُعينهم أحد. لا جيشٌ، ولا حكومة، ولا جمعيّات خيريّة، ولا أهالي البلد المختبئون في بيوتهم كما اختبأنا نحن، ولا تُقدَّم إليهم رعايةٌ من أيّ كان مهما يكن.

كانوا بالألوف، عشرات الألوف، وما كان في استطاعة ما يقدّمه

إليهم سكانُ حيّنا المعزولِ نسبيًا، في الطرف الغربيّ من نابلس، أن يكفيَهم. حاولنا تزويدَهم بالخبز والماء والأغطية والبطّانيّات المتوفّرةِ لدينا، لكنّ ذلك لم يكفِهم، فقد كانوا، كما قلت، بعشرات الألوف.

جارةٌ لي جريئة جدًا، أجرأ منّي، أجرأ بكثير، اقترحت عليّ أن نذهب أنا وهي، من دون الرجال، لطلب العون من رئيس البلديّة لمساعدة اللّاجئين. أفصحتُ عن مخاوفي من الجيش والسّير في الشّوارع في أثناء منع التجوُّل، فقالت باستهانة: لن يعبأ الجيشُ بشابّتين لطيفتين، وربّما يعتبروننا مخبولتين. سيحمينا شكلُنا اللّطيف من قسوتهم. نذهب إلى رئيس البلديّة. ونطلبُ منه أن يفتحَ لنا مخازن الشؤون الاجتماعيّة ووكالة غوث اللّاجئين المليئة بالحبوب والحليب الجافّ والبطّانيّات. هذا هو الحلّ، أو يموت اللّاجئون جوعًا ونموت معهم. فوافقت.

مشينا في الشّوارع، هي وأنا، وكانت خاليةً، والمدينةُ شبه مهجورة، مدينةُ أشباح. لا دبابات، ولا سيّارات، ولا مدافع، ولا حتّى جنود. سرنا وسرنا قرابة ساعة حتّى وصلنا إلى البلديّة، ورأينا هناك دبّابتين فقط لا غير وبعضَ الجنود الصغار السنّ والذين أخذوا يصفّرون لنا (فقد كنّا ما زلنا في العشرينيّات)، ويقولون كلمات ضاحكة، فهمنا منها الإعجابَ أو التحرُّش. لكنّهم لم يستوقفونا أو يمنعونا من دخول المكان.

دخلنا مبنى البلديّة، وفوجئنا بمجموعات من نساء مجنّدات مقاتلات بالكاكي، وبجيوب ضخمةٍ تمتدّ رفوفًا من الخصر حتّى أسفلِ الساقين، محشوةٍ بالقنابل والمسدّسات وأجهزةٍ كانت تسمّى «ووكي توكي» تُصدر خشخشةً متواصلةً وأصواتًا عبريّة مكتومة.

لم تستوقفنا المجنّدات، بل رمقننا، كما رمقناهنّ، بنظراتٍ متفحّصة فضوليّة، ولم تسألنا أيٌّ منهنّ عمّا نريد وماذا نفعل في ذاك المكان وفي ذلك الظرف، والبلدُ خالٍ مهجور إلّا منّا، نحن الاثنتين، شابّتين مدنيّتين مظهرنا لا يثير الشك ولا يهدّد، فقد كنّا، بعكسهنّ، لا نلبس الكاكي، بل فستانين.

صعدنا الأدراج واخترقنا الممرّات والقاعات، وكانت صامتة مهجورة. رأينا رئيس البلديّة حين وصلنا إلى مكتبه، وكان له بابٌ زجاجيٌّ بضلفتين مفتوحتين نصفَ فتحة. كان رجلًا في أواخر الخمسينيّات، عُرف بأناقته وحسّه الجماليّ المرهف، وله أيادٍ بيضاء على مدينتنا، فقد نظّمها وجمّلها ووسّع شوارعها وملأ أرصفتها بأشجار مزهرة استوردها من إيطاليا. ولهذا، كانت له هيبته وإجلاله بين الناس. وكان حين يمشي في الشّارع، ترتفع

الأيدي لتحيَّتِه والدُّعاء له بطول العمر والصِّحَّة ودوام العزّ.

لكنَّا فوجئنا به، ونحن ننظر من خلال الضلفتين الزجاجيَّتين المفتوحتين نصفَ فتحة، محاطًا بضبَّاط الجيش، نحو عشرة كولونيلات وجنرالات ومَن شابههم، بالكاكي والنجوم والشارات، وهو بينهم، كأرنب محبوس في قفص، وجهُه شاحب، وشعره غير ممشَّط ومتهدِّل، وجفناه مسبلان ولا ينظر أمامه أو حوله، بل إلى يديه المعقودتين فوق الطاولة ويستمع بصمت.

التفتت الأعين نحونا بدهشة وفضول وساد الصمت، فرفع الرجل المسكين جفنيه ورآنا، فحملق عينيه. وفجأة، كما لو استعاد صحوته وبعض ما صودر من كرامته، هبَّ واقفًا، بين الكولونيلات والجنرالات، ودفع كرسيَّه بعنف من خلفه، وأسرع إلينا وهو يمدّ يديه متسائلًا بذعر، ويكاد يشرق بكلماته: شو جابكن يا بنات، كيف وصلتوا؟! وتلفَّت حواليه كما لو كان يرغب في حمايتنا من أعين رجال الأعداء، وهمس زاجرًا: يا اللّـه، يا اللّـه، روحوا عبيتكن، روحوا عالبيت.

حاولت جارتي أن تُفهمه سببَ مجيئنا القهريّ وما نطلب، فرفض الاستماع وظلَّ يردّد: يا اللّـه، يا اللّـه، روحوا عبيتكن. روحوا عالبيت.

روحوا عبيتكن، روحوا عالبيت؟ هذه العبارة، كم سمعناها واعتدناها، ولكن، هل كانت تصلح لذلك السياق؟ روحوا عبيتكن! روحوا عالبيت! هزيمة، احتلال، لاجئون، جوعٌ وعطشٌ وأمراضٌ وجروحٌ وإصابات، وامرأتان ترغبان في تقديم العون، أيّ عون، أيّ نجدة، ورجلٌ مسؤولٌ ومثقَّف، ربَّما نصفَ ثقافة، وفي عُرف بلدنا متحضِّرٌ، يقول لنا بصوت هامس، هامس ومُحرَج، وبعزَّة رجل مجروحة كرامتُه خوفًا على عرضه ونسائه من عيون العدوّ، ولا يتذكَّر أنَّه محاط، بل محاصَر، لا من ضبَّاط العدوّ وذكوره فقط، بل أيضًا من نسائه المدجَّجات بالقنابل والرصاص و«الوكي توكي». وبدلًا من أن يستمع إلى ما نقول عن اللّاجئين والجوع والعطش والنوم في العزاء، يقول لنا زاجرًا بصوت هامس، شبه مبحوح: يا اللّـه، يا اللّـه، روحوا عبيتكن، روحوا عالبيت.

لأنهيَ المشهد كي أختصر، أقول إنَّنا، لا جارتي ولا أنا، رحنا عالبيت، بل صمَّمنا، وعاندنا، وتمترسنا، وتمكَّنا بقدرة قادر من استصدار أمر عسكريّ من كبير الجنرالات بفتح مخازن الشؤون الاجتماعيَّة ووكالة غوث اللّاجئين، وأخرجنا الحبوب والحليب والبطّانيّات. وللمفارقة، تمَّ نقلها بواسطة شاحنات الجيش الإسرائيلي.

النزول على الأرض

أحتكّ بشعبي الحقيقيّ لأوّل مرّة في حياتي، وأكتشف بعضًا من حقيقتنا. أحتكّ لأوّل مرّة بأهل قرانا، وهم الأكثريّة السّاحقة من الشعب الفلسطينيّ، وكنت أظنّ، بخلفيّتي المدينيّة في وسطٍ كان يُوصَف بالبرجوازيّ، وخرّيجة القسم الداخليّ في كلية راهبات الورديّة في عمّان، ونتيجة ما كنت أراه في العواصم العربيّة التي زرتها قبل الاحتلال: القاهرة وبيروت ودمشق، وكذلك ما كنت أشاهده في الأفلام المصريّة وأقرأه في الصُّحف والمجلّات، والروايات العربيّة، كنت أظنّ أنّ الوسط، الذي عشت فيه وتعرّفت إليه في مدينتي وتلك العواصم، يمثّل شعبنا الفلسطينيّ وكامل أمّتنا. ثمّ اكتشفت أنّنا لا نمثّل سوى شريحة رقيقة تعوم على سطح بحر، بل محيط راكد، من آدميّين يفتقرون إلى أبسط مقوّمات الحياة الكريمة. فقر وجهل وأمراض أغلبها ناتج من عدم النظافة، وسوءُ معاملة للنساء، وأيضًا للرجال، ونَزَقٌ وكسل وسوء تقدير وأنانيّة. هذا ما نحن، أغلبيّتنا، وإلّا فما تفسير ما كنّا عليه وما وصلنا اليه؟ ألم تكن تلك النتيجةَ الطبيعيّة؟ أيّ هزيمتنا وتشرذمنا وتشتُّتنا في ذلك الوقت، وهذا الوقت. وحتّى لا أعوم على سطح استنتاجات متسرّعة وعشوائيّة، من الأفضل أن أغوص في بعض التفاصيل، وأصف ما عشت وما شاهدت، وكيف استنتجت.

أوّل مشهد فاجأني وأصابني بالدّهشة وخيبة الأمل كان حين أوصلتِ الشاحناتُ الإسرائيليّة أشولةَ القمح والبرغل وعلب السمن والجبن الأصفر، وكلُّها من مخازن الشؤون الاجتماعيّة ووكالة غوث اللّاجئين، ووقفت وجارتي في الشّارع، وعلى أطراف كرم الزيتون، حيث تجمّع ألوف اللّاجئين، ننتظر من أحد أن يهبّ لمساعدتنا وينصحنا بما نفعل كخطوة تالية، وخصوصًا أنّ الرجال من جيراننا، ومنهم الصيدلانيّ والمهندس وطبيب الأسنان وعدد من أساتذة المدارس، كانوا يقفون أمام دُورهم أو خلف الشبابيك يراقبوننا ولا يُبدون أيّ نيّة في الخروج من بيوتهم لمساعدتنا أو مساعدة اللّاجئين. كنّا قبل الاحتلال حين نتزاور أو نجتمع في مكان ما ونستمع إلى تحليلات هؤلاء الرجال السياسيّةِ ومواقفهم الوطنيّة وقصص السجون التي خاضوها بسبب انتماءاتهم الحزبيّة، نحسّ أنا وجارتي، وطبعًا بقية نساء حيّنا والصديقات، نحسّ بالانبهار، وربّما بالنقص، لأنّنا نفتقر إلى ما يتجلّى في أقوال هؤلاء الرجال من قُدُرات تحليليّة ونَزَعات بطوليّة. فنحن النساء، وأغلبيّتنا محدودات التّعليم

والثقافة، وطبعًا غيرُ مسيَّسات، ولم تُسجَن أيُّ واحدة منَّا ولو يومًا واحدًا، لا نجرؤ على فتح أفواهنا بأيّ تعليق سوى إطلاق همهمات الإعجاب أو الانبهار. والآن، وقد وقعت الفأس بالرأس، وأصبنا بأكبر كارثة سياسيَّة وعسكريَّة وإنسانيَّة، وألوفُ اللَّاجئين المشرَّدين الجائعين المصابين يحيطون بنا، أما كان المنتظَر أن يهبّ هؤلاء الرجال المثقَّفون والمسيَّسون وأعضاء الأحزاب والتنظيمات، لنجدتنا ونجدة اللَّاجئين؟ هذا ما توقَّعناه، لكنَّهم لم يفعلوا، وظلُّوا وقوفًا أمام بيوتهم وخلف شبابيكهم يراقبوننا كأنَّ الأمر لا يعنيهم، أو أنَّه أصغر وأحقر من أن يحرِّكوا في سبيله قدراتِهم. لم أجد حينذاك بدًّا من الصياح بأعلى صوتي كي يسمعوا: بدلًا من أن تقفوا تنظرون إلينا أو تشنِّفوا آذان الآخرين بتحليلاتكم السياسيَّة الفخمة، تفضَّلوا وانزلوا من عليائكم وساعدونا في نجدة هؤلاء المنكوبين، أم أنَّ هؤلاء يخصُّوننا ولا يخصُّونكم؟ تحرَّك أحدهم حينذاك وقال بحيرة وخجل: وماذا في استطاعتنا أن نفعل؟ قلت: تحرَّكوا. علينا أن نطبخ لكلّ هؤلاء. تساءل بدهشة: وماذا نطبخ؟ وأيّ شيء يكفيهم؟! قلت: أحضروا لنا حللًا كبيرة وحتَّى براميل الغسيل ونحن نطبخ (كنَّا نستعمل براميل صغيرة لغلي الغسيل مع الصودا إذ لم تكن المبيّضات الكيميائيَّة معروفةً ومستخدَمة في ذلك الوقت.) هزَّ الرجل رأسه وأشار إلى آخرين بالخروج من وراء شبابيكهم، وما هي إلَّا دقائق حتَّى تجمَّعت لدينا تلالٌ من الحلل وبراميل الغسيل.

وكنت أعرف أنَّ الرجال لا يجيدون الطبخ أو يستعيبون القيام به، فذهبت وجارتي إلى بعض القرويات اللَّواتي تدلّ وجوههن على القدرة والعافية، وكنَّ يجلسن معًا في ظلّ شجرة على مسافة أمتار من الرجال، وطلبنا منهنَّ مساعدتنا في الطبخ من أجل إطعام كلّ هؤلاء الألوف. حملقت النسوة في وجهينا كأنَّهن لا يفهمن ما نقول، فأعدنا القول بشبه رجاء، وأفهمناهنَّ أنَّنا، نحن الاثنتين، لا نستطيع القيام بكلّ ذلك المجهود وحدنا، وأنَّ إطعام الألوف في حاجة إلى مجهود الكثيرين، لا اثنتين فقط. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّه لم يبدُ عليهنَّ أيُّ تفاعل، وظللنَ يرمقننا ببرود وعدم تجاوب، كأنَّنا نتحدَّث بلغة لا يفهمنها. وتحدَّثت أخيرًا واحدة، وكانت، كما يبدو، أكبرَهن سنًّا، وقالت بلهجة تنازليَّة كما لو أنَّها تتحدَّث مع طفلتين مجتهدتين تشهد لهما بالشطارة: يا خالتي، عملتن المعروف كفلنه (قمتنَّ بمعروف فأكملن القيام به). ضُعقنا من الردّ، فذهبنا نتذمَّر ونشكو إلى رئيس بلديَّة قلقيلية، وكان رجلًا جليلًا، ربَّما في أوائل الستينيَّات أو أقلّ قليلًا، فلم ينتظر الانتهاء من شكوانا، إذ هبّ واقفًا وهو يهزّ برأسه

موافقًا ويقول: أنا عارفهن، أنا اللّي بعرف أداويهن. ونزع حزامه الجلديّ عن وسطه بحركة سريعة، واتّجه ملوّحًا به في وجوه النسوة، وهو يصرخ بصوت مدوٍّ: قومين، قومين، يا بنات الكلب، يا اللّه قومين. واللّه إللّي ما تفزّ لأسلخ جلدها وألعن أبو والديها. فقمنَ بسرعة، وتراكضنَ نحو أشولة البرغل وبراميل الغسيل، ونحن نركض خلفهنَّ وقد تملّكنا إحساس بالشماتة والنصر.

الآن، وقبل الآن بزمن طويل، أيّ حين وعيت وضعَ المرأة ومهانتَها، وكسلَها وسوء تقديرها، وربّما جهلَها، وربّما تبلُّدَها الناتج من ظروفها التي هي في نظرها غيرُ قابلة للتغيُّر أو التحسُّن، بدأت أفهم أنَّ وضع هؤلاء النساء ما كان يختلف كثيرًا عن وضعي أنا، ابنة المدينة، وخرّيجة مدرسة ثانويّة، والغنيّة والبرجوازيّة، في اعتبار المجتمع. ألم أكن أنا الأخرى بليدة ومستسلمة طوال ثلاث عشرة سنة ذقت خلالها الأمرّين، وأذعنت لكلّ ما أصابني من قهر وإذلال؟ ألم أكن اتّكالية أنتظر الحلّ عن طريق والدي الغنيّ القويّ؟ ألم أكن أعزّي النّفس بمقولة إنَّ هذا نصيبي وما كتب اللّه لي؟ وبما أنَّ نصيبي وما هو مكتوب بذاك السُّوء، فلأغضُ النّظر، ولأتبلّد، ولأدرّبِ النّفس على قبول الواقع فأسمّي الخنوع صبرًا، والتمسحةَ حكمةً، وذبولَ النّفس وانكسارها تضحيةً. وهؤلاء النساء، إضافة إلى قهرهن الاجتماعيّ، ها هنَّ الآن يتعرّضن لقهر سياسيّ عسكريّ كارثيّ، فلمَ لا يتبلّدنَ؟ ولمَ لا يُسئنَ التّقدير وظروفهنَّ الخاصّة والعامّة هي تلك الظروف، ولمَ لا يتحرّكنَ إلّا إذا هُدّدنَ بالسّياط وسلخ الجلد؟ ألم يُربينَ منذ الطفولة على الانصياع للأوامر والخنوع المطلق للذلّ والظلم وتلبية رغبات الآخرين كالعبيد أو المرتزقة؟ ألم أفعل أنا ذلك أيضًا؟ الآن فهمت، وقبل الآن بسنين طويلة قلت لنفسي وللناس: فهمت، فهمت. لكنَّ الكثيرين، بل معظمهم، لا يفهمون، وربّما عن سبق إصرار وترصُّد يتلكّأون في الفهم، فلا يتغيّرون.

أمّا المشهد الثالث، أو الدرس الثالث الذي تعلّمته في ذلك الظرف، فهو أنَّ المتحرّك في بلدنا لا بدَّ من أن يُصاب برذاذ تفتفة من لا يتحرّكون، وفأفأة حسدهم. كيف ذلك؟ لا بدَّ من تجسيد هذا الاستنتاج بصورة دراميّة أو مشهد مسرحيّ من مشاهد اللّامعقول.

سألتني أمّي حين التقيتها صدفة في الشّارع، وكان ذلك بعد نحو أسبوع من وقوعنا تحت الاحتلال، والناس قد خرجوا من بيوتهم هائمين على وجوههم يستطلعون أحوال البلد وما حلّ بنا، سألتني أمّي بلهجة صارمة: أين كنت، وإلى أين أنت ذاهبة؟ أفهمتها أنّني وجارتي ندور في

المدينة نبحث عن أشخاص يتمتّعون بفصيلة دم *RH negative*، لأنّ إحدى اللّاجئات ممّن لجأن إلى بيت الدّرج المؤدّي إلى بيتي مصابةٌ برصاصة في بطنها، وتنزف بغزارة ومهدّدةٌ بالموت إذا لم نوفّر لها دمًا من فصيلة دمها النادرة، وأنّ نابلس بأكملها لا تحتوي على أكثر من ٦ أشخاص يحملون فصيلة الدم النادرة تلك، ولم نتمكّن من معرفة سوى عنوان واحد لهم فقط. وقلت، وأنا أقترب من أذنها همسًا: تصوّري أنّ فلانًا (وكان طبيبًا وأحد أقطاب أحد الأحزاب المعتبَرة في ذلك الوقت، وممّن عُرفوا بتحليلاتهم وتنظيراتهم السياسيّة الفخمة) هو الوحيد الذي تمكّنا من تحديد عنوانه، وحين قصدناه اعتذر بفظاظة وقال إنّه لا يملك الإمكانيّات لأنّه مشغول. وحين سألناه عمّا هو أجدى من الانشغال بإنقاذ امرأة تموت، استدار بظهره ودخل غرفة الكشف ولم يُجب عن السؤال. غضّت أمّي نظرها وسألتني بضعة أسئلة عن المرأة المصابة وعمّا فعلتُ خلال الأيّام السّابقة، ثمّ توقّفت عن الحديث وما زلنا وقوفًا في الشّارع، وقالت بعد لحظات من صمت كئيب محرج: الناس يستوقفونني وسط الشارع ويقولون إنّك دايرة مع اليهود، وإحداهنّ قالت لي بالحرف الواحد: روحي شوفي بنتك وضبّيها، دايرة مع اليهود، واللّه أعلم بحالتها. سألتها باكتئاب وقد تراكم الهمّ على قلبي ممّا أكتشفه يوميًا في بلدي: يعني أنا عميلة؟ ثمّ وصفت لها ما حدث وأنّنا استصدرنا من البلديّة أمرًا عسكريًا بفتح مخازن التغذية التابعة للشؤون الاجتماعيّة ووكالة غوث اللّاجئين، وأنّ شاحنات وأفرادًا من الجيش قاموا بنقل الحبوب والحليب إلى اللّاجئين ورجالُنا يتفرّجون. فهزّت أمّي رأسها وسألت بأسًى: هذا إذن ما حدث؟ لكنّ الناس لا يعلمون. سألتُ بقنوط: ولو علموا، فهل يتفهّمون؟ وفارقتها وقلبي مليء بالأسى والاكتئاب، إذ إن ما اكتشفته خلال أيّام الاحتلال الأولى، وهو المحك والمؤشّر على ما هو أكبر وأعمق، جعلني أشعر باليأس والإحباط. وما اكتشفت هو أنّنا شعب مهذار كثيرُ الكلام، قليلُ الفعل، سقيمُ التفكير، عديمُ التّنظيم. إذن، المشكلة ليست في الحكومات الفاسدة وأنظمة الحكم، كما كنّا نظنّ، بل إنّ المسألة أعمق من ذلك، أعمقُ كثيرًا. وبتُّ منذئذ مقتنعة بفكرة أنّه كما تكونون يُولّى عليكم، وأنّ المنهزمين في الداخل لا ينتصرون.

طُرد زوجي من ثالث بنك، وكنّا ما زلنا تحت الاحتلال، فلم يبقَ بنك في الضِّفة يوافق على توظيفه، أو يرضى به. وصلت سُمعته كمقامر مدمن إلى عمّان، حيث بدأ حياته موظّفًا في أحد البنوك هناك، وصرنا نسمع أنّ بنوك الأردن رفضت توظيفه أيضًا. وعلى الرّغم من ذلك كلّه، فإنّه حين وجد وظيفة في ليبيا، وأرسل يطلب منّي اللّحاق به مع ابنتَيّ، حملتهما وأغراضيَ ولحقت به، لأنّي كنت مقتنعة في ذلك الوقت، بأنّ طريقي مسدود بلا منفذ، وبلا نوافذ، وأنّ ذلك ما كتبه اللّـه لي، وأن لا مستقبل لي إلّا أن أظلّ زوجة صابرة مستورة ترضى بما قُسم لها، فذاك هو حظّي من الدُّنيا، وبختي وقَدَري.

ذقت في ليبيا الأمرّين. اكتشفت في البداية، أنّ القرض الذي أخذه زوجي من مصرف ليبيا حيث وجد وظيفة معتبَرة ليستأجر لنا بيتًا ويفرشه، صرفه في كازينو الودان التابع لأكبر فندق سياحيّ في طرابلس. كانت ليبيا في ذلك الوقت ما زالت مَلَكيّة، وما زال السنوسي هو الملك، وفيها أكبر قاعدة عسكريّة أميركيّة تسمّى ويلاس إير بيس. وفي ذلك الوسط، حيث الخمرُ والقمارُ وسهرُ اللّيالي كلُّها أمور مسموح بها ومباحة، أخذ زوجي مجده ولعب بالقرض حتى آخر فلس فيه، واستدان من زملائه أجر بيت قبيح في حيّ فقير يخلو من الفرش، ولا شيء فيه إلّا ثلاثة أسرّة وثلاث بطّانيّات فقط لا غير. والسيّارة التي استقبلَنا بها من المطار وادّعى أنّها مُلكه، ما كانت له، بل لزميل له استعارها منه على أن يعيدها إليه بعد أيّام.

جوّ مشؤوم من البداية. بيت فارغ، وبلد غريب، ومال شحيح لا يكفي إلّا للأكل، يا دُوب للأكل، ولا توجد أمّ ألجأ إليها لأشكو همّي فتواسيَني وتهوّنَ عليّ، ولا أقارب، ولا حتّى مكتبة البلديّة أغرف منها الكتب التي شكّلت لي، لسنوات طوال، نوعًا من الهروب ومصدرًا للعزاء.

عاد إلى اللّعب بشكل فاحش. وفي يوم، حين جاء مع طلوع الصبح وعاتبته، وكان مخمورًا وفي مزاج مَن خسر آخر قرش في جيبه، ضربني ضربًا مبرّحًا، وكاد يقتلني لولا تدخُّلُ الجيران. وكانت تلك المرةَ الثانية التي يمدّ يده فيها عليّ ويضربني. كانت المرّة الأولى بعد زواج أبي ببضعة أيّام. عاد من السّهر آنذاك كعادته، وحين عاتبته، ضربني بشكل مفاجئ، وهو يكزّ على أسنانه، ويقول بوحشيّة وشماتة: روحي لبابا وقولي له.

روحي لبابا، روحي لبابا. وأخذ يردّد كلمة «بابا» بعدّة أشكال، وهو يهزّني ويحملق في وجهي بعينين حمراوين ويقهقه، فأدوخ من أنفاسه، ويضرب وجهي ويشدّ شعري ويقول: بابا، بابا، بابا. ولم يتركني حتّى ارتميت مضرَّجةً بكدماتي ودمي، شبهَ ميّتة على الأرض. ويضربني بشكل وحشيّ في ليبيا، للمرّة الثانية، وابنتي الكبرى تصرخ وتصيح: بابا، بابا. وتشدّ بساقيه تحاول إبعاده عنّي فلا تقدر، وتزداد ذعرًا وصراخًا حتّى كسر الجيران الباب وأنقذوني من بين يديه. أقسمت حينذاك بأن أنتقم منه ومن حياتي معه، وأن أطلّقه حتّى لو انتهيت إلى الشّارع ومتّ من الجوع.

كان في إمكاني أن أطلّقه منذ سنوات، لأنّ أبي، أيّامَ العزّ قبل زواجه، كان قد اشترى لي العصمة[1] في مقابل أن يسدّد له مبلغًا ضخمًا من خسائر القمار. كان ذلك بعد ستّ سنوات من زواجي، وبعد أن تكشّفَ وجه زوجي المعيبُ بالكامل. نصح عمّي الذكيّ أبي بأن يطلّقني منه في أسرع وقت لأنّ المقامر المدمن، كما قال عمّي، يلعب في نهاية المطاف على امرأته. اشترى لي أبي العصمة، دفع ثمنها، على اعتبار أنّ العصمة هي حلّ وسط بين الطلاق البغيض وزواج محفوف بالمخاطر. كانت الفكرة أنّ العصمة ستكون الملجأ والحلّ النهائيّ حين تشتدّ الأمور وتتدهور ولا يعود هناك أيّ مجال لإصلاح الحال. لكنّ العصمة بقيت معي طوال سنوات، سبع سنوات، لا أستعملها على الرّغم من نصائح أمّي المتكرّرة بأنّ زوجي لا ولن ينصلح، وأنّه، إن صحّ التّعبير: حائطٌ مائل، ليس سندًا، بل هو عبء خطير ومدمّر؛ يدمّر نفسه وكلّ من يكون قريبًا منه، وأنّ الطلاق في أسرع وقت يقي شبابي من الضياع، حتّى أظلّ في العشرينيّات لتكون حظوظي في إيجاد زوج جديد أفضلَ. وهذا ما أشرت إليه سابقًا، وحلّلتُ موقفي منه في إثر كلّ عاصفة تتبعها كلمات أمّي المحرّضة: إشلحيه من رِجلك، بتاخدي أحسن من سِيد سِيده.

تمرّ أسابيع دون أن يخاطب الواحد منّا الآخر. لا أحاول التحرُّش به، لا يحاول التحرُّش بي، كلّ واحد منّا في عالمه. وفي مثل هذه الفترات التي تشكّل قاعدة الزواج، يكفّ الواحد منّا عن اصطناع ما ليس فيه. ما نصطنعه نقوم به أحيانًا بسبب ظرف اجتماعيّ أو من قبيل المهادنة. أمّا في هذه البلد، فلا ظرف اجتماعيًا يتطلّب ما ليس فينا. عزلة تامّة لا إنس فيها ولا جانّ. لا أهل لا أصدقاء لا معارف ولا أبناء. لا ملامح بلد ألفها أو ألف لهجة أهليها. كلّ شيء غريب وكلّ شيء بعيد، وأنا في الداخل دودة قزّ في شرنقة. ومع الوقت انقلبت دودة.

دودة حقيقيَّة. دودة لا تقوى على شيء إلَّا ممارسة الزحف. وكنت أسمع أخبار البلد بالصدفة فأهزّ كتفي وأقول: يكفيني همّي. وأذكر أيّام الاحتلال الأولى والناس رحيل وخوف وجوع وندب متواصل، فأقول بصُفرة: هكذا بلد تحبل وتلد. لكنّي في الأمسيات، وحين تنفتح الشاشة الصغيرة عن صوتها وتقول: اللّي له في بلاده حباب، أبكي من دون أن أتعب نفسي في إيجاد تفسير. وفي الصباح أعود إلى ما كنت عليه، مجرَّد دودة.

....في الصَّباح كان راكدًا هامدًا كشوال فارغ. اقترب من سريري وجلس على حافَّته وبكى نَدَمًا. كنت ذابلة كعِرق أصفر. رجوته أن يطلّقني لكنّه كان في إحدى حالات الندم السامية التي تنتابه أحيانًا فيسدّ عليّ سبل الحزم الذي ما امتلكته أبدًا. قال إنّي امرأة مستورة وإنّي ملاك وإنّي قَدَرُه كما أنّه قدري، ورأيت أنّه يقول الواقع فاقتنعت بثواب الاستشهاد وانتابني إحساس القدّيسات. لحظات مرَّت ثمَّ اكتشفت الخدعتين، خدعتي وخدعته. فعدت أطالبه بمنحي إذن وليّ الأمر كي أتمكّن من مغادرة المنفى، فغادرني وهو يدمدم بالشتائم لأنّي جرحت كبرياءه. فأنا امرأة جحود لا ينفع معها اللين ولا الإنسانيَّة. وأنا لئيمة وعنيدة ومجنونة، والأبلغ من ذلك أنّي عقيم. فحملت عنبر وضممتها إلى صدري وذرفت الدُّموع الباردة على وجه بارد. وفتحت الآلة الكهربائيَّة وبدأت ألقمها الملابس. ودم تك دم تك دم. يذوب العمر ويعلو العويل ويمتدّ حزني كحبل غسيل. ونشرت الملابس وعنبر تتابعني بنظراتها. وجلستُ على حافَّة السطح وتأمَّلت الدُّنيا برأس فارغ. شمس ونور وهواء ومبانٍ حديثة وأخرى عتيقة. وشوارع لا أعرفها ولا تعرفني. ووجوه أجهلها وأجهل التعامل معها. وأهل تخلّوا عنّي وأنا ما زلت مراهقة فجّة. وأصدقاء لا أعرفهم، وعمل لا أجيده، ودنيا واسعة لا أعرف لها أوَّلًا من آخر. وعدت إلى بيتي أتأمَّله قطعةً قطعةً وزاويةً زاويةً. وقلت إنّ هذا المكان هو الذي اختارته ليَ الدُّنيا، وإنّي لا أملك سواه مكانًا يحتويني أو يُؤويني. وإنّ الحقيقة ما يلي: ألّا مكان للمرأة إلّا بيتها.

هذه إحدى الحقائق لبقائي في هذا البيت. أمّا الحقائق الأخرى فعديدة. اعتدته، هذه أولى وأهمّ الحقائق. وقبل أن أعتاد اضطُررت للاعتياد عليه. أُرغمت. وهذه حقيقة ثانية. وكنت صغيرة وأصبحت كبيرة، وهذا لا يعني أنّي بتُّ أعرف الدُّنيا أو أعرف طريقًا آخر لها، وهذه

حقيقة ثالثة. ورابعة وخامسة وعاشرة، وكلُّها تصبّ في بؤرة واحدة، شرنقة واحدة. وبقيت عاجزة عن الطيران إلَّا من خلال الخيالات وأحلام الجريمة. وهكذا فقدت ضميري. أصبحت الجريمة حلمًا سعيدًا يراودني وألجأ إليه كلَّما مررت بمشهد من تلك المشاهد الصاخبة المتكرّرة. أصبحت الخيانة أمنية أتوق إليها لأنتقم. أصبح الجفاف والصرامة فعلًا أتمرَّسه وأدرّب النَّفس عليه حتَّى لا أظلّ ألين لتوسُّلاته وإذلالاته لنفسه حين يصحو من فعلاته. أصبحت أقف أمام المرآة أتمرَّن على تعبير معيَّن أرسمه على وجهي لكي يخافني ويحسب لي الحساب، فقد كان من النَّوع الذي يتمادى كلَّما وجد في الجانب الآخر صبرًا، ورغم ذلك فقد صبرت، أُرغمت على الصَّبر. كان قد نشأ على الدلع والدلال لأنَّه ذَكَرٌ بين طابور إناث. وكان كلّ ما يطلبه يُعطى له ويباح، بما في ذلك شَعر أخواته الذي كان يشدّه حتَّى تتكوَّم الخصل في قبضته. وكانت له رفسة شلّوت مميَّزة يمارسها مع أخواته الصَّغيرات. وكان يتباهى وهو يستعيد تلك الذكريَّات ويتعمَّد ذكرها أمامي ليثبت لي أنَّه كان حمشًا، منذ الطفولة، وأنَّ العائلة كلّها ممثَّلة في أمّه وأبيه وأخواته وعمَّاته وخالاته وزوجات الأعمام وزوجات الأخوال والجارات وأزواج الجارات وأولاد الحارة والعالم كلّه قد أخذوا هذا الأمر بشكل مسلَّم به، والأمر هو أنَّه جوهرة البيت وزينة أخواته وقرَّة العين ومحروس العيلة. وهذه الظاهرة لم تكن جديدة عليّ، فأنا أيضًا تخرَّجت من بيت يتعطَّر ببول الذَّكَر. ولأنَّ الظاهرة لم تكن جديدة عليّ فقد اعتدتها. ومن باب العادة أيضًا حقدت عليها حقدًا لا يعرف الأناة أو الهوادة. وشربت مرارتها حتَّى استقرَّت في أحشائي وترسَّبت في كريات دمي. فبفضلها فقدت هويَّتي وأصبحت «خنتة»، وبفضلها حُرمت من البسملات والتبريكات والشبَّة والخرزة الزرقاء. وبفضلها لم أُصَب بالعين ولو مرَّة، ولهذا لم تستحقّ عليّ الرُّقيةُ والملح ومجمرة التبخير. كنت أغار؟ طبعًا كنت أغار وما زلت. مَن منَّا لا يرغب في أن يتبوَّل عطرًا؟ وبما أنَّ الرغبة لم تتحقَّق أبدًا، فقد حَسَدت، ولهذا تناثرت الخرزة الزرقاء وارتفع منسوبها وثقل وزنها حتَّى تهدَّلت أكتافهم تحت وطأتها، فازدادوا انحناءً وازددتُ حسدًا، ولم تفلح عيني في طرقهم لأنَّها كُسرت منذ زمن بعيد. وكلَّما ازدادوا انحناءً تفاقمت الرَّغبة في الاتّكاء. وقد اتُّكِئ عليّ حتَّى لم يبقَ فيّ عضو لم يُستغَلّ ذريعة. رأسي وبطني وقعري وابتسامتي وغمزتي ورعونتي ووقاحتي وجريمتي. ولهذا بتُّ مجرمة بدون جريمة.

من «مذكرات امرأة واقعيَّة»

1 لم يكن قانون الخلع قد أُقرَّ بعد.

قرّرت أن أطلّقه وأفرّ من ليبيا، بعد أشهر من التردُّد ووضع عبثيّ لامعقول جعلني أفكّر في قتل الرجل أو قتل نفسي. لكن، كيف؟ لا مال لديّ لشراء بطاقات سفر لي وللبنتين. كما أنّ القانون اللّيبيّ لا يسمح بمغادرة الزوجة والأولاد إلّا عن طريق وليّ الأمر، أيّ بإذن مكتوب منه. فأنا حبيسة ليبيا في سجن بعيد لا مفرّ منه، وهو يعرف، ولهذا استأسد وتنمّر، فانزويت في زاوية بعيدًا عنه لا أكلّمه ولا أعاتبه ولا حتّى أنظر إلى وجهه.

أخذت أفكّر: ماذا أفعل؟ كيف السّبيل إلى الخروج من ذلك السّجن؟ من أين أجيء بثمن تذاكر السّفر وكيف أحصل على موافقة وليّ الأمر؟

جاءت النجدة عن طريق جارتي التي ساهمت في تخليصي من بين يديه في تلك اللّيلة الرّهيبة. فقد انفتحتُ لها بعد تلك اللّيلة، وانفتحتْ لي، وصرنا صديقتين. حكيت لها ما أعاني بسببه، ومأساتي، وحكت لي أيضًا مأساتها، إذ إنّ زوجها، على الرّغم من لطفه وظرفه، يظلّ يعيّرها بسبب عدم قدرتها على الإنجاب. كان قد مرّ على زواجهما بضعُ سنوات ولم تحمل. يقول لها، بشكل مزاح مبطّن: شجرة بلا ثمر يَحِلّ قطعها واستبدالُها بشجر مثمر. لكنّها تحبّ زوجها وهو يحبّها وما زال لديهما أملٌ في الإنجاب. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّه يظلّ يقول وهو يضحك: شجرة بلا ثمر...

قلت لها إنّي أنوي الهرب ولا أقدر بسبب المال وتذاكر السفر والإذن المكتوب من وليّ الأمر. قالت ببساطة: اشتغلي وحوّشي ثمن التذاكر، وبعد ذلك يحلّها الحلّال. قلت إنّي غير مؤهّلة، فأنا بلا شهادة ولا مهنة ولا خبرة. قالت: في طرف الشّارع حيث نسكن مركزُ تدريب للفتيات لتعليم الطباعة وتسريح الشعر والخياطة تابعٌ لجمعيّة النساء اللّيبيّات. وهكذا، اتّخذت أوّل قرار عمليّ في حياتي.

ذهبت إلى تلك الجمعيّة، في اليوم التالي، مع الصّباح، بعد خروج زوجي إلى عمله، وذهاب البنتين إلى المدرسة، وانتسبت إلى مركز التدريب، وكان الانتساب مجانيًا، وتعلّمت الطباعة باللُّغتين العربيّة والإنكليزيّة. وبعد شهرين أخذت شهادة بها من دون علمه.

طلبت منه، حين حصلت على شهادة الطباعة، أن يساعدني على إيجاد وظيفة فسخر منّي. قال إنّي من دون مؤهّلات، ولا وظائف لمن هنّ على شاكلتي من دون شهادة ولا خبرة ولا حتّى عقل. وأشاح بظهره وهو

يضحك ويتمتم.

صرت كلَّ يوم، بعد ذهابه إلى عمله، أذهب إلى أقرب بقّال أشتري منه صحيفة اليوم أبحث فيها عن إعلان لوظيفة سكرتيرة. ووجدت، بعد أسابيع، إعلانًا عن وظيفة لسكرتيرة تجيد الطباعة باللُّغتين العربيَّة والإنكليزيَّة في إحدى شركات التأمين. ذهبت لأستكشف الوضع ففحصوني فوزًا، وقالوا إنّي نجحت، لكنّي في حاجة إلى موافقة مكتوبة من وليّ الأمر.

علم بإمكانيَّة توظيفي بأجر يصل إلى ٩٠ جنيهًا ليبيًا بالكامل، وكان ذاك المبلغ في ذلك الوقت يُعتبَر سخيًا، سواء من حيث قيمتُه الشرائيَّة، أو من حيث إمكانيَّاتي المحدودةُ كامرأة من دون تأهيل ولا خبرة، فأخذ يتساءل مندهشًا، وبسرور واضح ومستغرَب: كيف وظَّفوك وقبلوك؟! على شو وظَّفوك مش عارف! وتقبضي ٩٠ جنيه شقفة واحدة؟ إنت، إنت؟ مش مصدَّق! لكنّه وافق وكتب لي الموافقة، وهو يهزّ رأسه ويقول: ٩٠ جنيه، أنا مستغرب!

اشتغلت سكرتيرة مبتدئة أطبع بوالص التأمين البسيطة، يعني الاسم والعنوان وقيمة التعويض وما شابه. وحين باشرت حكومة ثورة الفاتح من سبتمبر بطرد الطليان واليونان من المؤسَّسات والشركات واستبدالهم بالعمالة العربيَّة الوافدة، أخذت مكان رئيسة قسم تأمين السيَّارات وكانت طليانيَّة، ثمَّ مكانَ السكرتيرة التنفيذيَّة للمدير العامّ، وكانت إنكليزيَّة، ثمَّ مكانَ رئيس قسم البوالص العامَّة وكان يونانيًا. وبهذا، ارتفع راتبي وأيضًا معنوياتي، وزادت ثقتي بنفسي، وبدأت أحسّ بأنّي ذات قيمة ووزن وكفاءة.

أشعره ارتفاع قيمتي بالتهديد فأخذ يترصّدني آخر كلّ شهر ويطالبني بإعطائه راتبي لأنّه المسؤول عن شؤون الدار ومصاريف الأكل والماء والكهرباء وابنتيّ ومصروفي، وأنَّ دخل الدار يجب أن يكون في حوزة وليّ الأمر، بحسب كلّ التقاليد المرعيّة، وبحسب القانون. أخذ في البداية يطلب ذلك بشكل هادئ شبه لطيف، ثمَّ أخذ مع الوقت يرفع صوته ويهدّد. وفي يوم، وكان يجلس في البلكونة المرتفعة في أعلى الطابق الثالث، يشرب ويمزمز ويلفظ الكلمات بفكٍّ رخوٍ، قال مهدّدًا بشكل جدّيّ: إمَّا تعطيني على الأقلّ نصف الرَّاتب، وإمَّا ألقي بك من هذا البلكون. قلت وأنا أقف بعيدًا عنه وأختبئ خلف الباب الزجاجيّ المفتوح نصفَ فتحة: افعل ذلك حتَّى أرتاح من حياتي معك ومن رؤيتي هذا الوجه. وهربت منه

إلى غرفة البنتين وأغلقت الباب حتَّى لا يهجم عليَّ ويضربني. وبقيت في غرفة البنتين طوال فصل الشِّتاء لا أغادرها إلَّا حين يذهب إلى عمله أو سهراته. وحين حلَّ الصَّيف، وأنهت البنتان سنتيهما الدراسيَّتين، وبموافقته التامَّة على الانفصال، بحسب اقتراحاتي التي كتبتها على ورقة أرسلتها إليه بواسطة ابنتي الكبرى، وفيها أتعهَّد بعدم حرمانه البنتين، وعدم مطالبته بمؤخر الصداق[1] أو أيِّ حقوق أخرى، بدأنا نعدّ العدَّة لمغادرتي النهائيَّة على أن أقوم أنا بإجراءات الطلاق بواسطة العصمة الممنوحة لي. وهذا ما فعلت، إذ عدت إلى بلدي وأنهيت زواجًا استمرَّ ثلاث عشرة سنة خرجت منه وأنا مضمَّخة بالجراح، لكن أقوى، وأكثر اعتمادًا على النَّفس، وأكثر ثقَّة بإمكانيَّاتي وقدراتي، وبأمل في غدٍ جديد أحَنُّ وأرحَبَ.

غادرت ليبيا وفي جيبي مبلغ ألف دينار أردنيّ هو خلاصة ما حوَّشته خلال عملي كسكرتيرة في شركة التأمين، ثمَّ كموظَّفة استقبال في السفارة النيجيريَّة، وكان ذلك المبلغ بالنِّسبة إليّ في ذلك الوقت ثروةً عظيمة أشعرتني بالثراء والقوَّة وإمكانيَّة اتِّخاذ قرارات مصيريَّة باتِّجاه ما سأكون في المستقبل. فمن ذلك المبلغ زرت القاهرة وأنا في طريق الرجوع إلى بلدي، وتعاقدت مع حلمي مراد على نشر روايتي الأولى التي كتبتها بالسرّ عن زوجي. ومن ذاك المبلغ دفعت أيضًا رسوم الانتساب إلى جامعة بيرزيت عن الفصل الأوَّل، أمَّا بقية الفصول وحتَّى التخرُّج فكنت أُعفى من رسومها بسبب تفوُّقي الدِّراسيّ، وكذلك حصولي على أجور تشجيعيَّة بسبب عملي في مجلة «الغدير» الجامعيَّة.

أمَّا كيف تمكَّنت من إقناع زوجي بحجز تذاكر السَّفر من ليبيا إلى الأردن عبر القاهرة، فقد ادَّعيت أنَّ البنتين تحلمان بزيارة حديقة الحيوان، وأنَّهما درستا عن الأهرامات وترغبان في رؤيتها ولو مرَّة، فرجوعنا إلى الضفَّة لن يهيِّئ لنا فرصة ثانية لرؤية الأهرامات ولا حديقة الحيوان. ولا أدري كيف وافق، إذ لم يكن يلبِّي لي أيَّ طلب مهما قلَّ شأنه. ربَّما لأنَّ اتِّفاقنا على الانفصال بالحُسنى وعدمَ حرمانه رؤيةَ البنتين، وإعفاءَه أيضًا من مستحقَّات الطلاق وما شابهها، وربَّما لأنَّه أراد الخلاص منِّي ومن نَكَدي كما أريد أنا الخلاص منه... لهذه الأسباب جميعًا، ربَّما وافق على ذهابي إلى القاهرة، أو إلى جهنَّم، حتَّى أكون بعيدة عنه. وهكذا، طارت الطائرة بنا وأنا أراه من الكوَّة يلوِّح لنا، فأحسَّ بأنِّي أودِّع سجَّاني وكاتمَ أنفاسي ومُزهقَ روحي، وأنِّي سأعيش منذ اللَّحظة، بجناحين، حرَّة طليقة بلا قيود ولا دموع ولا شكوى. حرَّة طليقة.

مشيت نحو الطائرة وأنا أتلفّت خلفي. ورأيته يلوّح لي بيده ويبتسم مشجّعًا ومتخلّصًا. وأنا كذلك أحسست بانفعالات مختلطة غير متجانسة. كنت سعيدة بحذر. قلبي يدقّ كشهقات بكاء مكتوم. في رأسي خدرٌ وستارة رقيقة بيضاء أرى من خلالها الناس والمباني والطائرات كما لو كانت في عالم لا يخصّني. وحتّى أنا لا أخصّني. رجلاي تسيران كما لو كانتا تغوصان في أرضيّة بخاريّة. أوصالي محلولة كما لو كانت مشبعة بالبنج. وتلاشى الخوف وحلّت محلّه لامبالاة فلسفيّة وتحليق صوفي. وعدت أتلفّت للخلف ورأيته ثانية. رأسه وملامحه التي فقدت أيّ اتّصال بها. بدلته التي اعتدتها وشكله الخارجي الذي انزرع في خيالي والتصق فوق حجابي الحاجز كبصمة خفّ معدني. ولم أحسّ بالكراهية. لم أحسّ بالخوف. أحسست أنّه قريبي الذي تجمعني به صلة الدم والمكان ويبعدني عنه بعد الفهم والوجدان. إحساس اعتدته منذ الطفولة ولهذا تعذّر التّمييز. وجه من وجوه كثيرة قريبة من العين بعيدة عن القلب وشعاع البسمة. ضحكات رنّت دون صدى. دموع ذرفناها دون حنين. وخوار في الصدر وفراغ الغربة في القرب.

... اكتشفت أنّي أجلس إلى جانب فنّانة إيرلنديّة تعزف البيانو في قصور الثقافة. ابتسمت لها فابتسمت لي، خاطبتها واستعنت بما تبقّى في الذاكرة من اللّغة الغربيّة. وبلهفة المحروم من دنيا الناس وارتدادًا لعالم كنت ما زلت أحمل له كلّ أشواق التفّاح أقبلتُ عليها. من أنت وماذا تعملين وكيف بدأت وكيف تزوّجت وكيف طلّقت وكيف بدأت من جديد؟ عازفة بيانو؟ حرفة أم ولوج الجنّة؟ والأجنحة؟ بلى بلى، هتفت باندفاع طفلة وأنا أستمع إليها. أعرف هذا الإحساس، جرّبته. وبلهاثٍ حكيت وعبّرت وعَبَرت إليها. وكانت تكبرني بسنوات كثيرة وتجاربَ تمتدّ من محيط إلى محيط، وهتفتُ بشباب أصغر منها بعشرين سنة: بلى بلى. والتقينا.

ورأتني ساهمة أفكّر فربّتت على كتفي وابتسمت:

ـ لشعبينا قصّتان متشابهتان. وأنا وأنت متشابهتان.

صدمتني المقارنة فتلعثمت. تمتمت ويدي على صدري:

ـ أنا ... أنا .. لا أعرف.

.... وقلت لها: اسمعي حكايتي، هاك هي، ما رأيك؟

علّقت تعليقات غريبة أثارت دهشتي. سألتها أسئلة ساذجة فقهقهت. ابتسمت خجلًا فعادت تربّت على كتفي وتردّد: يجب أن تقرئي قراءات موجَّهة. قلت: جرَّبت المناشير وما نفعت. ضحكت كثيرًا حتَّى ابتلَّت عيناها. وصاحت في هدير الطائرة وانخفاض الأرض:

ـ أوَاه ما أشبهَ المرأة بالمرأة!

من «مذكرات امرأة غير واقعيّة»

---

1 كان متأخِّري في ذاك الوقت ألفَ دينار.

من أهمّ الدروس التي تعلّمتها ككاتبة مبتدئة، ألّا أحتفظ بنسخة واحدة أو اثنتين من أيّ رواية أكتبها، أو حتّى من أيّ مقال أو بضعة سطور أخطُّها. لم يكن الكمبيوتر ولا آلة النسخ معروفَين في ذلك الوقت، أي أواخر الستينيّات، وكلّ ما كان لدينا، أو كان لديّ، هو الطباعة على آلة كاتبة واستخدام ورق الكربون لاستصدار عدّة نسخ ممّا نطبع. وبعد ما حدث لروايتي **بعد الهزيمة**، صرت أستخدم العديد من أوراق الكربون إلى درجة أنّ النسخة الأخيرة تكون فاهية وتكاد لا تُقرأ إلّا بمجهر. وحين تعرّفنا إلى الكمبيوتر وآلات النسخ صرت أحتفظ بنسخ لا حصر لها، في ديسكات وأسطوانات مدمجة وفلاشات، وأيضًا مطبوعة ومصوَّرة على آلة النسخ، أخبّئها في أماكن متناثرة وعديدة.

أمّا ما هي **بعد الهزيمة**، فهي روايتي الأولى التي كتبتها، أو لجأت إليها، كي أنسى بواسطتها سجنيَ المشؤومَ في ليبيا وأجواء الزواج. في أثناء غياب الزوج عن البيت في عمله، أعود إلى قراءة الرّوايات والكتب ودواوين محمود درويش وسميح القاسم، أو أحاول كتابة قصائد ركيكة تعبّر عن وضعي وأوضاع النساء في بلدي، متّخذة ممّا حدث لي ولأخواتي وقريباتي وأمّي بالذات مرجعيّاتٍ أستمدّ منها مشاعري الناقمةَ الممرورة؛ أو أكتب قصائد ساذجة أعبّر فيها عن حنيني إلى أجواء نابلس ونقمتي على الاحتلال وضياع البلد. وأحسست بعد عدّة قصائد لا تتجاوز أصابع اليد، بأنّ الشعر لن يفي بما أحسّ به وأفكّر فيه، وأنّ ما يعتمل في داخلي وما يحيط بي أكثر تعقيدًا وتأزُّمًا من أن تفي به قصائدُ لا تحتوي إلّا على المشاعر، وأنّ المَشاهد التي تملأ رأسي بالصُّور والأفكار لا بد لها من مساحات رحبة، مرنة، تتّسع لما هو أكثر وأغنى وأعمق من المشاعر، وأنّ نقاش ما وصل إليه بلدي وما وصلتُ أنا إليه يحتاج إلى القصّ والبوح والتّحليل وتصوير المَشاهد والشخصيّات، أي تجاربَ حياتيّة لأناس يعانون في واقعهم ويفتّشون عن طرائق للخلاص، وأنّ ذاك كلّه لن تفي به سوى الرواية، أي مثلما كتبه الأدباء الوجوديُّون الذين تشبّعتُ برواياتهم التي كانت تملأ المكتبات والأرصفة، وروايات دستويفسكي وتولستوي التي كنت أستعيرها من مكتبة بلدية نابلس؛ أي إنّ تجاربي، بل تجاربنا، لن تجد لها مكانًا يتّسع لتعقيداتها وتشابكها إلّا الرّواية. وإنّ الرّواية هي ما يجب أن أحاول كتابته، لا القصائد، أيّ سبر أسرار الأرضيّة والواقع.

لكنّ، للأسف، لم تكن لديّ تجارب مهمّة إلّا تجربة الاحتلال. هذا ما

ظننته في ذلك الوقت، إذ كنت أشعر، كغالبية النساء حتّى يومنا هذا، بأنّ تجاربي الحياتيّة الخاصّة التي تتعلّق بتربيتي في بيت ذكوريّ محدود العلم والثقافة، وتربيتي كفتاة تنتمي إلى الجنس الضعيف القاصر، وما أحاط بزواجي من خداع الزوج وقسر الأهل وتمرُّدي الغوغائيّ عديم الفعالية والتّخطيط، ذلك كلُّه كنت أعتبره غيرَ ذي شأن يُذكَر، بل عديم الشأن، ومن المعيب وقصور الفكر والثقافة أن أدرجه ضمن تجاربي ذات القيمة الاجتماعيّة والفكريّة التي تستحقّ التأمُّل والتّحليل والتّسجيل. لهذا عمدت إلى استرجاع تجربتنا الجماعيّة مع الاحتلال وكيف واجهناه أو استقبلناه في أيّامه الأولى وتفاعلنا معه.

أمّا كيف عكستُ تلك التجربة الجماعيّة بشكل أدبيّ، وكيف صوَّرتُ تلقّي الناس، بمختلف شرائحهم، تلك الصدمةَ، فقد عمدت إلى استخدام شخصيّات مختلفة الأعمار والخلفيّات الاجتماعيّة والثقافيّة يقطنون جميعًا في عمارة ذات عدّة طوابق. وفي كلّ شقّة من تلك الطوابق شخصيّة تعبّر أو ترمز إلى شريحة اجتماعيّة أو ثقافيّة أو اقتصاديّة مختلفة. فهناك التاجر والمزارع وإمامُ المسجد وطالبُ جامعيّ ناصريّ الانتماء وفتاةٌ ذات تفكير مستقلّ تنتمي إلى عائلة متوسّطة الحال ثقافيًا واجتماعيًا، والعديدُ من الفتيان والأطفال والعجائز.

تبدأ الرواية وهم جميعًا مختبئون في الطابق السفليّ من العمارة خوفًا من القصف والقنابل، وفي المشهد كثير من الذعر والبسملات والتناقضات والأنانية والفوضى. وفي هذا المشهد، نتعرّف إلى ملامح الشخصيّات المتفاوتة بثقافتها وأبعادها الوطنيّة والنّفسيّة، ونتعرّف أيضًا إلى الشخصيّتين الرّئيسيّتين: طالبِ الطبّ الجامعيّ الناصريّ بتفكيره، والفتاةِ النّموذجيّة التي اعتبرتُها في ذلك الوقت نموذجًا للفتاة الفلسطينيّة الواعية. أمّا المَشاهد الأخرى فنرى من خلالها معركةَ وادي التفّاح، وهي المعركة شبه الوحيدة التي حدثت فيها بعضُ المقاومة لأفراد من الجيش الأردنيّ الذين آثروا البقاء والصّمود على الرّغم من أوامر القيادة بالانسحاب، ونشاهد أيضًا لقطات استرجاعيّةً (فلاش باك) تصوّر الجيش الأردنيّ المنسحب وقد تدلّت أرجل بعض جنوده من خلفيّات الشاحنات العسكريّة وتهدّلت شباك التمويه حولهم وفوق رؤوسهم. مشهد فيه سخريّة سوداء ونقمة ومرارة، وفيه أيضًا شخصيّة الجنديّ المصاب بذراعه شبه المبتورة ولم يبقَ ما يصلها بالجسم إلّا عَصَبٌ فريد وشرايينُ تنزف.

يلجأ الجنديّ المصاب إلى العمارة طلبًا للإسعاف بعد أن قصفت

الطائرات الإسرائيليّة كاملَ الرتل الذي ينتمي إليه ولم يبقَ منه إلّا الجثثُ وبعضُ جنود فارّين يختبئون بشكل عشوائيّ بين الشجر أو في المغاور.والجنديّ المصاب الملتجئ إلى العمارة وسكانُها المختبئون في الطابق السُفليّ يرتعدون من قصف القنابل. ثمَّ تتفاوت ردّات الفعل تجاه الجنديّ المصاب. بعضهم خائف منه ومن تبعة مساعدته، وبعضُهم أخذ يفكّر في أفضل الطرائق لتخبئته حتّى لا يتضرّر الآخرون من وجوده بينهم، وبعضهم يُبدي ملاحظات بدائيّة عن كيفية مساعدته بوقف نزفه عن طريق ربط أعلى ذراعه. والطالبُ والفتاة يصرّان على إيصاله إلى أقرب مستشفى لعلاجه بشكل جدّيّ على الرّغم من معارضة الأهل وبعض الجيران وتذمُّرهم خوفًا من خروج الجنديّ ومرافقيه من العمارة ولفت النّظر إلى مخبئهم.

في الرواية مَشاهدُ أخرى تتضمّن وصفًا تفصيليًّا من خلال الجنديّ الأردنيّ لما حدث في معركة وادي التفّاح وما قبلها، وفيها وصفٌ تفصيليّ لقدوم دبابات العدو والمجنزرات وهبوط المظليّين والمظليّات على قمم الجبال وتطويقِ المدينة، وغفلة الناس حين استقبلوا تلك الدبابات بالزغاريد على اعتبار أنّها جحافل الجيش الجزائريّ الذي قيل إنّه جاء لنصرتنا. وأيضًا ثمّة مشاهدُ تتعلّق بجحافل اللّاجئين الذين طردهم الجيش الإسرائيليّ من المدن والقرى الحدوديّة، كقلقيلية وكفر جمال وزيتا وارتاح وغيرها وغيرها، ثمَّ قروية مصابة برصاصة في بطنها تنزف ببطء وتكاد تموت على درج العمارة. طبعًا لم أنسَ قصّة الحبّ الرومانسيّةَ التي جمعت بين طالب الطبّ الناصريّ والفتاة النموذجيّة، وهناك كثير من الوصف والنقد لأوضاعنا السياسيّة ومفاهيمنا الاجتماعيّة القاصرة والتي تنعكس في معظم الأحيان على مواقفنا السياسيّة والوطنيّة، بل تتغلّب عليها.

الآن، وأنا أسترجع ذاكرتي وما كتبت، أعرف أنَّ الرواية كانت من الناحية الفنّيّة غيرَ ناضجة وتحتاج إلى كثير من التدقيق والاختصار وتطوير الشخصيّات والمواقف، لكنّها كانت مشحونة بكمّ هائل من العواطف المحتدمة والنقد المُرّ والبطولات الضائعة في بحر من الخيبات والهزائم. ولو لم أفقدها وتمكّنت من نشرها لكان لها أثر ولو بسيط من حيث قيمتها التأريخيّة لما حدث لنا أيّام الاحتلال الأولى، ووصفٌ دقيق لكيفيّة استقبالنا العشوائيّ للاحتلال بنكهته الدراميّة السوداويّة التي مهّدت لهزائمنا اللّاحقة على امتداد ما يقرب من خمسين سنة من احتلال منظّم لشعب غير منضبط ولا منظّم.

كتبت الرواية في السَّنة الأولى من مكوثي في طرابلس ـ ليبيا، في البيت العتيق ذي العفش الشحيح، المؤلَّف من ثلاثة أسرة وبعض الأدوات الكهربائيَّة، كغسالة وثلاجة وبوتوغاز، وطاولةٍ عتيقة مستعمَلة وبضعة كراسيَ للسُّفرة قمت بتجديد وجوهها الكالحة والممزَّقة بأن ألبستُها بطريقة بدائيَّة قماشًا رخيصًا ما كنت أعرف أنَّه يُستخدم لملابس النساء اللِّيبيَّات التقليديَّة إلَّا فيما بعد، أيّ حين تعرَّفتُ إلى جارتي اللِّيبيَّة التي تأمَّلت الكراسيَ بدهشة ضاحكة، وقالت إنَّها ما كانت تظنّ أنَّ ذلك القماش التراثيّ يصلح أيضًا لتجديد العفش المستعمَل وإلباسِه وجهًا قشيبًا بنكهة غريبة.

أنهيت الرواية ولم أعرف أين أنشرها، وبمن أتَّصل، وكيف. معرفتي المحدودة بالعالم كستْ بيت مغتربة في جوّ لا أعرفه ولا علاقة لي به من قريب أو بعيد، جعلت إمكانيَّة سؤال أيّ كان، وحتى لو كان مكتبة بلدية نابلس التي كانت، حتَّى ذلك الوقت، مرجعي الثقافيّ والأدبيّ الوحيد، معدومةً تمامًا، بل مستحيلة، إذ كان التواصل بين فلسطين المحتلَّة وبقية الدول العربيَّة ممنوعًا، بل محرَّمًا. ولم تكن سبل التواصل الإلكترونيَّة بواسطة الفاكس والإيميل والفيسبوك مكتشَفة. وكان علينا أوَّلًا، من أجل التواصل بين الجانبين، أن نرسل رسالة إلى وسيط ما في قبرص أو لندن أو أيّ دولة أجنبيَّة، ويعمل ذلك الوسيط بدوره على إرسال الرِّسالة بعد تغليفها بغلاف جديد وطابع أجنبيّ إلى المكان المقصود، سواء فلسطين أو أيّ مكان في العالم العربيّ.

توصَّلتُ، بكلّ ذاك الجهل وتلك الحيرة، إلى فكرة مفادها أنَّ المكان الوحيد الذي أستطيع من خلاله نشرَ روايتي هو دار الأسوار في عكا، التي نشرت دواوين محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من شعراء فلسطين المحتلَّة عام ١٩٤٨ وكتّابها. ولكن، كيف أدخل مخطوطة الرواية، وكلُّ قصاصة ورق تُراقَب وتحوَّل إلى مكتب المخابرات الإسرائيليّ الموجود على الجسر؟ وخلصتُ إلى أن أسلَمَ طريقة هي أن أقوم بنَسخ الرواية على دفاتر ابنتَيّ الصغيرتين، أيّ على ظهر الصفحات المملوءة بكتابة البنتين، سواء كانت الكتابة عبارة عن أحرف أو أرقام أو رسوم طفوليَّة. وهذا ما فعلت. نسخت الرواية ذات الخمسمئة صفحة مطبوعة على الصفحات الفارغة في دفاتر البنتين المستعمَلة. وكانت الحصيلة العديد من الدفاتر لا أذكر بالضَّبط كم كان عددها، لكنَّها كانت كثيرة. وحتَّى أموِّه الأمر، أرفقت تلك الدفاتر بكتب مدرسيَّة، فيها التاريخ والجغرافيا

والمحفوظات وما شابهها. وطبعًا، أبقيت النُّسخة الأصليَّة المطبوعة في البيت وأخفيتها بين البطَّانيَّات واللِّحف الشتويَّة التي ما عدنا نستعملها بسبب حرارة الصيف.

وصلنا إلى الجسر، وأوَّل ما قوبلنا به هو حجز الدفاتر والكتب وإدخالها مكتبَ المخابرات للرِّقابة والتَّفتيش. لم أكن خائفة في بداية الأمر. كنت أشعر بأنَّ وجود الطفلتين يحميني، إذ يمنحني مظهرَ الأمِّ الوديعة، كما أنَّ الكتب والدفاتر المدرسيَّة توحي بالبراءة الطفوليَّة. لكنْ، مع تزايد أعداد المسافرين الداخلين فلسطين بالمئات وبقائي مع البنتين في انتظار دورنا على الرَّغم من أنَّ العديدين جاءوا بعدنا بوقت طويل، بدأت أشعر بالقلق. وأحسَّت الطفلتان بالملل والجوع والعطش والحاجة إلى استعمال دورة المياه عدَّة مرات. وذلك كلُّه جعل من الصعب ضبطهما أو التَّخفيف من انزعاجهما وانزعاجي، بل خوفي المتزايد، فبدأت أرتِّب في ذهني ما سأقول إذا ما سُئلت عن مضمون تلك الدفاتر.

لم يبق أحد على الجسر إلَّا أنا والطفلتان. كانت الصغيرة قد نامت في حضني، والكبيرة نامت على مقعد خشبيّ فارغ، وأنا مرتبكة ويتأكَّلني القلق، ثمَّ الذعر، وخصوصًا بعد أن سمعت صراخ امرأة تتأوَّه وتصيح: «يا كلاب»، وأحدهم يكيل لها الشتائم ويقول «يا شرموطة». وهذا المشهد وصفته في بداية **الصبَّار** في أثناء مرور البطل أسامة الكرمي بالجسر عند رجوعه إلى الضفة.

دبَّ الرُّعب في قلبي وبدأت أتخيَّل ما سيكون موقفي لو فعلوا بي ما يفعلونه بتلك المرأة، وهي بلا شكّ من أفراد المقاومة، ربَّما ضبطوها في أثناء تهريب شيء ما، ثمَّ ماذا سيحدث لابنتَيّ إذا ضبطوني وعاقبوني كما يفعلون بتلك المرأة؟ قمت، بسرعة، بكتابة عنوان أهلي في نابلس ورقم هاتفهم ودسَسته في جيب البنت الكبيرة ولم أقل لها عن السَّبب حتَّى لا تصاب بالذعر. لكنِّي كنت أتوقَّع أنَّهم في حال القبض عليّ يفتِّشون البنتين وحينذاك يتَّصلون بأهلي لاستلامهما. هذا ما توقَّعته، لكن الأمور تمخضت عن شيء مختلف، إذ استُدعيتُ والطفلتين إلى مكتب المخابرات، فدخلت وقد رسمت على وجهي علامات الحيرة والدَّهشة من إبقائي على الجسر حتَّى بعد خلوّه تمامًا من المسافرين، وادَّعيت انزعاج الأمِّ القَلِقة على طفلتيها.

بادرني المحقِّق بسؤالي عن مضمون الدَّفاتر، فلم أشأ الإنكار الكلِّيّ حتَّى لا أثير المزيد من الشكوك والشبهات. قلت إنِّي، في أثناء فراغي،

أتسلّى بكتابة القصص والروايات على ما أجده من صفحات فارغة في دفاتر ابنتي المستعمَلة. ثمَّ سألني عن مهنتي فقلت إنّي ستّ بيت ولا أعمل شيئًا غير ذلك. ثمَّ سألني عن مستوى تعليمي، فقلت له الواقع: «مترك» قديم فقط لا غير. وعن مضمون الرواية، فأخبرته بأنّها قصّة حبّ رومانسيّة. فتح أحد الدفاتر وأخذ يقرأ الفقرات التي أصف فيها الدبابات ومعركة وادي التفّاح، فقلت له إنّي أحاول أن أجعل لأجواء الرومانس نفحةً واقعيّة كما يفعلون في الأدب الروسي. سألني عن أيّ أدب روسيّ أتكلّم، وأيّ أديب أحاول تقليده، فقلت «الحرب والسلم» لتولستوي. أطلق قهقهة ساخرة، وصاح: تولستوي مرّة واحدة! فضحكت أنا وقلت بتحدٍّ مصطنع: لماذا تضحك، ألأنّي امرأة عربيّة وستّ بيت تجد تولستوي كثيرًا عليّ؟ تأمّلني، وما زالت الابتسامة على وجهه، وقال ساخرًا: طيّب، طيّب، لولا الطفلتان لكان لي حديثٌ آخر معك. مددت يدي وقلت بجرأة لا أعرف من أين أتيتُ بها: بما أنّك انتهيت منّي أعطني روايتي لأذهب. وضع يده على ركام الدّفاتر وقال ضاحكًا: لاااا، أنا لم أنتهِ منك ولا من رواية تولستوي. ستذهب هذه الدّفاتر إلى تلّ أبيب للمعاينة والفحص، ثمَّ نرسل في طلبك. أمّا الآن، فأنا لا أعرف ماذا أفعل بك. خذي الصّغيرتين وانصرفي. تلكّأت قليلًا كي أمنحه انطباعًا بأنّي غير خائفة لأنّي بريئة، وتساءلت ثانية إذا كان في إمكاني أخذ الدّفاتر وإبقاء واحد فقط للفحص والتّحقيق، فأشار إليّ بيده أن أذهب وهو يلوّح بها عدّة مرّات، وما زالت الابتسامة السّاخرة على وجهه، فذهبتُ ببطء وتلكؤ.

أمضيت عشرة أيّام في نابلس وأنا أترقّب مجيئهم، وخرجت وأنا أتلفّت خلفي وأتوقّع توقيفي على الجسر، لكنّي مررت من دون أيّ توقيف أو تحقيق. لكنْ، بعد نحو شهر من رجوعي إلى ليبيا، أرسلت أمّي رسالة شفويّة مع أحد المعارف العاملين في طرابلس تقول لي فيها ألّا أفكّر بالرّجوع إلى الضّفة لأنّ أفرادًا من الجيش جاءوا في منتصف اللّيل للقبض عليّ، وحين لم يجدوني طلبوا من أمّي أن ترسل في طلبي للعودة إلى فلسطين. كان ذلك قبل شهرين فقط من وقوع أيلول الأسود عام ١٩٧٠ والاشتباكات الدامية بين التنظيمات الفلسطينيّة والجيش الأردني، وهروب بعض المقاتلين الفلسطينيّين من الأردن إلى الضّفّة، أيْ إلى الاحتلال الإسرائيلي. لهذا، لم يأبه بي أحد حين عدت إلى الضّفّة في صيف العامَ اللّاحق، في ظلّ ذلك الوضع العبثيّ غير المعقول وما ترتّب عليه من انكسار وضعف وتمزّق في الجانب الفلسطيني. لم يوقفني أحد، ولم يحقّق معي، ومررت بسلام من دون أن يسألني أحد أيّ سؤال ذي شأن يُذكَر.

وضاعت بذلك روايتي المنسوخة على الدفاتر العتيقة على الجسر، كما ضاعت النسخة الأصليّة المخبّأة بين اللّحف والبطّانيّات في ليبيا، إذ إنّ زوجي وجدها ومزّقها كما كان يفعل بلوحاتي. وهكذا، لم يبق لي من تلك الرواية وما احتوته من أحداث وشخصيّات وتأريخ إلّا الذكرى والحسرة، إذ بتُّ أعرف أنّ ما نزفته في تلك الرواية من مشاعر متوهّجة ومرارات لن يعاد استرجاعه لأنّ ظروفي تغيّرت، وكذلك مشاعري التي مزّقها وأنهَتَها ما حدث في أيلول الأسود، وشعوري بأنّ تمزقنا وقصورنا الداخليّ هما السّبب فيما نتعرّض له من هزائم، وهذا ما أصبح هاجسي وثيمتي الرئيسيّة في كلّ ما كتبت لاحقًا، وما زال يسكنني حتّى الآن.

ربّما ما حدث لروايتي يلخّص ما يحيق بنا كشعب فلسطينيّ، وكأمّة عربيّة، إذ إنّ الاحتلال الإسرائيليّ صادَرَ نسخة الرواية المنسوخة، وصادر نسخةَ الرواية الأصليّة زوجي العربيّ، فأيُّ المصادرتين أوجعُ وأبلغ! هذا هو السّؤال الكبير الذي لم أتمكّن حتّى الآن من الإجابة عنه بكلّ وضوح، ولا استطاع أيّ كاتب أو محلّل أو مفكّر أن يجيب من دون تناقض والتباس.

لم نعد جواري لكم

لن أقوم بتلخيص هذه الرّواية، فهي موجودة في السوق لمن يرغب، لكنّي سأصف الظروف التي أحاطت بها وكيف تمكّنت من نشرها.

بدأت بعد فقداني روايتي الأولى، بكتابة الثانية في أثناء غياب زوجي عن البيت. كنت أطلب من ابنتي الكبرى أن تقف خلف النافذة ترصد الشّارع حتّى أخبّئ أوراقي بحذر قبل قدومه لخوفي من ردّات فعله. كنت حينذاك أعمل في السفارة النيجيريّة، بحيث ساعاتُ الدوام أقلّ كثيرًا ممّا كانت عليه في شركة التأمين، لذلك كان لديّ متّسعٌ من الوقت للقراءة والكتابة طوال بعد الظهر في أثناء وجود زوجي في عمله.

أنهيت القسم الأوّل من الرّواية، فنسخته بالكربون عدّة مرّات، لخوفي من ضياعها كما حدث للرّواية الأولى. بدأت التّفكير في نشرها حتّى قبل إنهائها، لمعرفتي أنّ إيجاد دار تقبل النشر لكاتبة مبتدئة لن يكون بيُسر وسهولة، وأنّ ذلك سيتطلّب الكثير من الوقت والجهد والعديد من المحاولات. لذلك، جمعت عددًا من عناوين دُور النشر التي وجدتها على أغلفة الكتب الداخليّة، وبدأت بمراسلتها، وأرفقت مع كلّ رسالة الجزءَ الذي أنهيته من الرّواية. ولا أدري من أين جاءتني، أو أين قرأت فكرة أنّ الصيد بشبكة أنجعُ من الصيد بصِنّارة، لكنّي قمت بتطبيقها، وأنصح كلّ من يريد إنجاح أيّ مشروع بأن يقوم بتنفيذها: الصيد بشبكة لا بصِنّارة. ومرّت أسابيع لا أذكر عددها، لكنّها كانت طويلة، وكنت قد فقدت الأمل في التواصل مع أيّ ناشر، لمّا تلقّيت ردًّا واحدًا من ناشر واحد فقط لا غير.

كان الناشر حلمي مراد، الغنيّ عن التّعريف في ذلك الوقت، إذ كان اسمه معروفًا لكلّ القرّاء والنقّاد والمترجمين في العالم العربيّ، فهو كاتب وناقد ومترجم، ورئيس تحرير سلسلتَي **كتابي** و**اقرأ** الصادرتين عن أشهر دور النشر في العالم العربيّ وأهمّها في ذلك الوقت: دار المعارف في القاهرة.

وصلتني رسالته، وفيها يقول إنّه استمتع كثيرًا بقراءة القسم الأوّل من روايتي، وإنّه يستغرب أن تكون تلك الرّواية، بأسلوبها وشخوصها وأجوائها، ناتجةً من كاتبة مبتدئة لم تمارس الكتابة من قبل، وإنّه معنيّ جدًّا، بل متحمّس لقراءة بقيّتها، وإنّ القسم الثاني، إذا كان بالمستوى نفسه، فسيتولّى نشرها في سلسلة **اقرأ**، وسيعتبر نفسه المسؤول الأول، بل له الفضل في اكتشاف صاحبتها.

وصلتني الرّسالة عن طريق السفارة النيجيريّة. وبدأت أصيح كمن أصابها مس، حين انتهيت من قراءتها، فهرعت زميلتان والملحق الثقافيّ إلى مكاني لإغاثتي أو إغاثة المكان لأنّ صرختي جعلتهم يظنّون أنّ حريقًا شبّ في السفارة أو أنّي وقعت وكسرت رجلي أو رأسي. أمسكت بالرّسالة ألوّح بها كالمجنونة وأنا أقفز في مكاني وأردّد كلمات أرخميدس الشهيرة: وجدتُها، وجدتها، وافرحتاه.

وجدت الرواية أم وجدتني، هذا هو السؤال الذي لطالما راودني وأقلقني، إذ كنت أحيانًا أتساءل: لو لم يكن زوجي بذلك السُوء، فهل كنت ألجأ إلى الرّواية؟ لو لم تكن ظروفي تلك الظروفَ وكان زوجي أقلَّ انحرافًا وحقارة، ولو كنت سعيدة في زواجي، فهل كنت لجأت إلى الكتب والروايات كي أنسى همومي؟ لو لم أتزوّج بتلك السرعة ودخلت الجامعة وكلّيّة الفنون الجميلة كما كنت أحلم، أما كنت أصبحت رسامة كما توقّع لي أستاذي الرّسام إسماعيل شقوط؟ وأنهي تساؤلاتي بأن أقول: حمدًا للّه أن كان زوجي بذلك السُوء، وشهدتُ تجاربي كامرأة مقموعة وتجاربَ أمّي وأخواتي وقريباتي، وزواجَ أبي الذي حرّرني من اتّكاليّتي وخنوعي؛ إذ لو كنت سعيدة وهانئة لما وصلت إلى ما وصلت إليه، ولبقيت سجينة في قوقعتي ككلّ النساء، أو معظمهن، وبقيت عمياء متخمة ومترهّلة ومجهولة. حمدا للّه.

للذِّكرى والتذكير

ما لا شك فيه أنّي أكنُّ امتنانًا خاصًا وخالصًا للأستاذ حلمي مراد، لن أنساه على مرّ السنين. فقد كان له الفضل في نشر روايتي الأولى، وهي عمليّة ليست سهلة لأيّ ناشر. فعادةً، لا يتحمّس الناشرون لنشر أعمال لأسماء لا تتمتّع برصيد أدبيّ أو تجاريّ. لكنّه فعل وسبق الجميع، حتّى أولئك الذين عرضت عليهم عملي الثاني **الصبّار**، وكنت قد تجاوزت مرحلة البداية والاسم المجهول. وربّما لهذا السّبب أجدني مدفوعة، قبل كلّ الأسباب التي سأذكرها لاحقًا، كنوع من الاعتراف بالجميل، إلى تثبيت مقدّمته والتذكير بها حتّى تظلّ في الذاكرة بصمة ووثيقة.

أعيد نشر تلك المقدّمة الآن، بالإضافة إلى ما أشرت إليه أعلاه، لأسباب أراها الآن مثيرة للاهتمام؛ اهتمامي أنا ككاتبة، وكناقدة مدقّقة لأعمالي ولكامل مسيرتي الأدبيّة والفكريّة، ولاهتمام بعض النقّاد، وبعض القرّاء، ولمراجعة ما كنّا عليه وما وصلنا إليه بعد كلّ تلك السنين، وما مرّ علينا خلالها من تطوُّرات. وأيضًا، لما في المقدّمة المذكورة من إشارات واقتباسات من الرواية أراحتني من فعل ذلك بنفسي. فأنا، للحقّ، لا أحبّ إعادة قراءة أعمالي المنتهية، أي المنشورة، مع العلم بأنّي لا أفوّت أيّ فرصة في متابعة ما يكتبه النقّاد أو كتّاب الأطروحات من طلبة الجامعات عن أعمالي. أقوم بذلك بدافع الفضول، والتّعلُّم، والتأكُّد من وصول رسالتي أو رسائلي، ولقياس مدى قدرة الناقد أو الطالب على الالتقاط، بمعنى ممارسة النّقد لقدرات الناقد. وهذه النقطة لا يعرفها النقّاد، أو ربّما يعرفونها ويستخفُّون بها أو يغضُّون النّظر عنها، بحيث يعتبر البعض منهم أنّ النقد مملكته الخاصّة ومحكمته المحتكَرة على اعتبار أنّه الأستاذ والقاضي والمعلّم، والكاتب ليس أكثر من طالب عليه الامتثال لأحكام الناقد والقبول بها وتنفيذ ما جاء فيها من أحكام وأوامر. وهذا في الحقيقة أمر مؤسف، إذ لطالما فوجئت، كما يُفاجأ العديد غيري من الكتّاب، بمدى ضحالة بعض النقّاد، حتّى المعروفين منهم، وافتقارهم إلى الحساسيّة والذكاء، وسذاجة تحليلاتهم و«شلفقة» كتاباتهم الناتجة من سطحية قراءاتهم. وهذا لا يعني أنّي لم أتعلّم الكثير ممّن تناولوا أعمالي بالنّقد والتّحليل، سواء كنقّاد أو طلّاب جامعات، أو حتّى قرّاء عاديّين. ولو لم أفعل لما تطوّرت فكريًا وفنّيًا ولبهتت مع الوقت حكاياتي وصدأت بمرور الزمن أدواتي. لكنْ، حمدًا للّه، فأنا ما زلت أتعلّم، وبمرور الوقت أتحسّن، بدليل أنّي ما زلت من المقروئين في زمن تكاد تنقرض فيه القراءة، وما زالت الأقلام تتصدى لأعمالي

بالمديح أو التّجريح، وما زلت أجد من تصله رسائلي ويعجب بها ويصدّقني. وهذا هو المطلوب.

إذن، ها هي مقدمة حلمي مراد التي منحتني فرصة الولوج إلى الساحة الأدبيّة العربيّة، وأضافت عنصرًا أساسيًا من العناصر اللّازمة لتشكيل الظرف الخاص اللّازم لإعادة تشكيلي. وأستميح روح الأستاذ حلمي مراد عذرًا، إذا تناولت بعض النقاط التي ذكرها في مقدّمته ببعض التعقيب أو طرح بعض التساؤلات، فما المقصود منها سوى التذكير بفضله عليّ، وكذلك التذكير بما كنته وكنّاه، وما وصلنا اليه.

مقدّمة حلمي مراد لرواية لم نعد جواري لكم

اقرأ، دار المعارف بمصر، ١٩٧٤

هذه الرّواية الفلسطينيّة

... ومولد أديبة جديدة

الرواية التي يُسعدني أن أقدّمها لقرّاء العربيّة في الصفحات التالية، تعلن عن «مولد» روائيّة عربيّة جديدة، أتوقّع أن تلمع ويكون لها شأنٌ في المستقبل القريب.

وأعترف أنّني قرأت هذه الرّواية خمس مرّات، وفي كلّ مرّة يزداد إعجابي بها، وتذوّقي لمواطن الجمال والإبداع فيها. بل لعلّها في القراءة الأولى لم تعجبني إلّا بقدر، فقد حرمني من الاستمتاع بها على الوجه الأكمل أنّني قرأتها بعين الناقد الفاحص الذي يدرسها ليتعرّف على الطريقة التي اتّبعتها المؤلّفة في رسم شخصيّاتها، وتحديد ملامح بطلاتها وأبطالها، وتوجيه أقوال كلّ منهم وتصرّفاته.. فكنت كمن يرتاد لأوّل مرّة طريقًا جديدًا ليرسم خريطته، ويقيس أبعاده ويحدّد معالمه، فيشغله ذلك كلّه عن الاستمتاع بجمال المناظر الخلّابة التي تحف به من الجانبين.

فلمّا أعدت ارتياد الطريق، أو مطالعة الرّواية «كقارئ» أذهلتني روعتها وجمالها، واستمتعت بها استمتاعًا كاملًا لا أذكر أنّني حظيت بمثله من رواية عربيّة، باستثناء نماذج تُعَدّ على الأصابع، من إنتاج بعض أدبائنا الكبار الذين حرثوا هذا الحقل البِكر وأنبتوا فيه بذور هذا الفنّ الجديد على الأدب العربي: فنّ «الرّواية».

فماذا أعجبني في هذه الرواية؟

أعجبني فيها أوّلًا هذا السّيل المتدفّق من «الأفكار» و«المواقف» التي تكاد تطالعك في كلّ صفحة من صفحاتها، والتي تعالج في بساطة و«عفويّة» خالية من التكلّف والإقحام، وفي إطار فنّيّ روائيّ سليم، بالغ الإتقان عديدًا من مشكلات الحياة والمجتمع، وما يعتمل في النّفس البشريّة من عواطف ونزعات، وما تضطرب به أجسادنا من غرائز وانفعالات.

وأعجبني في هذه الرّواية ثانيًا جزالةُ الأسلوب، وجمالُ التّصوير والتّحليل للمشاعر والخلجات، ونفاذُ النظرة إلى أعماق الشخصيّات التي يقوم عليها بناء الرّواية، والتي تتقاذفها وتتجاذبها أحداثها ومواقفها..

بحيث تخرج من قراءتها وقد «عايشت» أبطالها وبطلاتها، وأحببتهم، أو نفرت منهم، كما لو كنت تعرفهم منذ زمن بعيد، وتألفهم، وتشفق من فراقهم.

وأعجبني في الرّواية ثالثًا هذه الجرأة في التّعبير والتّفكير، التي لعلّها من سمات بعض أشقّائنا من أهل فلسطين وما يجاورها من البلاد العربيّة الشقيقة: الأردن، سوريا، ولبنان.. هذه الجرأة المبتكَرة خفيفة الدمّ التي قد تداريها أكثريتنا نحن المصريّين وراء ستار من التحفُّظ، وكظم المشاعر، أو صون اللّسان..

تقول المؤلّفة في وصف مشاعر رسامة تحبّ، لكنّها ترفض الزواج ممَّن تحبّ:

«ووقفتْ أمام المرآة تتأمّل صورتها، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة ماكرة. كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطًا حريريّة سوداء، مغطّيًا كتفيها ونهديها.. ما زلت فتاة.. بابًا مغلقًا.. أرضًا بورًا.. لوحة لم تُرسَم بعد.. وأنا في الانتظار، انتظار الطارق الجريء، الفلّاح المعطاء، الرسّام المبدع. وهذه البلاد لا تحتوي إلّا رجالًا يحلمون بإناث يحبلن ويلدن، ويحشين ورق العنب!

«وابتسمت بسخريّة: «عليّ أن أختار: بين عبوديّة الفنّ، وعبوديّة الرجل! والفنّ عبوديّة تقود إلى الحرّيّة، أمّا عبوديّة الرجل فمذلّة وانكسار. وقد اخترت طريقي ولن أحيد عنه. قد أجد الحبّ يومًا، ولكنّي لن آخذه إلّا من إنسان يعرف مَن أنا، وما وظيفتي، ولمَ خُلقت!.. إنسان لا ينتظر منّي مولودًا كلّ سنة، ويُقعدني مشلولة عن التّفكير والحركة، في انتظار رجوعه إلى البيت حاملًا صلعتَه وبطيختَه!»

وأعجبني في الرّواية رابعًا هذا النقدُ لأوضاع المرأة المتخلّفة في بعض المجتمعات الشرقيّة، وهذا التمرُّدُ على تلك الأوضاع:

«الجَو هنا كئيب، والفراغ والملل يسيطران على الجميع.. ولقد كُتب على المرأة أن تعيش «محنَّطة» في هذه البلاد، أن تكون مجرَّد «أنثى»، وعليك يا عزيزتي أن ترضي بهذا..

«لا، لن أرضى بهذا. يجب أن تثور المرأة على هذا الوضع، وأن ترفضه. إنّ مجرّد الشكوى لا يُجدي شيئًا. يجب أن تتطلّع المرأة إلى آفاق أوسع، إلى مجالات أكثر عمقًا واتّساعًا. عليها أن تفرض وجودها، وأن تنزل إلى ميادين العمل. أن تشارك الرجل في كلّ مجالاته، حتّى السياسيّة منها.

أين الصحفيّات؟ أين الكاتبات؟ أين المُرشدات الاجتماعيّات؟ أين الرسامات؟ أين الأيدي الناعمة في المصنع مثلًا؟ ألم تَرَيْ ما فعلته الصناعة في المجتمع الأوروبي؟ لقد قلبته رأسًا على عقب: تطوَّرت المبادئ والنظريّات والقيم، حتّى أنظمة الحكم تغيَّرت، فأين نُمَتِ الاشتراكيّة وترعرعت، أليس في الأجواء الصناعيّة؟»..

وأعجبني في الرّواية خامسًا هذا الحشدُ من «القضايا» الاجتماعيّة والإنسانيّة التي عالجتها، خلال سياقها، بغير أن تُشعرك بأدنى انحراف عن قالبها الروائي أو خطّها الفنّي!.. عشرات القضايا الهامّة، منها على سبيل المثال لا الحصر: الإفراطُ في النسل او تحديده.. الزواج المبكّر أو المتأخّر.. الحبّ وهل يُلهم الفنّان أم يعوّقه.. «مُلكيّة» الزوج الشرقيّ لجسد زوجته.. الحبّ للحبّ، والحبّ المُفضي إلى زواج! هل المرأة مخلوق ناقص؟.. معنى الشرف ومدى اختلافه باختلاف المجتمعات والأجيال.. الفرق بين الحبّ، وممارسة الحبّ! حياة الفنّان الخاصّة، هل هي مُلك للجماهير، مثل إنتاجه؟.. الاستسلام للعواطف، أهو وَقْف على الشباب، محرَّم على الشيوخ؟.. هل يزيد الحزن من جاذبيّة المرأة، ويلهم الفنّان؟.. الفنّ والالتزام بقضايا الأوطان.. الوصوليّة والتسلُّق في بيئة أدعياء الثقافة.. الطبقيّة والحقد الاجتماعيّ.. الثقافة والعطاء.. الفرق بين المثقَّف والفنّان، وبين آلام الجسد وآلام النّفس، وبين قلم الكاتب، وريشة الفنّان، ومبضع الجراح.. الفنّان أكثر الناس شقاءً، وأكثرهم سعادةً.. وضميره أقسى عليه من ضمير الفرد العاديّ!.. فلسفة الحرمان بالنّسبة لكلّ من الرجل والمرأة.. إلخ.

قال الرسّام الكبير وهو يمدّ يديه مبسوطتين أمام تلميذته:

«انظري! أترين فرقًا بين هذه الأصابع وأصابع أيّ موظف صغير في مصرف أو وزارة؟ أو حتّى بينها وبين أصابع أيّ عامل كادح؟ قد تكون أصابع العامل أقوى وأصلب، وأصابعي أرقّ وأنعم، قد تكون أصابعه أكثر تأثيرًا في الصخر، لكن أصابعي أكثر تأثيرًا في القلب والفكر والحواسّ! باستطاعتك تشبيهُ أصابعي هذه بأصابع طبيب جرّاح. والفرق أنّ هذه تحمل الريشة والقلم، وتلك تحمل المبضع. المبضع يجرح، وريشتي وقلمي يفعلان الشيء ذاته. المبضع يجرح اللّحم والجلد والعضل، أمّا ريشتي فتشرح العقل والقلب والخيال. قد يكون الألم الذي يُحدثه المبضع أحدّ وآلمَ، إلّا أنّه سطحيّ ومؤقّت. أمّا جرح ريشتي فهو أكثر إيلامًا، لأنّه أكثر توغلًا!»

وأعجبني في هذه الرّواية سادسًا ما يلوح لك وراء كلّ سطر من سطورها من «خلفيّة» ثقافيّة عريضة.. خلفيّة تقارن مثلًا بين الحبّ في مأساة شكسبير «روميو وجولييت»، والحبّ عند «جميل بثينة» و«قيس بن الملوّح»! وتورد على لسان بطلاتها وأبطالها مناقشاتٍ وآراء حول لوحات «فان جوخ» وقصص جوركي، وشيكوف، وموراڤيا، و«د. هـ. لورنس».. وفلسفة «فولتير» الداعية إلى الثورة من أجل الحرّيّة.. وسيكولوجيّة «فرويد» و«يونج».. وأشعار «بايرون» و«وردز ورث»!.. إلخ.

وأعجبني في الرّواية أوّلًا وأخيرًا، أنّه من خلال صفحاتها الرّائعة يتضوّع عطر فلسطين الحبيبة: (القدس) الشامخة، (رام اللّـه)، و(أريحا)، و(نابلس)، وشاطئ نهر الأردن، والبحر الميّت، والضّفّة الغربية، حيث نعيش أحداث القصّة ونتعرّف على بطلاتها وأبطالها: نسرين، نزار، بشار، سهى، سامية، عبد الرحمن، سميرة، إيفيت، وفاروق!.. نتعرّف عليهم ونعايشهم في بيئتهم الأصليّة.. تحت ظلال أشجار السرو والصنوبر، وغابات الجوافا، وبيّارات البرتقال، وبساتين اللّوز، والوهاد الخضر المزدانة بشقائق النعمان..!

حلمي مراد

تعقيب

لم أفرح، في الحقيقة، بتلك المقدّمة في حينه لأمرين: الأوّل أنّها جاءت متأخّرة مدّة سنتين، إذ إنّي قدّمت مخطوطة الرّواية عام ١٩٧٢ ولم تصدر إلّا عام ١٩٧٤. وخلال تينك السنتين، وكنت قد عدت طالبة مجتهدة في قسم اللّغة الإنكليزيّة في جامعة بيرزيت، سمعت من التهجُّم والنّقد الشديدين، وأيضًا المديح والثناء، ما جعلني في حالة توجُّس وتشكُّك في كلّ ما يُكتَب أو يقال. ولن أنسى أبدًا تلك الأمسيةَ في بيت قريب لي في عمّان، حيث اجتمع عدد من الناشطين السياسيّين اليساريّين وسلخوا جلدي وثبّطوا معنوياتي، بحيث بقيت طوال أسابيع في حالة توتُّر ونقمة، عليّ وعليهم، إذ أفهموني أنّ ما كتبت لم يكن أكثر من نفثات امرأة برجوازيّة، لا تخدم القضية، بل تسيء إليها. وسخروا من مقدّمة حلمي مراد، ولعنوا المذكور لأنّه المسؤول عمّا كُتب على غلاف الرّواية: **رواية طويلة من أدب فلسطين المحتلّة**، وقالوا إنّ هذه الرّواية لا تمتّ إلى فلسطين من قريب أو بعيد، وإنّ حلمي مراد لا يملك الحقّ في تصنيف رواية تمتّ إلى الأدب البرجوازيّ الرقيع والادّعاء أنّها من أدب فلسطين المحتلّة، وهي براء من فلسطين ومن كارثة الاحتلال، على حدّ سواء. كما قرأت في الوقت نفسه، في مجلة **المصوّر** المصريّة، وفي صفحات متقابلة في منتصف المجلّة بالضبط، تعليقين متناقضين تمامًا، أحدهما لأشهر كاتب أردنيّ في ذلك الوقت، عيسى الناعوري، وآخر للنّاقد المصريّ المعروف رجاء النقّاش. رفعني الناعوري إلى أعلى السّماوات، وأنزلني النقّاش إلى أسفل السّافلين. وهذا أضاف إلى توتُّري وتشكُّكي فيما كتبت، بحيث تمنّيت في لحظات لو لم أكتب الرّواية على الإطلاق. هذان الحادثان، إضافة إلى كلّ ما تلقّيت من تعليقات شديدة السّلبيّة وأخرى شديدة الإيجابيّة من هنا وهناك، أمر جعلني لا أصدق أيًّا من المادحين أو الذامّين، على حدّ سواء، بمن فيهم الأستاذ حلمي مراد ومقدّمته.

والأمر الثاني: أنّي كنت قد بدأت أتأثّر بأجواء بيرزيت، سياسيًّا وأكاديميًّا، بل بدأت أعتبر نفسي يساريّة على الرّغم من معرفتي السّطحيّة آنذاك بمبادئ اليسار وطروحاته، وصرت أقرب إلى تصديق الذامّين اليساريّين من المادحين والمشجّعين. وعليه، لم أفرح بالمقدّمة، بل استهنتُ بها في ذلك الوقت، ولم أتبيّن أهمّيّتها إلّا بعد سنين، أي حين بدأت أعرف أنّ عمليّة التذوُّق الأدبيّ شديدة التعقيد، ولا قول فصلًا فيما ينتج من صاحبها لأنّها متلازمة، بل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالخلفيّة

السياسيَّة والاجتماعيَّة للناقد أو القارئ، وأيضًا مرهونة بمستوى ثقافته وذكائه وحساسيَّته. وربَّما يكون هذا أحد الأسباب التي تجعلني أعيد نشر هذه المقدِّمة كنوع من التكفير عن قلَّة حساسيَّتي أو معرفتي في ذلك الوقت.

أمَّا النقاط التي أتساءل عنها في تلك المقدِّمة الآن، فهي:

أوَّلًا: يذكر الأستاذ حلمي في بداية مقدِّمته جملة يصف فيها الرِّواية العربيَّة بالحقل البِكر والفنّ الجديد على الأدب العربيّ: فنّ «الرواية». وعلى الرَّغم من أنَّ الباحثين والمؤرِّخين يُرجعون بدايات الرِّواية العربيَّة إلى أوائل القرن العشرين، فإنَّني أتَّفق مع الأستاذ حلمي في وصفه، إذ كانت الرِّواية العربيَّة، حتَّى ذلك الحين، ما زالت غير واضحة المعالم وغير مطروقة على نطاق واسع، كما هي الحال الآن. حتَّى الأسماء التي كانت بارزة في هذا الميدان كانت محدودة، وأذكر أنَّ أبرز اسمين في ذلك الوقت هما يوسف السِّباعي وإحسان عبد القدّوس. حتَّى نجيب محفوظ لم أتعرَّف إليه أنا كقارئة إلَّا وأنا طالبة في جامعة بيرزيت.

ثانيًا: أشار الأستاذ حلمي إلى ذاك «الحشد من «القضايا» الاجتماعيَّة والإنسانيَّة التي عالجتها، (يقصد الرِّواية) خلال سياقها، بغير أن تُشعرك بأدنى انحراف عن قالبها الرِّوائيّ أو خطِّها الفنّي!» وسؤالي هو: أمن المعقول أن أحشد كلّ تلك القضايا الاجتماعيَّة والإنسانيَّة من دون أن أُشعر القارئ بأدنى انحراف عن قالب روايتي الرِّوائيّ أو خطِّها الفنّي؟! أشكّ كثيرًا في ذلك.

ثالثًا: تقول إحدى بطلات الرِّواية «إنَّ على المرأة أن تفرض وجودها، وأن تنزل إلى ميادين العمل. أن تشارك الرجل في كلّ مجالاته، حتَّى السياسيَّة منها. أين الصحفيَّات؟ أين الكاتبات؟ أين المُرشدات الاجتماعيَّات؟ أين الرسامات؟ أين الأيدي الناعمة في المصنع مثلًا؟». وسؤالي هنا عن وضع المرأة في ذلك الوقت: هل كانت الساحة خلوًا من النساء في الميادين المذكورة أعلاه، أم أنِّي أنا، في ذلك الوقت، سنتَي ١٩٧١ و١٩٧٢، وكنت ما زلت سجينة ليبيا وزواجي، ما كنت أعرف إن كانت المرأة العربيَّة قد فرضت وجودها أم لم تفرضه في تلك الميادين؟ أو ربَّما كان عدد النساء المقتحمات تلك الميادين ما زال قليلًا جدًّا، بحيث تصعب رؤيته وتحديد مؤثِّراته بشكل واسع؟ وإن كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنَّ وضع المرأة قد تطوَّر الآن عمَّا كان عليه في ذلك الوقت، وهذا مؤشر!

رابعًا: أستغرب الآن الخلفيَّة الثقافيَّة العريضة التي يتحدَّث عنها

الأستاذ حلمي. فمن أين لي بكلّ تلك المعلومات عمّا قال فلان وقال علّان، إلى درجة أنّي جعلت أبطالي يستشهدون بتلك الأقوال؟ صحيح أنّي كنت قارئة نَهِمة، إلّا أنّ الاستشهاد بتلك الأقوال أجده الآن مربكًا وغير معقول ولا يدلّ إلّا على نفسيّة كاتبة غير واثقة بنفسها، وتريد أن تعطي كتابتَها أهمّيّةً ومصداقية من خلال استعراض معلوماتها عن كتّاب وفلاسفة ومراجع من الوزن الثقيل.

خامسًا: أهمّ تعقيب لديّ الآن هو اعترافي للأستاذ حلمي بقدرته على الاكتشاف أو ما قد أسمّيه جزافًا «التنبؤ»، حين أعلن، بكلّ وضوح ومن دون تحفُّظ، عن «مولد» روائيّة عربيّة جديدة، توقَّع لها أن تلمع ويكون لها شأن في المستقبل القريب. وها قد صدقت نبوءته فيّ، إذ نجحتُ ككاتبة، لكن إلى أيّ مدى «لمعتُ»؟ فهذا متروك للزمن لإثباته. وأصبحتُ ذات «شأن»؟ لا أعرف! إذ ما هو «الشأن»؟ وما هو بالتّحديد تعريفُه؟ فإن كان المقصود هو ما ذكرت أعلاه عن أنّي ما زلت من المقروئين في زمن تكاد تنقرض فيه القراءة، وما زالت الأقلام تتصدّى لأعمالي بالمديح أو التّجريح، وما زلت أجد من تصله رسائلي ويُعجب بها ويصدّقني؛ إن كان هذا هو المقياس والتّعريف الدقيق لتعبير «سيكون لها شأن»، فلا بدّ، إذن، من أنّ في قول الأستاذ حلمي شيئًا من الحقّ. وأنا سعيدة، بل ممتنّة، لأنّي حقّقت نبوءته وتوقُّعاته.

فـي القاهرة

أخذت مجدي في القاهرة. لم يكن مجدًا حقيقيًا، لكنّي أحسست، وأنا أقابل الأستاذ حلمي مراد، وأتصرّف بحرّيّة ولا أتلفّت حولي خوفًا أو تحسُّبًا من ملاحقات ولي الأمر، وأصرف الدولارات وأحوّلها إلى جنيهات كما يفعل الإنسان المحترم صاحب المسؤوليّات، أحسست بأنّي بتُّ امرأة أخرى، حرّة، طليقة، وبجناحين.

كنت ما زلت في أوائل الثلاثينيّات، أيْ في عزّ الشباب والنضارة، وبشعر طويل وجسم نحيل وعضلات مشدودة، فبدأت أستمتع بشكلي وملابسي وكلمات الإطراء التي أمطرني بها الأستاذ حلمي مراد، الذي رفع معنوياتي وأسمعني ما لم أسمعه طوال حياتي. قال إنّي جميلة قلبًا وقالبًا، فطار صوابي لأنّي سمعت، لأوّل مرّة، وبشهادة رجل معروف ومميّز، أنّي جميلة من الداخل كما من الخارج. ولم يكن وصف الكثيرين لخارجي بجديد عليّ، فقد كنت اعتدته وما عدت أرى فيه أيّ تميُّز أو مبعث فخر وتفاؤل. وإن كنت أستمتع بتلك النعوت وأنا مراهقة غريرة من دون قيود وتجارب، فإنّ تجربة الزواج السّاحقة الماحقة المُهينة نزعت منّي ذلك الاستمتاع، بل دمّرته، لأنّي أحسست بأنّ شكلي لا يساوي شيئًا لأنّه ينقض عقلي، بل يُنقصه، على اعتبار أنّ الشّكل يكون على حساب العقل وقدرات الفكر والتميُّز. وأعتقد أنّي لم أكن الوحيدة بذاك الإحساس، إذ اكتشفت، فيما بعد، أنّ العديدات من النساء الناشطات سياسيًا وأكاديميًا، مررن في تلك المرحلة من احتقار الجمال وتهميشه حتّى يثبتن للناس وأنفسهن أنّهنّ أرقى وأرفع، وأكثر ثقافةً، وأنهنّ بقدرات لا تشوبها شائبةُ الجمال الأنثويّ الفارغ من المضمون، فعمدن إلى إهمال الشعر وزينة الوجه وارتدين الكاكي والغامق، حتّى يثبتن أنهنّ «أخوات الرجال»، ولسن قليلات عقل فارغاتٍ، لا همّ لهنّ إلّا الشّعر والملبس والأظافر. لكنّي، للحقّ، وأنا في القاهرة، استمتعت بما قال الأستاذ حلمي، وما قالته زوجته، وما قالته ابنته، وما رأيته في نظرات موظّف الاستقبال في الفندق ونظرات الزوّار، والأهمّ، ما قاله المصوّر الذي أرسلني إليه الأستاذ حلمي لأخذ صورة لي يضعها على الغلاف الخلفيّ للرواية[1].

أستيقظ صبحًا وأقف في شرفة الجناح فوق النيل، والتفت إلى الخلف وأرى ابنتَيّ تستغرقان في نوم بريء وهادئ، في سرير عريض فاخر، وغرفة مضاعَفة من الغبن أن يقال إنّها غرفة. كانت جناحًا كاملًا يُطلّ على النيل الخالد، فقد اخترت أكبر وأجمل جناح في الفندق نصحني

به موظّف الاستقبال الظريف، إذ قال مجاملًا: أجمل سويت لأجمل الزوّار، فقبلت نصيحته، وخصوصًا أنَّ السعر الذي عرضه عليّ كان مغريًا، فقد كان الفندق جديدًا وشبه فارغ. دخلت الجناح وعاينته قبل قبوله فوجدته يناسب ما أحسست به في ذلك الوقت من انطلاق وتفاؤل. قلت لنفسي: أنا الآن غنيّة، ولديّ دولارات وجنيهات ودنانير، وأوشك أن أكون كاتبة معتبَرة، وقد عانيت ما فيه الكفاية، فلأبدأ بالتعويض منذ الآن، وأكافئ نفسي على ما تحمّلته من عذاب وإهانات، ولا بأس في قليل من الرفاهيّة والإسراف. لكنّي، وهذا فعلًا ما حدث، ولا أعرف لماذا، كنت في آخر كلّ يوم، وقبل النوم، أذهب إلى الاستقبال وأحاسب عن اليوم السّابق خوفًا من أن أستيقظ فجأة وأجدني غير قادرة على الوفاء بديوني. كنت ما زلت جديدة على الدُّنيا، وعلى متابعة شؤوني الماليّة بنفسي، وعلى فكرة أنَّ ما لديّ لن يهرب منّي وأعود لأجدني بلا مال ولا حَوْل ولا قوَّة، كما كنت طوال سنين، وخصوصًا يوم شكوت إلى جارتي، في إثر تلك اللّيلة الرَّهيبة، عدمَ قدرتي على شراء تذاكر سفر حتَّى أهرب من سجن الزواج وسجن ليبيا.

ما معي من دولارات أودعته في خزينة الفندق، إذ لم تكن في تلك الأيّام عادةُ توفير خزنة في كلّ غرفة متَّبعةً بعدُ. فكنت، بحجّة المحاسبة في كلّ مساء، أذهب وأطلب مظروف دولاراتي لأطمئنّ عليه خوفًا من أن يطير أو يسرقه أحد، إذ بدأت أعرف أنّي بتُّ وحيدة ولا شيء يسندني ويسند ابنتَيّ إلّا تلك الدولارات، وأنَّ المال عنصر أساسيّ من أسس التحرُّر والكرامة، وأنَّ الفكرة الساذجة عن المال والتي اعتدتها وأنا مراهقةٌ غريرة، وكذلك وأنا شابّةٌ عديمة الخبرة، والتي استقيتُ معظمها من قراءاتي المثاليّة وأفلام السينما المصريّة في الخمسينيّات، ما هي إلّا فكرة رومانسيّة بعيدة كلَّ البعد عن الواقع، وأنَّ المرأة من دون مال أسيرةُ الأب والزوج ومن يصرف، وبلا قدرة على اتّخاذ قرار للتّغيير أو حتَّى التّمرُّد.

أخذت البنتين إلى حديقة الحيوان. ولا أذكر بالضبط ماذا رأينا، وأيّ الحيوانات أو الطيور زرنا، لكنّي أذكر أنّنا استأجرنا قاربًا صغيرًا نسوقه برفس القدمين. أحسست وأنا أسوقه بأنّي أسوق مصيري ومصير ابنتَيّ بنفسي، وأوجّه أقداري وقدريهما من دون الاعتماد على أحد، ولا الخوف من إغضاب أحد.

لا أذكر بالضبط كم كان عدد أيّام آخر أشهر الزواج التي لجأت فيها إلى غرفة البنتين لا أغادرها طوال مكوثه في البيت، لكنّي أذكر أنّها بدأت

في أواخر عام ١٩٧١ وانتهت في الصَّيف التالي مع انتهاء السَّنة الدراسيَّة للبنتين. في تلك الأشهر، وكنت قد انتقلت بعملي من شركة التأمين إلى السَفارة النيجيريَّة حيث الدوام قصير ويمكّنني من استغلال جزء كبير من النهار في القراءة والكتابة، أغرقت نفسي في قراءات فلسفيَّة جعلتني أتساءل عن معنى الحياة، وهدف حياتي، وكيفيَّةِ الوصول إليه، ومقاومةِ التيَّار الاجتماعيِ الجارف، والتقاليدِ، والقيمِ، وأدواتِ الضغط والمقاومة والتَّمرُّد. كنت قد اشتريت كتابًا ضخمًا ما زلت أحتفظ به حتَّى اليوم، بعنوان **قصَّة الفلسفة** لويل ديورانت، وفيه تلخيصٌ لحيوات فلاسفة عظام وأفكارِهم، وكيف قاوموا التيَّار واشتقّوا لأنفسهم طرائق مختلفة عن السائد. قتلوا الفيلسوف الفلانيَ بسبب أفكاره لكنَّه لم يتزحزح، وكاد الفيلسوف الثاني يموت من الجوع والعزلة بسبب تمرُّده على المجتمع فنبذوه واحتقروه وأهانوه، لكنَّه حقَّق ذاته. وفعل ذاك وهؤلاء وكلّ أولئك كذا، وعانوا كذا، وقاوموا كذا، حتَّى تشبَّعتُ بفكرة الموت في سبيل تحقيق الهدف. والهدف أوَّلًا وأخيرًا هو الحياة بحرِّيَّة. أعيش كما أريد، أحلم كما أريد، أقرأ، أكتب، أدرس وأتعلَّم وأتثقَّف، وأصبح سيِّدة نفسي بلا قيود ولا ضوابط. معي ألف دينار أتعلَّم بها؛ ألتحق بكلِّيَّة بيرزيت، وكانت ما زالت كلِّيَّة بسنتين جامعيتين فقط، ثمَّ أواصل تعليمي في أيِّ مكان آخر يتوفَّر لي حتَّى أحصل على شهادة، ثمَّ أنال وظيفة، ثمَّ أتفرَّغ للعمل والكتابة وتحقيق الهدف الأسمى من حياتي.

كنت بدأت أعتقد أنَّ لحياتي هدفًا أسمى، وأنَّ الأسمى هو ما عاشه هؤلاء الفلاسفة والكتَّاب والمبدعون. واسترجعتُ قراءاتي السَّابقة، وأنا ما زلت رسَّامة هاوية صغيرة، عن فنَّانين أمثال مايكل أنجلو، الذي صرف سنوات من عمره وهو معلَّق فوق سقالة في سقف كنيسة يرسم ويبدع ويخلّد اسمه. وفان غوخ الذي عاش حياة العمال الكادحين ورسم أعظم اللَّوحات لحذاء بالٍ لعامل فقير متشرِّد. والفنَّان الفلسطينيِ الشهير إسماعيل شمّوط الذي بدأ حياته كلاجئ فلسطينيٍ معذَّب يعيش وأسرتَه من بضعة قروش ينالها من بيع الحلويَّات على بسطة، وتمكَّن بجِدِّه وجَلَده واجتهاده من تحقيق حلمه، وأصبح الرسَّامَ الفلسطينيَ الأوَّل الذي خلَّد بريشته معاناة شعبه ونكبة بلده. كلّ هؤلاء الناس هم أناس حقيقيُّون، سواء كانوا فنَّانين أو فلاسفة أو مفكِّرين، صارعوا الفقر والمجتمع، والعذاب النَّفسيِ والجسديِ، في سبيل ما يحلمون به ويفكِّرون فيه؟ والناس الذين أحاطوا بي وتربَّيت على أيديهم وتشرَّبت مفاهيمهم، من قال إنَّهم على حقّ وفي الاتِّجاه الصَّحيح؟ مذ وعيت على الدُّنيا وهم يقولون

إنَّ الشيء الفلانيّ يجب أن يكون كذا وكذا، والشيء العلّاني كذا وكذا. يعني كلّ شيء له مقياس مضبوط وضوابط. مقياس ماديّ ومقياس معنويّ ورثوه عمَّن قبلهم، ومَن قبلهم ورثوه عمَّن قبلهم. ومَن قبلهم كيف كانوا؟ ألم يكونوا أميّين أو شبه أميّين؟ ألم يكونوا مستعبَدين لبريطانيا، وقبلها تركيا ومشايخ الدّين والقبيلة؟ يدّعون أنّهم يعرفون، وهم في الحقيقة لا يعرفون، لأنّهم يعيشون على سطح الأشياء ويخافون أو لا يقدرون على الغوص في الحقيقة وعمق الواقع. يدّعون أنّهم أحرار وهم مستعبَدون. ألم أرَ الاحتلال بعينَيّ وشاهدت الذلّ والانكسار والهزيمة؟ فأين هي الحرّيّةُ؟ أين هي الحقيقةُ؟ أين هو النّظامُ السّياسيّ؟ أين هو النّظامُ الاجتماعيّ؟ والنّظامُ العائليّ؟ والزواجُ والطلاق وحياة المرأة العربيّة المهينة؟ أين شرفُ البنت وشرفُ الرجل وشرفُ الوطن والهزيمة؟ أين كلُّ هذا وذاك وأين أنا؟

تضحك الطفلتان وترميان الذُّرَة لأفواج البطّ والإوزّ، وتشيران إلى هذه وتلك وأنا أسوق القارب وعقلي يدور ويتحرّك في كلّ اتّجاه. أحلم بالهدف، لكنّي أتحسّب للواقع. والواقع تفاصيل معقّدة لا بدّ لها من كشف حساب وفواتير. أحلم، صحيح، لكنّ الحلم لا يكفي. عليّ أن أتعامل مع الواقع بشكل عمليّ حتّى لا أدع أحلامي تعطّل قدرتي على تحقيق الهدف. عليّ أن أتكتك وأبرمج. عليّ أن أخفي أفكاري الجامحة وما يُقلقهم حتّى أستقوي، وحين أستقوي أقول ما لديّ وأصعقهم بكشف المستور. تقولون الزواج العربيّ؟ هذا هو الزواجُ العربيّ. تقولون المرأة العربيّة؟ هذه هي المرأةُ العربيّة. تقولون النّظام؟ نعم، يا أفاضل، هذا هو النّظامُ، وأيُّ نظام! نظام السياسة والمجتمع؟ نظامُ الحبّ؟ نظامُ الأنوثة والذكورة؟ نظامُ الشرف؟ وأين هو الشرفُ، وقد انهار كلّ شيء وتفسّخ أمام احتلال لعدوٍّ لا يزيد عدد سكانه على بضعة ملايين لا تتعدّى أصابع اليد الواحدة، وربّما أقلّ، واكتسحونا نحن الملايين، مئتي مليون أو أكثر. وها هم يعرُّوننا ويكشفوننا، وكشفوا المستور.

سألني الأستاذ حلمي عن روايتي القادمة فتلجلجتُ. قال إنّه يرى فيّ كاتبةً موهوبة وإنّه يتوقّع لي مستقبلًا باهرًا، فماذا سأكتب؟ قلت له إنّي سألتحق بالجامعة وأدرس. قال بدهشة: وما دخل الجامعة بالكتابة؟! ما تحتاجين إليه هو القراءةُ والكتابة، فلماذا تضيّعين وقتك في الدراسة؟ قلت له: حتّى آخذ شهادة. قال منصعقًا: شهادة؟ وبماذا تنفعك الشهادة؟ ما تحتاجين إليه هو الكتابةُ، والكتابة فقط. تريدين أن تصبحي كاتبة يشار

اليها بالبَنان؟ إذن، عليك بالإنتاج من دون توقُّف. قلت له: تقصد من أجل النجاح والشهرة؟ قال طبعًا، فنجاح كتاباتك سيقودك بالفعل إلى الشهرة، وتصبحين فرخة بكشك. سألته ضاحكة: وما هي الفرخةُ بكشك؟ فقال: يعني نجمةٌ، يعني تحفة، يعني روائيّة مشهورة، فكلُّ ما فيك يشير إلى ذلك. أنا أرى فيك كلّ ما يدلّ على ذلك. هذا وعدك. لا تهربي منه. لا تذهبي في الاتُّجاه الخطأ. كتّاب كثيرون أضاعوا الفرصة وأكملوا حياتهم في الاتُّجاه الخطأ. أنتجوا عملًا واحدًا ثمَّ ماتوا. ماتوا ككتّاب. أنتجوا بيضةَ الديك ثمَّ ماتوا في ذاكرة الناس، ونسيناهم. تريدين أن تفعلي مثلهم؟ تُنتجين بيضة الديك وتتقاعدين، وننساك؟

نظرت إليه أتفحَّصه بعينَيّ. كان ما زال في أواخر الخمسينيّات أو أوائل الستينيّات، وباسم طنّان وكتابات وترجمات وسلسلة **كتابي** الشهيرة. وله بيتٌ مستقرّ وزوجة متفهِّمة لطيفة، وأولاد يعرفون ماذا ينتظرهم في العالم. وهو رجل؛ رجل معروف ومحصَّن. لديه عملٌ واضح، ودخلٌ ثابت، وبيت مستقرّ، ومجتمع يقدّره ويحترمه ويعرف قيمته. أما أنا، فماذا لديّ؟ لا شيء سوى هذا الكتاب الذي كتبته بالسرّ عن زوجي. وعلى الرّغم من تلهُّف حلمي مراد إلى نشره وكتابة مقدّمة له يقول فيها إنَّه اكتشفني، فإنّني غير واثقة بأهمّيّة هذا الكتاب، وغيرُ واثقة بقيمته الفنّيّة وأهمّيّته الفكريّة. فأنا ما زلت على العتبة، فقط العتبة. وحتّى أتجاوزَها وأصعد إلى فوق، فوق السلم، عليّ أن أصقل نفسي وأدرّبها لأنّي ما زلت كالبيضة الخِداج، على العتبة.

لم أجادلْه طويلًا، لكنّا اتّفقنا على الخطوات، خطوةً، خطوة. وهذا ما صرت أفعله في كلّ شيء، خطوةً، خطوة. فنشر الرّواية خطوة أولى، وتسويقها إعلاميًا خطوةٌ ثانية، ونشرُ رواية أخرى خطوةٌ ثالثة، وهلمَّ جرًّا. هذا ما اتّفقت معه عليه وأرضيته، إذ كان يشعر بنوع من الاعتزاز لأنَّه، كما قال، اكتشفني، ولأنَّ التاريخ سيسجّل أنَّ له فضلًا عليّ. وهذا صحيح إلى حدّ ما، فتشجيع حلمي مراد كان له أثر كبير في نفسي، كما كان تشجيع أستاذي الكبير الفنّان إسماعيل شمّوط.

كتب الفنّان الرسّام إسماعيل شمّوط إليّ رسالةً في يوم ما قبل زواجي، وكنت ما زلت رسّامة هاوية صغيرة، في الخامسة عشرة من عمري، يقول فيها إنَّه يرى فيّ ما يبشّر بالخير، لكنْ على الفنّان الصّغير أن يختار لنفسه نوعيّةَ حياة تساعده على إكمال مشواره الفنّيّ وتحقيق ذاته. وقد خالفت نبوءة الأستاذ إسماعيل ونصيحتَه، وتركت نفسي أنجرف مع

التيّار في طريق أبعدَ ما يكون عن متابعة مشواري الفنّيّ وتحقيق الذات. فهل سأرتكب الخطيئة نفسها وأخالف نبوءة الأستاذ حلمي، وأختار طريقًا يجرفني ويضيّعني ويُتوّهني كما فعلت أوّل مرّة؟ لا، لن أفعل. كنت صغيرة، وكنت مرتبكة ومذعورة، وكنت لا أعرف بالضّبط ماذا أريد وماذا أفعل، وجعلت الأيّام تتقاذفني وتذروني كورقة صفراء في ريح الخريف. أمّا الآن، فأنا شابّة، وزوجةٌ مطلّقة وطليقة، وأمُّ ابنتين، وأمُّ نفسي. أمّي ما عادت تمثّل لي إلّا أمًّا بالاسم، لأنّها مثلي، يعني مهزومة ومهجورة. ومات أبي معنويًا بالنسبة إليّ، انتهى أمره، وأنا الآن أسوق حياتي كما أسوق هذا القارب، ومعي ابنتاي وكتابي، وهدفٌ كبير وإرادة، ومبدأ جديد لحياتي يلخّصه المثل القائل: إمّا قاتلة، وإمّا مقتولة.

---

1 لم تظهر صورتي على الغلاف الخلفي للرّواية، لأنّي غيّرت رأيي فيما بعد، وخفت أن تقلّل صورتي من شأني الأدبيّ والفكريّ. رفضت نشر الصّورة في ذلك الوقت، وطوال سنين، حتّى استعدت ثقتي بنفسي وحقّقت لنفسي بعضَ النجاح في عالم الأدب الجادّ.

بيرزيت

طالبة جامعيّة

قَبِلتني جامعة بيرزيت، فطرت من الفرح وأحسست بأنَّ الدُنيا بدأت تتفتَّح لي. نسيت روايتي، نسيتها كلّيًا، رميتها وراء ظهري لأنّي شعرت بأنَّها أصغر وأضعف من أن تشكّل لي دعامةً حقيقيّة تعيد إليّ توازني الذي فقدته بسبب الجهل والاتّكالية ونقص المال. يجب أن أقف على قدمَيّ من دون الاتّكال على أيّ كان، أيًا يكن. وهذه الرّواية، أو أيّ رواية، لن توفّر لي الدّعامة الماديّة أو المعنويّة. والدّعامة الماديّة هي الأساس. فكيف عاش هؤلاء المبدعون؟ ومَن هم هؤلاء، سواء كانوا روائيّين أو شعراء أو قاضين؟ هم إمّا صحافيّون كإحسان عبد القدّوس وأمثاله، وإمّا ضبّاط متنفّذون كيوسف السّباعي، وإمّا موظّفون حكوميّون كنزار قباني ونجيب محفوظ، وإمّا شحّاذون يعيشون حياة الفقر والقلّة ويُغرقون أنفسهم بدخان السجائر وبخار الحانات والمقاهي حتّى ينسوا واقعهم المُذلّ، ثمّ يطرّزون للناس كتابات تجعل الفقر تضحيةً والذلّ بطولةً. بمعنى آخر، إنّ الروايات لن تشكّل لي دخلًا حقيقيًا أتعيّش منه. وهؤلاء، كلّ هؤلاء، مَن بحثت عن تاريخهم وحيواتهم، واحدًا، واحدًا، لم يعيشوا من قصصهم وأشعارهم ورواياتهم، بل كان عليهم أن يستندوا إلى دخل ثابت من وظيفة ثابتة، ويكتبوا على الهامش، في أوقات فراغهم، تلك الرّوايات والقصص والقصائد. لهذا، نسيت روايتي وما عدت أذكرها إلّا لمامًا، كما لو كانت تجربة من تجارب الماضي الغابر، أو قصّةَ حبّ عابر ونزوةً صغيرة لا تستحقّ الذكر.

بدأت أستعدّ للجامعة نفسيًا وجسديًا. اخترت لنفسي غرفة في الطابق الأرضيّ من دار العائلة، وضعت فيها سريرًا حديديًا متقشّفًا ورفوفَ كتب، وزاويةً للقراءة والكتابة والدّراسة. تلك الغرفة، كانت واسعة بنوافذ تشرف على حديقة أمّي المليئة بزنابق الكالا البيضاء والنسيم والبانسيه والورد الجوريّ، وياسمينةٍ ضخمة تُعرّش على نافذتها الغربية وتصل إلى الطابق الثاني حيث الفراندةُ الزجاجيّة المطلّة على أجمل منظر لجبلَي نابلس من جهة الغرب، والطريق المؤدّي إلى طولكرم ونتانيا وحدود الساحل البعيد الذي يتجلّى في اللّيل فنرى أنوار الميناء والسُفن وبخار البحر. عشت أيّامًا حلوة وأخرى مُرّةً، مريرةً جدًا في تلك الدار، وتلك الغرفة، لأنّي اكتشفت أنّ قيودي ليست عابرة ومحدودة أتخلّص منها بمجرّد التخلّص من زواج رهيب وغربة ليبيا. فأنا شابّة، صغيرة، وحيدة، وفي عُرف المجتمع مطلّقةٌ بلا حارس ولا حصانة، أيْ إنّ الوصول إليّ، في

نظرهم، متاح، لأنَّ الطريق سالكة، وأنَّ من يدقّ الباب سيجد استجابة فورية من دون تلكؤ، وهذا ما سأتطرَّق إليه لاحقًا، ببعض التفصيل، لأنَّ المرأة في وضعنا هذا، وجيلنا هذا، وقوانينِ المجتمع والشرع والقوانين الوضعيَّة، لن تجد الحرِّيَّة بعبور سريع وضربة ساحر. فنضال المرأة للتحرُّر لا يختلف كثيرًا عن النِّضال في سبيل الوطن. هذا سياسة، وذاك سياسة. والفارق أنَّ السياسة الوطنيَّة محاطة بهالات وتمجيد وبطولة. أمَّا النِّضال النِّسويّ الجنسويّ، ففيه تحدٌّ وتذمُّرٌ وتُهَم جزافيَّة وعبثيَّة، تصل أحيانًا إلى حدّ التكفير والخروج على الدِّين والأخلاق، وأيضًا قد تصل إلى حدّ الاتهامات بالخيانة الوطنيَّة وشقّ الصفّ. لكنَّ النضال هو سياسة. وطريقَ الحرِّيَّة هي سياسة. وللحرِّيَّة، في أيّ ميدان أو قضيَّة، ثمنُها، وينطبق عليها قول الشاعر: «وللحرِّيَّة الحمراء بابٌ، بكلّ يدٍ مضرَّجة يُدَقُّ». فهل كنتُ مهيَّأةً لتلك الحرِّيَّة وتبعاتها؟ سأتطرَّق إلى هذا الموضوع لاحقًا بشكل موسَّع.

أدخلتُ ابنتَيّ في مدرسة من مدارس نابلس، وأنا عدتُ أيضًا طالبةً نجيبة مثلهما. تخلَّيت عن ملابسي القديمة واستبدلتها بملابس يغلب عليها الطابعُ الرياضيّ البسيط. لا كعب عاليًا، ولا زخرفة، ولا المفتوح ولا الضيِّق. بنطلون جينز أو كتّان، وبلوزات قطنيَّة وكنزات صوفيَّة. وفيما بعد، للشتاء، جاكيت جلديٌّ أسود كجاكيتات سائقي المتورسيكلات، وجزمةٌ سوداء تصل إلى الركبتين ذاتُ كعب واطئ. وكنت أبدو، بتلك الجزمة وذلك الجاكيت، كشرطيّ مرور أو حارس.

قبل دخولي الجامعةَ بأسبوعين أو ثلاثة، جاءت لزيارتي شابَّتان كنت أعرفهما قبل ذهابي إلى ليبيا حين كنت ما زلت متزوِّجة وأعيش في الطرف الغربيّ من نابلس. كانت الأولى جارتي في الحيّ وإحدى معارفي القدامى. والثانية، هي أخت صديقة لي أعرفها وأعرف عائلتها منذ سنوات بعيدة. وبسبب ظروفها العائليَّة المؤلمة، متجسّدةً في موت أمّها المبكّر وتكفُّلها هي، بما أنَّها أكبرُ إناث العائلة، بدور الأمّ بدلًا من أمِّها، لم تكمل تعليمها الجامعيّ، واكتفت بوظيفة محدودة الإمكانيَّات في إحدى الوزارات التي ورثناها من النِّظام الأردنيّ قبل الاحتلال.

سألتني الزائرات عمَّا سأفعله بحياتي وقد بتُّ حرَّة طليقة من زواج كنَّ يعرفن أنَّه مشؤوم ومتعثِّر. فقلت بفرح وحماسة: سأذهب إلى كلِّيَّة بيرزيت لأتعلَّم وآخذ شهادة، ثمَّ وظيفة. فتحت الاثنتان أعينهما، بل الثلاثُ، إذ إنَّ صديقتي، التي جاءت أختها الكبرى برفقتها، بادرت إلى

توجيه الأسئلة.

قلت إنّي عشت حياتي كالبلهاء. أنا منذ الآن سأعود طالبة نجيبة، أدرس وأتعلّم وأتثقّف. قالت صديقتي: لكنّك يا سحر مثقّفةٌ. لا أحد في نابلس يقرأ كما تقرئين! قلت: قراءة غير موجّهة ومن دون هدف ولا قاعدة. يجب أن أدرس دراسة مقنّنة لها ضوابط ولها هدف. والهدف طبعًا المعرفةُ المقنّنة والشهادة، ثمّ الوظيفة. وكذلك سأكتب روايات وأكون كاتبة معتبَرة.

تبادلت الشابّاتُ الثلاث النّظرات حين ذكرت كتابة الرّوايات، إذ كنّ يعرفن هواياتي في الرّسم والغناء والموسيقى وقراءة الكتب والرّوايات.أمّا كتابة الرّوايات، فما ذلك؟ شطحةٌ جديدة من شطحات سحر الخياليّة؟

رأيت النّظرات فحدثتهن عن روايتي وعن حلمي مرادُ فلم يُعرن تلك الرّواية وحلمي مراد اهتمامًا كبيرًا، بل استمرّ النقاش عن الدّراسة الجامعيّة وإمكانيّة دراستي في تلك السنّ، وهل سأفلح؟ وهل لن أخجل من الجلوس على مقعد ملاصق لمقاعد طلّاب في سنّ ابنتَيّ؟ قلت إنّ طريقتهن في التفكير تقليديّة، ففي مجتمعات أخرى أكثر انفتاحًا وتقدُّمًا هناك المئات، بل الألوف، ممّن عادوا إلى الدّراسة وهم في عمر متقدّم. قالت إحداهن: لكنّ ذلك في أوروبا وأميركا. أمّا هنا، في هذا المجتمع، فماذا يقول الناس؟ وأنتِ، كيف سترين وضعك في عيون الناس؟

وقفَتْ في صفّي صديقتي، وكانت جامعيّة وتعمل في التدريس، ودافعت عن وجهة نظري، والتفتت إلى أختها وسألتها: وأنت يا فلانة، لماذا لا تذهبين مع سحر إلى بيرزيت؟ قالت أختها بدهشة وخجل: أنا؟ بعد ما شاب وذُوه عالكتّاب![1] قالت صديقتي مشجّعة: يا أختي، أنتِ ضحّيت كثيرًا من أجلنا. قمت بدور الأمّ ونسيت نفسك. كلُّنا كبرنا وتعلّمنا وتثقّفنا واشتغلنا، وأنت الآن، يحقّ لك أن تعيشي حياتك وتنطلقي. اذهبي مع سحر. خوضي التجربة الجامعيّة. عيشي حياتك.

أطرقتِ الأخت الكبرى قليلًا، وحين رفعت عينيها رأينا دموعًا شفّافة وابتسامةَ خجل، وسألت بحماسة متردّدة: «هذا قولك؟ يعني معلش؟» صحنا جميعًا: طبعًا معلش، هذا حقّك. وتعانقت الأختان، وأنا أيضًا عانقت زميلتي المقبلة لأنّي وجدت رفيقة تشاركني في مرحلتي القادمة، أو مشروعي، فنكون معًا في النّضال من أجل العلم.

اتّصلت جارتي القديمة في المساء، وبعد ذهاب زائراتي بساعتين أو

ثلاث، لتقول بلهجة جادّة، شبه تقريريّة، كعادتها: وأنا أيضًا، سأذهب إلى بيرزيت لأتعلّم. سألت زوجي وشجّعني. سأكون ثالثتكما.

وهكذا بتنا ثلاثًا. ثلاث فارسات محاربات من أجل العلم والثقافة. هذا ما لقّبتنا به أجواءُ بيرزيت الجامعيّة: الفارسات الثلاث.[2] وهذا، للحقّ، يليق بنا، فقد كنّا نأخذ المسألة بجدّيّةِ محاربات مجنّدات على استعداد للاستشهاد في سبيل النجاح وتحقيق الحلم. كان التعلُّم والثقافة والحصول على شهادة بالنسبة إليّ، بدايةَ مشروع الخطوة خطوة لتطوير الذات. وكان ذلك، بالنّسبة إلى أخت صديقتي، أمنيةً بعيدة المنال لم تراودها حتّى في الأحلام. كانت قد اعتادت على فكرة أن تكون الأمَّ البديلة للعائلة المحرومة حنانَ الأمّ. رفضت تغيير ذاك الدور حتّى حين تقدّم إليها العديد من الخطّاب في سبيل الحفاظ على العائلة وملء الفراغ الذي أوجده فقدان الأمّ. ربّتِ الصغار واعتنت بالكبار، وساعدها في ذلك والدُها الجليل الذي رفض الزواج بعد موت زوجته خوفًا على أولاده من ظلم زوجة الأب أو تعنُّتها. وتعلّم كلّ الأخوة، بمن فيهن الصغيرةُ، التي استُشهدت في إحدى عمليّات المقاومة الفلسطينيّة.[3] عائلة جليلة ومحترمة، نشأ كلّ أفرادها، من دون استثناء، على حبّ العلم والثقافة والرُّوح الوطنيّة المتوهّجة. ولَكَمْ كنت أغبطهم على ذاك الجوّ، وعلى ذلك الأب. لهذا، حين قرّرت الأخت الكبرى مرافقتي لتحقيق الحلم، فرحتُ بها كثيرًا، بل كدت أطير.

وجارتي القديمة، امرأة ذكيّة بعقل تحليليّ متوقّد. لم تُسعفها الظروف في إنجاب الأطفال، لكنّها حظيت بزوج متفتّح العقل ومتحضّر. وحين حكت له عن مشروع الدّراسة في بيرزيت، سارع إلى تشجيعها، وصرنا بذلك ثلاثًا، ثلاث فارسات، أو الفارسات الثلاث.

نستيقظ في الصّباح، مع طلوع الفجر، ونأخذ تاكسي الركّاب من نابلس إلى رام اللّه، ثمّ ننتظر امتلاء باص بيرزيت أو السرفيس حتّى نصل إلى بلدة بيرزيت. وتكون العمليّة قد استغرقت ما لا يقلّ عن ساعة ونصف ساعة إلى ساعتين، وكذلك يستغرق مشوار الرجوع. أيْ ما معناه أنّنا نمضي في اليوم ما لا يقلّ عن ثلاث ساعات قد تصل أحيانًا إلى أربع أو خمس ساعات في سبيل الوصول إلى الجامعة.[4] لكنّ ذلك لم يشكّل عائقًا، إذ كنّا نتجاوزه بسعادة، كما لو كنّا ذاهبات في نزهة، ونملأ الوقت الضائع في المواصلات بالأحاديث العامّة والخاصّة، والتّعليق على ما مرّ بنا في اليوم السّابق، أو أخبار الوضع السياسي المتأزّم. وكنّا نتحيّن الفرصة

أحيانًا، أنا وجارتي فقط، لأنَّ زميلتنا الكبرى كانت ترفض مرافقتنا، فقد كانت أكثر جدّيَّة وإحساسًا بالمسؤوليَّة، فنذهب إلى فندق رام اللّه الكبير الـ GRAND HOTEL الجميل الراقي لنحتسي المشروبات اللّذيذة مع المازات الشهيَّة. ونضطرّ أحيانًا، وخصوصًا في أيّام الشتاء المثلجة، إلى العودة من منتصف الطريق أو أواخرها، بسبب تراكم الثلوج أو نقاط الجيش نتيجة الإغلاقات ومنع التجوُّل.

لم تكن المواصلات العقبةَ الوحيدة، إذ كانت الدراسة تتطلَّب التركيز وعدم التشتُّت، كما تتطلَّب القدرة على الحفظ وتذكُّر الأسماء والأرقام والتواريخ. وأعتقد أنّي لم أكن الوحيدة التي واجهت تلك المشكلة وعانت بسببها. فقد كنّا، نحن الثلاث، نواجه ضعفًا في الذاكرة قياسًا بذاكرة الطلاب ممَّن هم دون العشرين. وعلى الرّغم من ذلك، فإنّنا تفوَّقنا. فزملاؤنا الصغار كانوا يتفوَّقون بسهولة الحفظ، أمّا نحن فنتفوَّق بالقدرة على التَّحليل والتَّعليل وربط الأحداث بشكل منطقي، وأيضًا بالقدرة على استعمال اللُّغة بشكل ناضج ودقَّة في التَّعبير. لهذا تفوَّقنا، وكانت أسماؤنا تتوّج لائحة الشرف باستمرار، وهذا ما أعفاني، أنا بالذات، بالإضافة إلى عملي الجزئي في مجلَّة **الغدير** الجامعيَّة، من القسط الأكبر من الرسوم الجامعيَّة.

---

1 كانت في أواسط الأربعينيَّات.

2 كنّا أوَلَ الدّراسات والدّارسين الكبار في فلسطين، وربّما في الأردن، وانفتحت بعد ذلك الطريقُ لكبار السنّ بدخول الجامعات والتَّعلُّم في برامج الدّراسات المنتظمة، وهي عكس الدّراسة بالانتساب.

3 الشَّهيدة الصَّغيرة، شادية أبو غزالة، كانت عضوًا في الجبهة الشعبيَّة لتحرير فلسطين.

4(٢) تقرَّر بعد شهرين أو ثلاثة من التحاقنا، أن تصبح بيرزيت جامعة بتحصيل علميّ يقدّم البكالوريوس، وأصبحت بعد سنوات قليلة تقدّم الماجستير.

بيرزيت ١٩٧٢

كانت بيرزيت في السبعينيّات منارةً، شعلةً، بؤرةَ تنوير على المستويين السياسيّ والاجتماعيّ. كانت بيروتَ مصغَّرةً، بكلّ ما فيها من زخم سياسيّ واجتماعيّ وثقافيّ. تعلّمت على أيدي أساتذتها، ومعظمهم شبّانٌ في الثلاثينيّات، أكبر أو أصغر قليلًا، وتعلّمت على أيدي هؤلاء كيف أفكّر وأناقش وأقرأ بعين ناقدة وأتمعّن في مشكلات وطننا التي تُعيق تقدُّمنا وتحرُّرنا. بدأت أفهم ما هو التقسيم الطبقيّ، وما هو دورُ المثقَّف في مجتمع متخلّف، وما هو دورُ الموظَّف والعامل، وما هو دورُ المرأة. بدأت أفهم ما هو الفكر الاشتراكيّ، والرأسماليّ، والفوارق بينهما، وموقعنا نحن العرب بين هذا وذاك. لم يكن الفكر الإسلاميّ وطقوسُه وتجاذباته حالةً منتشرةً في ذلك الوقت، ولا كان الانقسام والتشرذم. أقصى ما كان لدينا هو المناوشاتُ والمناكفات بين التنظيمات التي كنّا نصنّفها كيمين أو يسار. وما لا شكّ فيه أنّ تلك المناوشات والمناكفات كان لها الأثر الأكبر في إنضاجي سياسيًّا وفكريًّا، ثمّ الصراع مع المحتلّ، وهو ما بدأت أعايشه على الأرض وأرى نتائجه وأهواله، سواء على اليمين أو اليسار. وانعكس كلّ ذلك بالطبع على أدبي، لأنّ الأدب، بالضرورة، هو انعكاسٌ للحياة والتجارب.

كانت هناك، عدا عن محاضرات العلم ومقرّرات المناهج، مؤتمراتٌ واعتصامات ومظاهرات وندوات فكريّة تدور عن مواضيع لم نعهدها في جوّ بلدنا المحافظ. نتداول آخر الإصدارات الأدبيّة والفكريّة في العالم العربيّ وأهمّها. تأتينا مهرَّبةً أو مقرصَنةً، فنلتهمها ونناقشها بالساعات والأيّام والأسابيع، وتدخل أحيانًا ضمن مقرّرات مناهجنا الدراسيّة فنقتلها بحثًا، ونكتب عنها البحوث والدراسات، وتصبح جزءًا من تركيبتنا الفكريّة والنّفسيّة. قرأنا، مثلًا، كتاب نوال السعداوي **المرأة والجنس** وتداولناه فيما بيننا، ثمّ درسناه كمقرَّر في مساق علم الاجتماع. وكذلك قرأنا **مقدّمة في دراسة المجتمع العربيّ** لهشام شرابي، ثمّ درسناه كمقرّر. وقرأنا **اللاز** للطاهر وطّار، و**مواسم الهجرة إلى الشمال** للطيّب صالح، وتعرّفنا إلى نجيب محفوظ الذي بدأ يسطع نجمًا أدبيًّا في السّاحة العربيّة بديلًا عن السباعي وعبد القدّوس، ومئات الكتب والبحوث والدراسات والنشرات التي أثرت فيّ تأثيرًا مباشرًا، وفي العمق، ونقلتني من سحر الرومانسيّة إلى ثائرة فكريّة ذات نزعة ارتيابيّة لا ترضى بالوصفات الجاهزة وأنصاف الحلول.

ولن أنسى تلك الأيّام المشرقة بسمائها الزرقاء الساطعة وألبستنا الزاهية وحماستنا الفتيّة منقطعة النّظير في المسابقات الفنّيّة والثقافيّة، والتي كانت تُعقَد في أسبوع سوق عكاظ والأنشطة الإبداعيّة: مسابقة إلقاء الشعر؛ مسابقة تنسيق زهور؛ مسرح؛ غناء؛ موسيقى؛ رقص. وقد شاركت فيها جميعًا وحزتُ جوائز صغيرة، كان لها أثر كبير في تشجيعي ورفع معنوياتي وتحفيزي على القيام بما هو أكبر. غنّيت ورقصت ونسّقت الزهور، وشاركت في مسرحية طريفة أخرجتها مدرّستنا الإنكليزيّة مسز سلفانا. كان الغناء والرقص في مدينتي المحافظة نابلس يُعتبر نوعًا من عدم الاحتشام والرعونة، بل عيبًا ومدعاة إلى الخجل والتستُّر. لكن في بيرزيت، في تلك الأيّام، كانت الفنون مدعاة إلى الفخر والاحتفاء بمن يؤدُّونها ويجيدونها. وقد أجدت بعضًا منها، واستمتعت ببعض الإطراء. تلك أيّام لا تُنسى.

أجواء بيرزيت في تلك الأيّام، وانفتاحها على الفكر الاشتراكيّ الديموقراطيّ المتقدّم، وانفتاح فكري أنا على تلك الأفكار والأجواء وقصص الحياة المختلفة عن قصص وأجواء عشتها كمراهقة في بيت الأهل في نابلس، وعشتها كأمّ وستّ بيت في منزل الزّوج، جعلت منظوري للأشياء مختلفًا جدًّا عمّا كان عليه. أمّا أين، وكيف بدأتُ بالتّطبيق، فكان ذلك في أثناء دراستي مساقات علم الاجتماع التي كان يدرّسها الأستاذ الأكاديميّ المعروف د.سليم تماري، وكان ما زال شابًّا في الثلاثين أو أصغر قليلًا. طلب منّا كتابة ورقة عن موضوع شخصيّ تحليليّ له امتدادٌ وعمق اجتماعيّان. وطلب من بعضنا، حين فعلنا ذلك، تقديمَ تلك الأوراق وشرح مضمونها للصفّ. وكانت إحدى تلك الأوراق لطالب يحكي فيها عن مأساة العمل في الصناعة الإسرائيليّة، وأنّ والده يساهم في تلك المأساة مجبَرًا لأنّ البديل هو الهجرة عن بلد يعاني البطالة والفقر والتخلُّف الصناعيّ والزراعيّ وانعدام الفرص. واعترف، بألم وخجل، بأنّه هو أيضًا، في أثناء العُطَل الصيفيّة، ينزل مع والده إلى المصانع الإسرائيليّة ويعمل هناك طوال الصيف حتّى يستطيع تسديد تكاليف تعليمه الجامعيّ. أثارني الموضوع، كما أثار معظم الطلبة في الصفّ. وانقسمنا بين معارض ومتفهّم، وهو انقسام يعكس الانقسام الوطنيّ العامّ بشأن هذا الموضوع بالذات، بل في استطاعتي القول إنّه لم يكن انقسامًا، بل شبه إجماع على أنّ العمل في إسرائيل عارٌ وعمالة وخيانة، وكانت كلُّ التنظيمات، بما فيها اليساريّة، تدينه وتلعنه وتعاقب مرتكبيه بتفجير باصات العمال وهي في الطريق إلى اسرائيل بعد إنزال العمال منها وضربهم بالعصيّ والكرابيج. قرّرت، في إثر

تلك الورقة وتلك النقاشات، تقصّي الموضوع بنفسي، وفهمَ مضاعفاته وأبعاده. فنزلت بهدف العمل في المصانع، بعد أن قمت بالإجراءات المناسبة، من حيث التخفّي بلباس شبيه بلباس العاملات وعقد تفاهم مع شابّة في مخيّم بلاطة عرّفتني إليها زميلتي هيام، إذ إنّ الشابّة كانت تعمل خادمة قبل نزولها للعمل في إسرائيل. تلك الشابّة، واسمها الحقيقيّ ندى، كانت مرشدتي وموجّهتي في ذلك الجوّ. تعرّفت من خلالها إلى العمّال، وسمعت قصصهم الحياتيّة وشكاواهم ومعاناتهم، وصوّرتهم، واستعرت أصواتهم ولهجاتهم. وحين استوفيت البحث وفهمت أبعاد الموضوع ودوافعه وأعماقه، كتبت ريبورتاجًا مصوَّرًا في **جريدة الفجر**، أحدث ضجيجًا وأثار زوبعة في التجمّعات السياسيّة والصالونات. وكتبتُ، في إثره **الصبّار**، التي في استطاعتي القول، من دون مبالغة، إنّها أحدثت نقلة نوعية في طريقة تعاملنا مع ظاهرة العمل في إسرائيل. ثمّ ألحقتُ **الصبّار** بـ **عبّاد الشّمس**، حيث مزجت فيها البعدَ النسويّ بالعماليّ بالوطنيّ. ولا بدّ من الاعتراف بأنّ للعاملة ندى، التي سمّيتها في **عبّاد الشّمس** خضرةَ، الفضلَ في توعيتي وفتح نوافذ كانت مغلقة بالنسبة إليّ. ولا بدّ أيضًا من الاعتراف بأنّ لجامعة بيرزيت، وللأستاذ سليم تماري بالذات، الفضلَ في تعليمي كيف أدخل في تفاصيل الأشياء بعيدًا عن الأساليب التقليديّة في التّفكير والتعميم، وكيف أخرج باستنتاجات حقيقيّة، من واقع الأرض، مهما تكن مخالفة للتفكير المتداول بين الناس، وأن تكون لديّ شجاعةُ عالِم الاجتماع وصدقُه في نشر تلك الاستنتاجات مهما تكن مخالفة للإجماع. وقد تبنّيت هذا النهج منذ **الصبّار** وحتّى الآن، أي حتّى بعد مرور نحو ٤٠ سنة. كلّ ما كتبته بعد **الصبّار** اتّبعتُ فيه هذا الأسلوب. أقوم بدراسة ميدانيّة كما لو كنت عالِمة أو باحثة اجتماعيّة، فأعاين الأجواء المكانية والأبعاد الشخصيّة والشخصيّات، قبل أن أعمل خيالي وأدواتي الفنّيّة في تلوين الواقع وتصويره وتطويره. والسّؤال الآن: لو لم أكن في بيرزيت، فهل كان في استطاعتي الوصولُ إلى ما وصلت اليه؟ هل كنت اتّبعت الأسلوب العلميّ قاعدةً للنصّ الأدبيّ والبناء الفنّيّ؟ هل كنت ما أنا عليه الآن بأسلوبي ومنظوري وأبعادي الوطنيّة والعربيّة، وربّما العالميّة؟ أشكّ كثيرًا في ذلك.

وما زلت حتّى اليوم، وبعد أكثر من أربعين سنة، وبعد كلّ ما تعلّمته وخبرته وتجاوزته، أقول إنّ بيرزيت هي التي شكّلتني من جديد. أعادت بيرزيت تكويني، وفتحت عينَيّ على الدّنيا، دنيا جديدة فيها انفتاحٌ على العالم والعلم والفكر والتماس الحقيقيّ بالوطن وصراعاته، واتّجاهاته،

وتنوُّع شرائحه وطبقاته، والقدرة على النَّظر إلى الواقع بعين موضوعيَّة ارتيابيَّة كما يفعل الضالعون في علم الاجتماع وعلم النَّفس. أتاحت بيرزيت لي فرصة العيش، لأوَّل مرَّة، في أجواء تحترم الفنّ والإبداع والتَّميُّز. تشجِّع المواهب بصرف النَّظر عمَّن يكون صاحب الموهبة، ذَكَرًا أو أنثى، غنيًّا أو فقيرًا، مسيحيًّا أو مسلمًا، اشتراكيًّا أو قوميًّا أو إسلاميًّا. الكلّ سواء في جوّ يسعى لخلق جيل جديد يبشِّر بالانعتاق والتحرُّر.

شكَّلت بيرزيت قاعدتي الأساسيَّة، وظلَّت في فكري ووجداني بؤرةَ إلهام وإنارة، وستظلّ كذلك.

✺ ✺ ✺

وقفنا بالباب ثلاثتنا، حائراتٍ مندهشات مغتبطات، حين دخلنا كافتيريا الجامعة لأوَّل مرَّة، وهي قاعة ضخمة مكوَّنة من جزأين، جزء علويّ حيث الكاونتر وما يقدَّمه من قهوة وشاي وساندويشات، وجزء سفليّ تصطفّ فيه الطاولات والكراسيّ الخشبيَّة، وحولها طلبةٌ مراهقون بشعور وملابسَ عصريَّة، أنيقة، نظيفة، وأنغام تصدح من غيتارات وهارمونيكات وغناء بأصوات ذكوريَّة، وأخرى أنثويَّة، تردّ عليها أصوات صاخبة جماعيَّة. نحن، الفارسات الثلاث، وكلّ واحدة منا جاءت بخلفيَّة مختلفة كخلفيَّتي القمعيَّة المأزومة، وخلفيَّةٍ مثقلة بالأعباء والمسؤوليَّات كخلفيَّة هيام، أو محبطةٍ متلهِّفة كخلفيَّة نهاية؛ وقفنا نتأمَّل الأجواء الصاخبة الشابَّة وعلى وجوهنا ابتساماتٌ حائرة مرتبكة. كنَّا معجبات وسعيدات لأنَّنا سنكون جزءًا من ذاك الجوّ، لكنَّنا حائراتٌ وخائفات من ألَّا يتمّ قبولنا بسبب أعمارنا وتجاربنا. كنَّا في أعمار تؤهِّلنا لأن نكون أمَّهات ذاك الجيل أو أستاذاته. كان شكل نهاية وشكل هيام يوحيان بذلك، أمَّا شكلي فبين البينين. بالجينز والتي شيرت والكعب الواطئ والشعر الطويل المنسدل حتَّى منتصف ظهري، بدوتُ في منتصف العشرينيَّات لا أكثر. وهذا ما أردت، أو تمنَّيت: أن أستعيد مرحلة من عمري ذهبت هباءً، أو سُحقت سحقًا، في زواج كالسِّجن مع زوج بغيض.

انخرطنا في الجوّ. جلسنا في البداية منزويات نراقب المجموعات الشابَّة المتكتِّلة في حلقات، منها الفنِّيَّة، تحلَّقت حول غيتارات وأغانٍ وأناشيد، ومنها دراسيَّة تناقش موضوعات علميَّة أو تنقلها، ومنها طاولاتٌ منزوية يجلس إليها عشَّاق يتهامسون أو أصدقاء يتعاتبون، أو عدد من الأساتذة الشباب بصحبة زوَّار أو صحافيِّين. الصحافيُّون العرب والإعلاميُّون الأجانب كان لهم دور محوريّ في ذلك الجوّ، فاغترفوا منه

أخبارهم وتحليلاتهم عن تطوُّرات الوضع الفلسطينيّ تحت الاحتلال، واكتسبت بيرزيت من كتاباتهم وكاميراتهم سمعتَها كبؤرة تنوير ومحطة إعلام.

وجدت أنا ضالّتي في ذاك الجوّ. علم وفنون وثقافة وحركة وحياة. تحرَّكت في كلّ اتِّجاه أنعف وأعبّ ما أقدر عليه، وأتحدّى ما لا أقدر عليه. نسيت عمري كلّيًا، بل أهملته، لكنّي أحيانًا، وأنا أجلس برفقة أساتذة وأستاذات أقرب إليّ في العمر والتَّفكير من زملائي الطلبة، أتذكَّر أنّي في مكان مستعار، غير حقيقيّ. أحاول أن أقترب من جوّهم فيُبعدني وضعي الطلّابي عن أماكنهم ومكانتهم ومشاغلهم. وأحاول في المقابل، أن أغوص في جوّ الطلبة فتبعدني محدوديّة تجاربهم وسذاجة أفكارهم. لا أنا مع الأساتذة، ولا أنا مع الطَّلَبة، بين البينين. أنا في غربة وعدم انتماء بالكامل إلى أيّ الجيلين.

لكنّي انتميت. غصبًا عن الظروف انتميت، وغطست في الجوَّين حتَّى أذنَيّ، وغطست لاحقًا في كلّ الأجواء. درست ورقصت وغنَّيت ووقفت أمثُل مع الطلبة على المسرح، وناقشت السياسة والمواقف الفكريَّة والمعتقدات مع الأساتذة. اكتسبت من هؤلاء وهؤلاء. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنّني بقيت وحيدة، أحسّ بضياع بين البينين.

غرقت زميلتاي الفارستان في الدراسة وأجواء الجدّ الجدّيَّة، وابتعدت أنا عنهما مسافة أمتار. كانتا تنتهيان من المحاضرات الدراسيَّة فتنسحبان وتعودان فوزًا إلى نابلس، أمَّا أنا فأبقى في بيرزيت أتدرَّب على أغنية فيروزيَّة مع مجموعة موسيقيَّة لنقدّمها ضمن فعاليَّات حفل طلّابيّ صاخب على مسرح الجامعة، أو أجلس في المكتبة العلويَّة أدرس وأراقب وأحملق.

كنت أنهب الدنيا نهبًا، كجائع وقع فجأة على طبق طعام شهيّ فأخذ يغرف منه بلا تركيز وبلا هوادة. انتشرتُ في كلّ مكان، حتَّى في الصحافة والإعلام. أردت أن أعوِّض ما ضاع من عمري وهواياتي وجذوة روحي. أردت أن أفرد جناحَيّ وأطير، أطير، حتَّى أبلغ ما أرجو وأصبو اليه. وأحيانًا، بل معظم الأحيان، ما كنت أعرف بالضَّبط ما أرجوه وما أصبو إليه. كلّ ما كنت أفعله هو الركض والطيران من دون توقُّف. وحين شبعت منهما بعدما مارستهما في كلّ اتِّجاه، بدأت أركِّز في المعتقدات والأيديولوجيَّات والسياسة. بدأت أعي أنَّ المجتمع، أيّ مجتمع، ليس مجتمعًا واحدًا وطبقةً واحدة وشريحة واحدة، بل هو مجتمعاتٌ وطبقات

وشرائح. ولكلّ مجتمع أو تجمُّع، خصائصه وقيمه وتقاليده. ولكلّ طبقة مصالحها وامتيازاتها ومساوئها. ولكلّ شريحة اتُّجاهاتها السياسيَّة والفكريَّة. مجتمعنا، ككلّ مجتمع، منقسم إلى مجتمعات، أو تجمُّعات، ومن الجهل والسذاجة أن ننظر إليه كمجتمع واحد بقالب واحد وفكر واحد. فمثلًا، رام اللّـه، بأغلبيَّتها المسيحيَّة (في ذلك الوقت)، أكثرُ انفتاحًا وتحرُّرًا من نابلس وغزة والخليل. في غزة، ورفح بالذات، نساء بأقنعة جلديَّة كأقنعة البدو لأنَّهن أصلًا من البدوِ وما زلن يعشن حياة البدو. وثمَّة فرق شاسع بين رفح ورام اللّـه، وبيت لحم وخانيونس. فبيت لحم، بأغلبيَّتها المسيحيَّة (في ذلك الوقت)، كانت أجواؤها مختلفة، وأكثرَ انفتاحًا وعصريَّة، وكذلك القدس وحيفا ويافا قبل النكبة. بدأت أفهم، بل تأكَّدت من أنَّ المجتمع الفلسطينيّ ـ أو الشعب الفلسطينيّ ـ ليس مجتمعًا واحدًا متجانسًا متلاحمًا في كلّ شيء حتَّى النخاع، كما يحلو للبعض أن يصوِّره، بل هو مداميك في مبنًى؛ قطعُ فسيفساء في لوحة؛ عدَّةُ مكوِّنات في طبخة والمذاق عسير، وهضمه أعسر. فينا المدنيّ وفينا القرويّ والبدويّ، فينا الغنيّ وفينا الفقير، فينا المسيحيّ وفينا المسلم، فينا الاشتراكيّ أو القوميّ وفينا ذو التوجُّه الإسلاميّ. هذا واقع. هذه هي الحال. ومن يرَ غير ذلك فلأنَّه لم يدرس الواقع أو يختبره، أو ما زال يَغمَهُ في الأساليب التقليديَّة في التنظير والتأطير.

بدأت أفهم ما هي الاشتراكيَّة، وما هي الرأسماليَّة، وما هي الماركسيَّة. درست هذه ودرست تلك، وبدأت أشكِّل قناعاتي. وقفت بين القوميَّة والماركسيَّة حائرةً مرتبكة. فأنا من ناحية فلسطينيَّة محلِّيَّة وقوميَّة عربيَّة، ومن ناحية أخرى عالميَّة لأنِّي أؤمن بإخاء الشعوب ووحدة الإنسانيَّة. لكنَّ الإنسانيَّة ليست مجتمعًا واحدًا وشعبًا واحدًا ومصالح واحدة. هناك الدين، والقوميَّة، والإثنيَّة، والجنسويَّة، وهناك مصالح ونزاعات. هناك حروب ومذابح. هناك قوى عالميَّة ومعسكرات، معسكر غربيّ ومعسكر شرقيّ وأتباع هذا وأتباع ذاك، وحرب باردة وتهديدات. والقوميَّة: كيف أكون قوميَّة، وفي الوقت نفسه ماركسيَّة! كيف أكون مسلمة، وفي الوقت نفسه علمانيَّة! كيف أكون باحثة في علم الاجتماع، وفي الوقت نفسه فنانة ذات اتِّجاهات أدبيَّة! كيف أكون متحرِّرة، وفي الوقت نفسه تقليديَّة! بين البينين، هذا ما كنت لعدَّة سنوات، بل طوال سنين، وربَّما ما زلت حتَّى الساعة. أهناك حزم وقول فصل لأيّ منَّا أو لأيّ كان إلَّا بالموقف والتنظير؟ هذا ما فهمت، وبدأت أفهم.

استمرَّت بنا الحال على تلك الشاكلة طوال أوَّل ثلاث سنوات. نذهب، زميلتاي وأنا، مغا ونعود مغا، إلى أن توقَّفتُ مدَّة فصلين كاملين عن الدراسة في سبيل إنهاء روايتي الثانية: **الصبّار**، التي كانت السَّبب في بروز اسمي في السَّاحة الأدبيَّة العربيَّة للأدب الوطني الملتزم، وكذلك في ساحة الأدب العربي المترجَم إلى لغات أجنبيَّة، وهذا سأتناوله لاحقًا بشيء من التفصيل لأهمِّيَّته.

مررنا طبعًا في جولات نقاش حين أبلغت زميلتي بتخلِّي عن رفقتهما في مشوارنا اليومي إلى بيرزيت من أجل الانتهاء من رواية جديدة. استاءت إحداهما واعتبرت نكوصي نوعًا من التهرُّب من استكمال مشروع التزمنا به مغا، واعتبرته كذلك نوعًا من أنواع الشطحات الخياليَّة، أو الرِّعناء، التي عُرفت بها. كان الانتهاء من الدِّراسة والحصول على شهادة، بالنِّسبة إليهم، هما الهدف الأهمّ. أمَّا أنا، فكنت أعتبر الشهادة بندًا من بنود مشروعي الأكبر لتطوير الذات وتحقيقها، وليست النهاية. الأدب هو الهدف الأسمى لمعنى وجودي، والشَّهادة خطوة مهمَّة في سبيل الحصول على وظيفة أتعيَّش منها وأحقِّق استقلالًا ماديًّا لا رجعة عنه. وكان عليَّ، في تلك الحالة، أن أقرِّر: أيُّ هذين البندين له الأولويَّة: تحقيق الهدف المثالي الأسمى أم الهدف العملي الملتصق باحتياجات الأرض؟ أيٌّ منهما أهمّ؟ أيٌّ منهما ألخّ؟ أيٌّ منهما له الأولويَّة لتحقيق الذات؟ الذات العليا أم الذات السفلى؟

لكنَّ الأمور بالنِّسبة إلى الإنسان المبدع ليست بهذا الشكل. فغالبًا ما يضحِّي المبدع باحتياجاته الجسديَّة في سبيل ذاته العليا وروح الإبداع. وقد ذكرتُ سابقًا أمثلة على فلاسفة وأدباء وفنَّانين عانوا الفقر والقلَّة والعزلة، وكاد بعضهم يموت من الجوع والوحدة، في سبيل تحقيق حلمهم الإبداعي واختيار نهج جديد للحياة: سقراط، سبينوزا، فان غوخ، شقوط، مدام كوري، دستويفسكي، وغيرهم، وغيرهم، فلماذا لا أكون مثلهم؟

طبعًا، من السخف والغرور الفاضح أن أضع نفسي في مصافّ هؤلاء الكبار وأعتقد أنِّي سأحقِّق إنجازًا فكريًّا أو علميًّا أو فنِّيًّا له أهمِّيَّة ما حقَّقوه. لكنِّي كنت مؤمنة بأنَّ لديَّ شيئًا مهمًّا أقوله للناس ومجتمعي، ولديَّ الأدوات الفنِّيَّة والتعبيريَّة التي تصلح لإبلاغه. أريد أن أقول: هذا واقعيٌّ وهذا حقيقي، وذاك غير واقعيٍّ وغير حقيقي. أريد أن أقول: هذا جميل

ومفيد، وذاك قبيح وله رائحة تسد الأنوف وتثير الغثيان. وهذا جيد وذاك سيئ. وهذا صح وذاك خطأ. وهذا لا يعني أنّي أعلم وأفهم وأذكى من غيري، لكنّي بفضل المعرفة ودقّة التقويم والنّظرة المبنية على المعرفة العلميّة الموضوعيّة والتجربة الميدانيّة، سأساهم في تهشيم الأوهام والادّعاءات الفارغة والتنطّع. أليس هذا هو دور الفنّ الهادف؟ أليس هو الهدف الأسمى والأرقى للحياة ونقاء الرُّوح؟ أليس هذا ما أحلم به؟ كما أنّ هدفي الأرضي مستمرّ ولن يتوقّف.

أنهيت ثلاث سنوات دراسيّة ولم يبقَ إلّا القليل لنيل الشهادة. لكنّ الظروف، ظروف البلد، وظروفي أنا ككاتبة ناشئة، تحتّم عليّ أن أرجئ استمراري في تحصيل الشهادة العلميّة من أجل ما سمّيته الظرف الملحّ والطارئ، أيّ ظرفي أنا وظروف البلد. ويتلخّص ذلك الظرفُ في تحدّيين اعتبرتهما مصيريّين في ذلك الوقت. التّحدّي الأوّل واجهته في أثناء زيارتي القاهرة في إثر صدور روايتي الأولى **لم نعد جواري لكم**، وكانت قد أثارت زوبعة إعلاميّة أراها الآن أكبر كثيرًا ممّا تستحقّه قيمتها الفنّيّة والفكريّة. اتّفق كثيرون آنذاك مع الأستاذ حلمي مراد، في اعتقادهم أنّهم يشهدون ولادة كاتبة متميّزة، بينما ناقضهم كثيرون ممّن لم يتّفقوا مع ذاك الادّعاء واعتبروني حُلية أدبيّة، أو أديبة صالونات، أو وجهًا أدبيًا موسميًا سريع الأفول.

وبرز التّحدّي الثاني أيضًا في أثناء زيارتي القاهرة في ذاك الوقت، وهو قراءتي مقالًا كتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين وصف فيه العمّال الفلسطينيّين بالعمالة والخيانة لأنّهم يعملون في الصناعة الإسرائيليّة. جرحني المقال وأثار فيّ إحساسًا بالعزّة الوطنيّة والتّحدّي. فماذا يعرف الأستاذ بهاء الدين عن أوضاعنا تحت الاحتلال، وانهيار البلد على كلّ صعيد؟ ماذا يعرف حتّى الفلسطينيّون في الخارج عن أوضاع البلد الحقيقيّة؟ وكلّ هؤلاء المنظّرين السياسيّين والصحافيّين وأشباه المفكّرين، الذين يغدقون علينا النُّصح من الخارج من دون أن تكون لهم أيّ صلة بالواقع الذي نعيشه، فيطالبوننا بأن نفعل كذا ولا نفعل كذا، ماذا يعرفون عن واقعنا وهم هناك بعيدون عن الطاحونة الإسرائيليّة والاختناق اليومي والمعتقَلات؟ حتّى قيادتنا السياسيّة في بيروت، بكلّ تنظيماتها اليساريّة وغير اليساريّة، ماذا تعرف؟ هل يعرف القيّمون عليها أسباب هذه الظاهرة؟ وهل هم قادرون على تقديم علاج لها؟ وكلّ تنظيراتهم وتفسيراتهم واتّهاماتهم، أهي مبنيّة على نظرة محايدة موضوعيّة،

ومنطقيّة، وإنسانيّة؟

عدتُ من القاهرة وأنا متحفِّزة، وصمَّمت على كتابة رواية عن هذا الموضوع، وخصوصًا أنّي كنت قد خضت تجربة العمل في إسرائيل، وكتبت عن تلك الظاهرة، لكنّي لم أبدأ بكتابة الرّواية إلّا بعد أن قمت بمقابلة العديد من النقابيّين والسياسيّين والصحافيّين وأرباب العمل وأصحاب المتاجر، وكذلك بعد نشر ذاك الريبورتاج الذي حُقِّق معي بسببه مرّتين. المرّة الأولى في مقرّ الحاكم العسكريّ في نابلس، والمرّة الثانية في المقاطعة في رام اللّه. وهُدِّدتُ في المرّتين بالسّجن لأنّي أزوِّر الحقائق وأشوِّه صورة العمل في إسرائيل. والأهمّ، التّهمة بالتسلُّل والعمل في إسرائيل من دون تصريح، ريشيون، وانتحال صفة العاملة بتزوير شكلي وادّعائي أنّي عاملة ككلّ العمال.

كان الموضوع في ذهني ناضجًا، والتّحدّي الفكريّ ما زال قائمًا، والنقاشات المحتدمة عمّا كتبت في ذلك الريبورتاج ما زالت تدور بين الوجهاء وفي المتاجر والصالونات. وكذلك النعوت التي اتُّهمت بها في القاهرة والأردن، ككاتبة موسميّة أو صرعة أدبية، ما زالت تحفر داخلي وتؤرّقني، لذلك قرّرت أن أرجئ دراستي الجامعيّة حتّى أنتهي من كتابي الجديد، أي الرّواية، التي يعاني أبطالها واقعًا سياسيًا واجتماعيًا معقّدًا، لا أحد تناوله أو حلّله من قبلُ بطريقة موضوعيّة إنسانيّة. وتوقّفت بذلك عن الدّراسة مدّة فصلين، فكانت **الصبّار** التي أحدثت انفجارًا أدبيًا وفكريًا وسياسيًا في ذلك الوقت، وبدأتُ في إثرها أُعرف ككاتبة محترفة، جادّة، وملتزمة.

مضامين الصبّار

ما حاولت فعله في **الصبّار** هو رصد تحرُّكات المجتمع الفلسطينيّ تحت الاحتلال من خلال الحكايات وقصص الناس والأبطال، مع تركيز واضح في الحالة الاقتصاديّة وظاهرة العمل في إسرائيل. مشهدان يلخّصان ما قصدت:

نرى في المشهد الأوّل القياديّ أسامة يخطّط لتفجير باصات العمّال الذاهبين إلى المصانع الإسرائيليّة، فيفتعل معركة جانبيّة مع قوّات الاحتلال أدت إلى مقتله ومقتل عدد من العمّال، أوّلُهم أحد أهمّ أبطال الرّواية: زهدي القبضاي الطيّب الذي أُرغم على العمل في اسرائيل بسبب سوء الأوضاع الاقتصاديّة. والاستنتاج الذي يصل إليه القارئ، بعد الانتهاء من قراءة الرواية، هو أنّ عمل العمّال في إسرائيل ليس حرامًا ولا خيانة، لأنّه حلّ قسريّ فُرض علينا بسبب عدم توفُّر البديل.

نشهد في المشهد الثاني والأخير نسفَ دار الكرمي وما تمثّله من بُنًى وهياكلَ عائليّة واجتماعيّة مهترئة، تُعيق التقدُّم والتطوُّر. يكتشف البطل الرئيس عادل الكرمي في أثناء النسف، أنّ وجه الضابط الإسرائيليّ المكلَّف تنفيذ عمليّة النّسف، مشابهٌ لوجه أبيه.

استنتاج الرواية: نخرج من **الصبّار**، على الرّغم من الحزن على الأبطال، بأمل في مستقبل يحمل إلينا بشائر التّحرير والتّغيير في جميع الأصعدة، الداخليّة والخارجيّة.

أصف في الفصل التاسع، الظروف التي دفعت العمّال إلى العمل في المصانع الإسرائيليّة، والمعاناةَ التي يتجرّعونها يوميًا، والإذلالَ والنقمة بسبب التناقض الذي يعيشونه. فهم، كفلسطينيّين محتلّين، يعملون من أجل البقاء في أرضهم، ولأنّ البديل الفلسطينيّ أذاقهم من الاستغلال والهوان ما نفّرهم وحرّك مواجعهم، بل أثار أسئلة ما كانت تخطر في بالهم عن أصحاب العمل الفلسطينيّين الذين آثروا انتهاز الظرف الكارثيّ الذي يمرّ به البلد لاعتصار العمال واستغلالهم في سبيل زيادة أرباحهم. فأرغم العمّال، لهذه الأسباب جميعًا، على العمل في مصانع تشكّل العصب الأساسيّ في كيان يستبيح أرضهم ويسحق شعبهم ويُذلّ أمّتهم، ويجرحهم. والمفارقة أنّ جرحهم من أصحاب عملهم السابقين يشبه إلى حدّ بعيد جرح المحتلّ، لأنّه جرح ذوي القُربى من أبناء جِلدتهم.

نتعرّف، في هذا الفصل، إلى إحدى الشخصيّات الرئيسة: عادل الكرمي، الذي هبط من مستواه الاجتماعيّ والاقتصاديّ بعد أن هجر العمّال مزرعتَه، فاضطرّ إلى العمل في المصانع الإسرائيليّة كي يتمكّن من القيام بأوَدِ عائلته المشكّلة من تسعة أفواه آدمية والآلةِ، أي الكلية الاصطناعيّة لوالده المصاب باهتراء الكليتين.

9

مشى عادل يتوسّط الرجلين. جباههم مقطّبة. عيونهم مغبّشة. عضلاتهم ما زالت مخدّرة بالنّعاس. واللّيل ما زال أسود. وقمر ونجوم وأضواء البلديّة.

وقفوا على الرّصيف بين مئات العمال. وعمّا قليل ستحضر باصات «إيجيد» لتأخذهم للمصانع غربًا. ورائحة النوم. والخبز والجبن. وبائع الكعك والبَيض ينادي على بضاعته التي لا تكون رائجة في الغالب. فمعظمهم يحملون سلالًا صغيرة. أو أكياس نايلون يتراءى ما وراءها بدون كلفة.

وجلس بعضهم على عتبة الرّصيف متّكِئين برؤوسهم إلى أكفّهم الخشنة المعروقة. يحاولون اختطاف تعسيلة من النوم قبل وصول الباصات. وتصل الباصات وتصل الشاحنات المغلقة. ويتدافعون بالمناكب. مَن سيقف؟ مَن سيجلس؟ والسّباق على الكرسيّ بجوار

السَّائق شرٌّ لا بدَّ منه. فالجلسة مريحة هناك وتعطي مجالًا أكبر للنوم الهنيء.

وصعد الرجلان إلى الشاحنة يتوسَّطهم عادل. أنوار خافتة. مقعدان طويلان على طول الشاحنة. ومقعدان طويلان في الوسط. والوقوف أكثر من القعود. الوقوف يمسكون بمواسير مثبَّتة بالسَّقف. والقعود يُلقون برؤوسهم على أكتاف بعضهم البعض ويَغطُّون في نوم مهزوز.

أحد الرجلين. في الستِّين. له ذكريات مريرة مع الجوع والوقوف في الطابور أمام الجمعيَّات الخيريَّة.

ـ الأولاد كالجراد. يقرطون الأخضر واليابس. وأنا آكل كالحصان لأظلّ في قوَّة الحصان. آكل لحمًا كثيرًا. واللَّحم نار هذه الأيَّام. كلّ يوم تطبخ أم صابر نصف كيلو لحمة بـ ١٠ ليرات غير الخضرة والرز والسمن والفاكهة...

... قبل الاحتلال كان يعطيني ١٣٥ قرشًا أردنيًا في اليوم. ولم يكن الغلا مثل اليوم. وأنت تعرف محسوبك. نجّار معلَّم أبو زيد الهلالي خاله. وبعد الحرب رجعت له فقال لي: بـ ٨٠ قرشًا. قلت؟ بس أنت كنت تعطيني ١٣٥ فما الذي اختلف؟ والعمل موجود والربّ موجود. وما تنساش الأسابيع الماضية. يا سيِّدي متنا من الجوع. قال: العمَّال كتار والطلب على الشغل كثير. وإذا مش عاجبك تفضَّل من غير مطرود فتفضَّلت.

ردَّد زهدي بحنق:

ـ مجرم مثل اللّي كنت عنده. تصوَّر يا أبو صابر. اشتغلت عنده في المعصرة سنتين. ولا يوم خزا عين إبليس وقالي خذلك كيس هالدق. وفي يوم قلت أكلح مثله. وكانت الدنيا شتويَّة والبرد يقصّ المسمار، طلبت منه كيس دق فقال لي بثمنه. استحيت أحطّ واطي وقلت: بثمنه. ولما شاف الكيس مليان سألني: وزنته؟ قلت: لأ. قال أوزنه، وكان وزنه يا عادل ١٢ كيلو الله وكيلك. قال لي: الكيلو بـ ٤ قروش٤٨ = ١٢ x . قلت وقلبي ينقّط سمًا: حاسبني عليهم. وفي آخر الشهر حاسبني عليهم وخصم من حسابي ٤٨ قرشًا.

وتدفَّقت اللَّعنات من أفواه الآخرين...

وتدفَّق العمال من باب الشاحنة. وتفرَّقوا في شوارع تل أبيب

النائمة. وكانت الشمس ما زالت تتمطّى في سماء غائمة.

✺ ✺ ✺

نتابع، في الفصل الثالث عشر، أسامة الكرمي الذي دخل البلد بعد سنوات من الغياب. نراه يستعدّ لتفجير باصات العمّال، ويكتشف أنّ ابن عمّته، عادلًا يعمل أيضًا في الصناعة الإسرائيليّة، فيُصعَق، ويبدأ بملاحقته لإقناعه بالعدول عن العمل في إسرائيل، ولإنقاذه أيضًا ممّا ينتظر العمّال حين يقوم بتفجير باصاتهم.

13

شرب عادل كأسين. وبدأت الأرض تميد. وعندما تميد الأرض من تحتك فكلّ شيء على ظهر الكرة يموج. وتحاول التشبُّث بالثوابت. ولكنْ، حتّى الثَّبات نفسه يتطوَّح. وتغرق. تغوص في قاع الأحداث. وتغمرك الأيّام بتفاهات كالطحالب المائيّة. مائعة. لزجة. لها طعم يبعث الرَّغبة في التقيُّؤ. وكرَي يا يدي فوق محطّات الإذاعة وغلفَيني بالأساطير والأمجاد وعبادة الأفراد. وشعب بأكمله يغرق. يغوص في قاع الأحداث. وصوت الإذاعة يردّد أهزوجة الأمل المنشود. الأمل في الحرِّيّة. في البعث. في سعادة الإنسان. سعادة أم خرافة؟ أم هالات لا ترى بالعين المجرَّدة؟ والعين تعاني قصر النَّظر. والقلب مفعم بآلاف الحسرات. والأيدي مكبّلة بآلاف الأغلال. والكلية تعمل أو لا تعمل. ورجل في البهو يتشدَّق بأمجاد العروبة. وأمّ صابر تتلو الدُّعاء تلو الدُّعاء. وغوصي يا بلدي في الأوحال. وعانِ يا شعبُ مرارة العين البصيرة واليد القصيرة. واليد تنزف. والسكّري يحرم الدم نعمة التجلّط. والدار الكبيرة يعلوها الغبار. وأمجاد العائلة تنهار وتنفضح الكذبة. فنحن في الهمّ سواء.

وكان أسامة ينتظر أمام البوابة.

ـ عادل، تعالَ. أريد أن أحدّثك.

وما زالت الأرض تميد. وكلّ شيء على ظهر الكرة يموج. وحاول أن يحصر فكره، وأن يفسّر سرّ الوقفة أمام البوّابة في ذاك المساء البارد...

...ومزا بعشرات الدكاكين المغلقة. وليل نابلس البارد الرَّطب ينخر الرئتين. والربيع ما زال شتاءً. والوحل يلوّث الطرقات المهجورة.

والناس نيام. وسيَّارات الدوريَّة لا تنفكّ تذكّر بالعين البصيرة واليد القصيرة. ويد أبو صابر مثكولة الأصابع. أبو صابر هبط. أتسمع الكلمة؟ تدوّي. تطنّ في الأذن كطبل يرنّ في قاع وادٍ. وتعني ما هو أكثر من الموت. أكثر من الاحتلال. حرّيَّة؟ أيَّة حرّيَّة؟ أبعد من انفراج السماء عن ليلة القدر. وما أدراك ما ليلة القدر. تنزّل الملائكة والرُّوح فيها. والملائكة تبتسم. ونوار أيضًا تبتسم. للغد. للمجهول. للأمل المطلق. وكلّ أمل في المطلق ساذج. وهذا الشاب المتحمّس البطران بأموال البترول ماذا يريد؟

... اتَّكأ على الحائط وبدأ يتقيّأ. وفاحت رائحة الكحول والعصارات الهضميَّة. ومرَّ شيخ يتحسَّس شارع الزقاق الحجريّ بعصاه. والظلام شامل إلَّا بصيص نور يرتجف أمام إحدى الدكاكين. مسح عادل فمه بكمّه. واستمرَّت الدُّموع في مسيرتها الصامتة. وصاح مجهشًا فجأة:

ـ أقنعني بأنَّ ما أقوم به ليس جهادًا، وبأنَّ المعركة محدَّدة المعالم.

ولم يُجبه الآخر. استدار برأسه محاولًا الابتعاد بأنفه عن مصدر الرَّائحة القذرة. واصل عادل تقيُّؤه ومشى يترنَّح.

ـ ومعركة الأمعاء مَن يخوضها؟

يخاطب نفسه. ما من داع للإجابة.

ـ خُذ عمري وأقنعني بأنَّ الحرّيَّة تعني جوع العزَّل. وأنَّ في الجوع سعادةً. خذ عمري وأقنعني...

...ومشيا ببطء . ليل نابلس البارد الرَّطب ينخر الرئتين. والربيع ما زال شتاءً. والوحل يلوّث الطرقات المهجورة.

ـ اسمع. هناك أوامر بنسف باصات العمَّال. خذ حذرك. نبّهتك. قمت بواجبي تجاهك وأرحت ضميري.

- ضميرك! وماذا عن الهبوط؟ ألا يكفي أبو صابر؟ فمن يُطعم الأطفال ويستر عورات النساء؟ وإذا ترمَّلت النِّساء فمن يتزوَّجهن؟ وإذا تزوجن سيرمي الأزواج أولادهن في الشَّوارع. وسيتسكَّع الصبيان في الأزقة يدخّنون.

ـ هم يدخّنون رغم وجود الآباء. فما نفع الآباء إذن؟ يُسيئون

تربية الجيل الجديد ويشوّهون أمجاد الصمود.

ـ أمجاد؟ ألا تقيسون الإنسان إلّا بأمجاده؟ وضعفه؟ وقسوة الحياة والمجتمع؟ والتركيب المهترئ والأحقاد المتبادلة؟ نسيت أنا الأحقاد لأنّي تمتّعت بنعمة الأسطورة. لكنّ شحادة لم ينسَ. وتركني شحادة. تركني وحدي رغم العيش والملح. أتذكّر طفولتنا؟ أتذكّر كم لعبنا تحت التينة الخرطمانيّة؟ وكنّا نرشّ البقر بخرطوم الماء. وكان شحادة يبول في جرن العلف. أتذكر؟ ما زالت لديه تلك العادة القذرة. وقد تبوّل على المزرعة برمّتها بمن فيها أنا. أنا لم أسِئ إليه. تربّينا معًا. لكنّ الوالد مارس أعراض اهتراء الكلى فأصبت بالمغص أنا. أتعرف؟ مساء الأمس سمعته يقول للصحفيّ أشياء مضحكة. وكان يندب أمجاد العروبة والفرنسيّ يقوم بتعزيته على خير وجه. كان يقصّ عليه حكايات مماثلة من تاريخ فرنسا. كان ألوف الفرنسيّين يعملون في مصانع هتلر الحربيّة. أتصدّق؟ أحسست بالعزاء. وضحكت اليوم في الباص لأوّل مرّة...

...هزّ رأسه أسامة وتمتم:

ـ الكلام مع السكارى عبث! أنت سكران. ادخلِ البوابة واصعدْ إلى غرفتك فورًا ونَم. أنت سكران.

وبدأ عادل في صعود بعض الدّرجات. ثمّ وقف وواصل هذيانه:

ـ أيّنا ليس كذلك؟ بعضنا بنشوة الصمود. وبعضنا بأمجاد القتال. ونحن بمغص الكلاوي. مغصُ الكلاوي مزعج. أصعب من آلام المخاض. لكنّ آلام المخاض تعقبها ولادة. نحن ننمغص وأنتم تتمخّضون وتعيّرونا بعدم الولادة! ماذا نلد! هل لقّحنا النهرَ المقدّس ولم نلد؟ غوصي يا بلدي في الأوحال. ولتَظفُ على السطح آلافُ الطحالب. ولتَقُلْ على الوطن السّلام. ولتَقُلْ على الأرض السّلام.

* * *

يقوم أسامة ورفاقه، في الفصل الحادي والثلاثين، بتفجير باص للعمّال يركبه زهدي العامل الشاب القبضاي. يصاب زهدي، لكنّه، على الرّغم من الإصابة، ينخرط في المعركة التي اندلعت بين أسامة ومجموعته والجيش الإسرائيلي.

...وهدر أبو الرعد:

ـ هذه الأرض لكم. استرجعوها بقرار من هيئة الأمم. استرجعوها بأبيات الشعر وأغاني العودة. وصلّوا لله مليون ركعة بدون مبزّر. فلن ينصر اللّه إلّا اليد المشدودة على الزناد.

...وأبو الرعد ما زال يرعد:

ـ في الفجر نكون هناك بانتظار الباصات. العمّال. أرهبوهم فقط. لا تضربوا في المليان.

ومشى الرجال في الطرق الجبليّة. يعرفونها كما يعرفون دروب حياتهم. واللّيل. والنجوم. وما من قمر. والسكون. ونقيق الضفادع البرّيّة. ومواويل الزيز بين فروع الخوخ والزيتون.. أحذية مطاطيّة. وملابس مدنيّة. والكوفيّات الحمر. وجيوب منتفخة بالعبوات والقنابل اليدويّة.

ومرّت سيّارة عسكريّة في الشارع تحت المرتفع. اختبأوا خلف الصخور حتّى اختفت. وعادوا يسيرون. ثمّ ربضوا. وبدأت مصابيح الباصات تتلألأ في ظلمة الوادي البعيد. عناقيد متتالية من المصابيح. والعمّال داخل الشاحنات والباصات يلقون برؤوسهم على أكتاف بعضهم ويَغطّون في نوم متقطّع. واقتربت الشاحنة الأولى. صاح أبو الرعد:

ـ اضرب.

وانهمر الرصاص. وانفجرت قنبلة بالقرب من شاحنة فتناثرت الشظايا في كلّ اتّجاه. وانفجرت الإطارات. ودارت الشاحنة حول نفسها والعمّال يصرخون. وفتح أحدهم الباب وألقى بنفسه. وقفز آخرون. ووجد زهدي نفسه مستلقيًا في إحدى الحفر وشظية ما تستقرّ في كتفه.

وصاح أسامة:

ـ اضرب. اضرب الباص الثاني.

وانهمر الرصاص. وتطايرت شظايا الصخور. وانفجرت إطارات الباص. وتوقّفت الباصات الأخرى في المسافات البعيدة. واستدارت شرقًا. وولّت الأدبار.

والعمّال يركضون في الظلام. يختبئون وراء الصخور. في الحفر.

وراء الشجر. بعضهم أُصيب بإصابات خفيفة. وواحد أو اثنان بدون حراك. وهتف زهدي بقلب جريح:

ـ يا عكاريت! تنهشون لحمكم! سألعن دينكم. أنت يا أسامة. عرفتك. أنت يا قوّاد. أنت لا تعرف. لا تعرف. لو أنّي أمسك بك!...

... وتلفَّت أسامة وقد هزَّته المفاجأة. ذلك زهدي. آه. وربّما كان عادل معه. لا بأس. فدا الأرض. فدا القضية. وأعطى مزيدًا من الإشارات. وواصلوا الانسحاب.

توقَّفت السيّارات العسكريّة في الشارع. نزل الجنود يحملون رشاشاتهم. سطعت الأنوار الكاشفة تمحو الظلام. وانطلقت مكبّرات الصوت تلعلع... سلّم نفسك.. سلّم نفسك..

وواصلت المجموعة الانسحاب. تمركزوا خلف الصخور. وانطلقت القنابل المضيئة. ومكبّر الصوت.. سلّم نفسك. وانتشر الجنود يطوّقون المنطقة. وتكوّم زهدي في حضن الصخرة وقد أخذته المفاجأة.. وقعت يا زهدي. بين المطرقة والسندان. وقعت يا أبو حمادة. الرشاشات والقنابل اليدوية. واللّاسلكي في السيّارات العسكريّة يطلب الإمدادات...

...اضرب يا زهدي يا أبو حمادة اضرب. فقد بتّ شوكة رغم أنف الجميع...

...مَن؟ أسامة! ماذا حدث؟ والأضواء الكاشفة. والبطن المبقور. سلّم على أمّي يا زهدي. أسلّم على أمّك؟ من سيبقى ليسلّم على أمّك! سلّم يا هذا الرّصاص على أمّ أسامة. هات قنبلتك. سلّمي يا هذه القنبلة على سعديّة والأولاد. آه أولاد القحبة طيّروا رأس أحد رجالك.

زهدي! زهدي يا أخي. مات زهدي. وأنا أموت. الموت شرّ لا بدّ منه. أنت يا أمّي ملاك. وأنا. سبع السباع يمه. قولي. مات شهيدًا. قولي. فدا القضية. فدا الأرض. معبودة. الطابون. عبير الزبل المحروق. شبابة. مناديل. أعراس. عروس. نوار. صالح. أعراس. لم تولد بعد.

* * *

في الفصل الرابع والثلاثين, أي نهاية الرّواية، وقد صدر أمر بنسف دار الكرمي في إثر اكتشاف مخزن لأسلحة المقاومة، نرى عادل الكرمي ممزَّقًا بين قرارين: إنقاذ كلية والده الاصطناعيّة أو تركها لتُنسف مع بقية

أجزاء الدار؟ ويقرّر، في النّهاية، تركَ الكلية الاصطناعيّة لتُنسَف حتّى يحرّر العائلة من الرجل المريض، ويتحرّر.

أوّل من خطر في بالي حين أنهيت **الصبّار** هو الأستاذ حلمي مراد وسلسلته المعروفة **اقرأ** التي نشرتُ فيها روايتي الأولى واستُقبلت ببعض النجاح. كنت أظنّ أنّه سيفرح بإنتاجي الثاني ويعتزّ به على اعتبار أنّه مكتشفي وله الفضل في تقديمي إلى السّاحة الأدبيّة العربيّة، إلّا أنّي فوجئت برفضه نشرَ الرّواية لأنّها، كما قال، ليست في مستوى الأولى فنّيًا، وسوقيّةُ الأسلوب والأجواء، وعديمةُ الجنس والهويّة. سألته عمّا يعنيه بعديمة الجنس والهويّة، فقال: إذا وضعت إصبعي على اسم المؤلّفة فلن يعرف القارئ ما إذا كان المؤلّف رجلًا أو امرأة. حاولت أن أشرح له خلفيّة الرّواية ومدى أهمّيّة المواضيع التي تطرحها، إلّا أنّه أصرّ على موقفه، وقال إنّها لا تصلح للنشر. أفهمته حينذاك أنّ عددًا من النقّاد والأكاديميّين الفلسطينيّين قرأوها وأثنوا عليها واعتبروها إنجازًا أدبيًا فلسطينيًا مهمًّا، فقال: هؤلاء إمّا أنّهم لا يفهمون الأدب وإمّا أنّهم يجاملونك. سألته بحدّة: لا يفهمون في الأدب، أمَ أنّك أنت موضة قديمة ولا تستطيع استساغة الأدب الحديث؟ وتبادلنا في إثر ذلك بعضَ الاتّهامات، وارتفع صوتانا في النقاش. وللحقيقة، لم يكن نقاشًا، بل كان، باختصار، خناقةً أدبيّة بين أديب غير مسيّس لا يعبأ بقضايا شائكة أرضيّة كالتي طرحتُها في **الصبّار**، وبين امرأة عاشت تجربة الاحتلال وما تمخّض عنه من آلام وأزمات واحتقان. أنا ابنة القضية، بل قضايا، وهو رجل عاش في أوساط الأدب اللّطيف الهادئ، البعيد كلّ البعد عن الهزّات الجماعيّة والمصائب؛ أدب يشبه ما كتبته البرونتيات وجين أوستن وأوسكار وايلد وما شابهه. يعني أدب النخبة البعيد كلّ البعد عن أدب الشعوب المسحوقة، والمعجون بالدم والغضب وانتفاضات الروح.

الآن، وبعد كلّ ما مرّ من سنين وخبرات، أجد للرجل العذر وأتفهّم منطقه وردّات فعله. لكنّي في ذاك الوقت، وبعد ما تعلّمته في بيرزيت، وما خضته في أثناء كتابة **الصبّار** من تجاوزات فكريّة وسلوكيّة، وكنت قد بدأت أعتبر نفسي كاتبة ثوريّة تثويريّة، لم أتفهّم منطقه ولم أعذره، ولم أكن لطيفة في ردّات فعلي تجاه شروحاته ومبرّراته. وأذكر أنّي اتّهمته بجميع النعوت التي تقبّلها بصدر رحب وحاول الدّفاع عن نفسه بكلّ الطرائق المهذّبة اللّطيفة، فقد كان ديموقراطيّ النّزعة، واسع الاطلاع والأفق، ومهذّبًا إلى أبعد حدّ. ولو لم يكن كذلك لطردني شرّ طردة بعد كلّ ما اتّهمته به ووجّهته إليه من إهانات. وهو، في منصبه وموقعه الأدبيّ

ذاك، لم يكن في حاجة إليّ، بل أنا من كنت أحتاج إليه وإلى دار نشره. لكنّه، بكلّ صدق، كان مثقّفًا حقيقيًا، وصاحب قلب كبير.

اتّصل بي أخيرًا، بعد ذهابه إلى بيته، وقال إنّ نقاشنا ذاك أثّر فيه وأقلقه، وإنّه يرغب في إيجاد مُحكّم بيننا، وإنّه سيلتزم بردّات فعل المحكّم. فوافقت. اقترح عدّة أسماء رفضتها جميعًا، وحين طلب منّي تحديد اسم محكّم أختاره، قلت من دون تردُّد: نوال السعداوي. فوافق فورًا، إذ كان كتابها **المرأة والجنس** قد أحدث صرخة مدوّية عربيًا وعالميًا، وكان حلمي مراد ممّن يتبنّون بعض أفكار السعداوي التي تختصّ بتحرير المرأة، ويتحمّس لها.

وللحقّ والحقيقة، كان موقف نوال السعداوي مشرّفًا ومشجّعًا إلى أبعد حدّ، إذ وقفت معي ودافعت عن الرّواية بكلّ قواها، وتبنّتها، بحسب قول حلمي مراد، وتبنّت ما فيها من طروحات صادمة صداميّة بحماسة منقطعة النّظير، بل إنّها اتّهمت حلمي مراد بما كنت اتّهمته أنا به، وهو أنّه دقّة قديمة. قال ذلك وهو يبتسم بحيرة وخجل، لكنّه قال إنّه ملتزم بما تعهد وسيعمل على نشر الرواية، لكنّه رفض توقيع عقد رسميّ، وترك الأمر معلّقًا من دون التزام. وللحقّ، فقد عمل فيما بعد على إعداد الرواية للنشر وأرسل إليّ البروفات لأصحّحها، لكنّي كنت قد تعاقدت مع دار نشر أخرى وأبلغته بانسحابي فأثرت غضبه. لكنّه كان متسامحًا وسريع الصّفح بدليل أنّه استقبلني في بيته بعد ذلك، وظلّ يؤكّد للحاضرين أنّ له الفضلَ في اكتشافي، وأنّه ما زال عند توقّعاته، وأنّي سأكون مستقبَلًا «فرخة بكشك»

تركت القاهرة وحلمي مراد وروايتي ما زالت معلّقة من دون التزام، وقرّرتُ الذهاب إلى بيروت لإيجاد بديل، وقد فعلت ذلك بعد بضعة أشهر. أخذت معي ثلاث نسخ، واحدة قدّمتها إلى اتّحاد الكتّاب والصحافيّين الفلسطينيّين المنبثق عن منظمة التّحرير الفلسطينيّة، وقدّمت الثانية إلى الدكتور سهيل إدريس مؤسّس «دار الآداب» المعروفة ومديرِها، واحتفظت بالثالثة في عمّان خوفًا عليها من الضياع. ارتمت نسخة اتّحاد الكتّاب والصحافيّين الفلسطينيّين في أحد الجوارير المنسية لأكثر من ثلاث سنين، وضاعت نسخة «دار الآداب» في زحمة الحرب الأهليّة اللبنانيّة وخروجِ الدكتور سهيل إدريس من بيروت ولجوئه إلى الجبل. وحين اتّصلت به بعد عدّة أشهر للسُؤال عن الرّواية، وكان ما زال في الجبل، قال إنّه سلّمها إلى محمود درويش ليعطي رأيه فيها لأنّه خاف تحمُّل مسؤوليّة نشر مضامينها الشائكة، وإنّ محمود درويش لم يبلغه رأيه فيها حتّى تلك

السَّاعة. قرَّرت حينذاك أن أسحب نسخة الرِّواية من اتِّحاد الكتَّاب وأقدِّمها إلى دار نشر أخرى، كما نصحني بعض العارفين، إلَّا أنَّ الرِّواية كانت قد اختفت، ولم يتمكَّن أحد ممَّن استجرتُ بهم من إيجادها في أيّ جارور أو مخزن. فعدت إلى بيرزيت بخفَّي حنين، وأنا يائسة بائسة وبقلب محتقن يتخبَّط.

استوقفني أستاذي الشابُّ، سليم تماري، في اليوم التَّالي من وصولي إلى بيرزيت، وقال إنَّه كان يبحث عنِّي في كلّ مكان من أجل مشروع غاية في الأهمِّيَّة، يتعلَّق بنشر روايتي بثلاث لغات عن طريق دار نشر فرنسيَّة ـ إسرائيليَّة. توجَّستُ خيفةً من ذكر الإسرائيليِّين، فطمأنني وشرح لي أبعاد المشروع بحذافيره. وقال إنَّ بعض اليساريِّين الإسرائيليِّين ممَّن يتعاطفون مع قضيتنا ويؤمنون بضرورة التفاهم والتعايش بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي وإيجاد حلّ مُرضٍ لقضيَّتنا الفلسطينيَّة، أسَّسوا دار نشر تقوم بترجمة أعمال جادَّة ونشرها وتسويقها لكتَّاب عرب ويهود ذوي اتِّجاه إنساني تقدُّمي يشرح قضايا الشعبين بشكل فنِّي، لاعتقادهم أنَّ الأدب والفنّ أكثر قدرةً على التواصل والتوصيل من البيانات السياسيَّة والنشرات الحزبيَّة، وأنَّهم قَدِموا إلى بيرزيت للبحث عن أعمال تصلح لذاك الغرض. وكان اليسار الإسرائيلي، في ذلك الوقت، ما زال في عنفوانه وحُسن سيرته، بالتعاون مع بعض اليهود الفرنسيِّين اليساريِّين، وبعض أساتذتي ممَّن قرأوا **الصبَّار** كمخطوطة، ومن بينهم سليم تماري، والدكتورةُ حنان عشراوي، أشاروا عليهم بالاطِّلاع على **الصبَّار** والبدء بنشرها كفاتحة للسلسلة التي تنوي دار النشر إنتاجها. وقد تمَّ ذلك بالفعل، إذ إن ممثلَي جاليليو: إيلان هاليفي الذي عمل فيما بعد في وزارة الخارجيَّة الفلسطينيَّة حتَّى وفاته، وكاترين ليفي، وهي كاتبة وناشطة سياسيَّة فرنسيَّة كانت تعيش في باريس ولها اهتماماتٌ وامتدادات ثقافيَّة وعلى صلة بمثقَّفين وأكاديميِّين عرب ممَّن يعملون ويعيشون في فرنسا، قرَّرا في أثناء غيابي، نشرَ **الصبَّار** بثلاث لغات: العربيَّة والعبريَّة والفرنسيَّة، وهما ينتظران عودتي لتوقيع العقد.

وقّعت العقد، بتشجيع من أساتذتي، وأنا شبه نائمة من التعب وانشغال الفكر والريبة. إذ إنَّ أيّ شيء ذي صبغة إسرائيليَّة يثير ريبتي حتَّى لو كان يتعلَّق بمن يتعاونون ويتعاطفون مع منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة. ففي ذاك الوقت، ما كنت قد بلورت قناعاتي بعدُ ولا اتَّخذت لنفسي خطًّا واضحًا أستمدّ منه قراراتي. غير أنَّ حماسة أساتذتي شجَّعتني

إلى حدّ ما، ولكنّي حين أمسكت بالقلم لأوقّع، أحسّست بغلالة من ضباب وحيرة يغلّفان رأسي. ولولا وجود د. تماري معي لهربت من الموقف أو تهرّبت. ولم أكن أعلم بأنّ ذاك التوقيع سيكون المدخل لانتشار أدبيّ خارج الحدود العربيّة. لكنّي، كما قلت، كنت ما زلت صغيرة، لا أقصد عمرًا، بل وعيًا وتجربةً واتّساعَ منظور ورؤيا.

أخذت كاترين ليفي المخطوطة وسلّمتها إلى علَمين بارزين من أعلام الثقافة الفرنسيّة العربيّة في باريس، وهما الناقدة والكاتبة المصريّة الدكتورة أمينة رشيد والشاعرُ الجزائريّ بن شيخ، وكانا يعملان في التدريس في الجامعات الباريسيّة في ذلك الوقت. قرآ المخطوطة وأعجبا بها ووافقا على ترجمتها بالتعاون مع كاترين ليفي نفسها. وحين انتهى الثلاثة من ترجمتها، عرضوها على دار النشر الباريسيّة غاليمار، وهي الأشهرُ والأكبر، ليس في فرنسا فحسب، بل في أوروبا. ولدهشتهم وسعادتهم، وافقت غاليمار على نشرها. وحين بلغني الخبر لم أسعد ولم أنفعل لأنّي كنت أجهل قيمة ومغزى أن تنشر دار نشر فرنسيّة كبرى لكاتبة فلسطينيّة مبتدئة مثلي. ولم أفهم حقيقة الوضع إلّا حين زرت فرنسا بعد ثلاث سنوات بالصدفة، وبشكل غير مبرمَج، فاستُقبلت هناك استقبالًا لم أكن أتوقّعه أو أحلمُ به. كانت الرّواية قد حقّقت نجاحًا منقطع النّظير، وطارت شهرتها بين دُور النشر الأوروبيّة، وبدأتُ أتلقّى العروض لنشرها في كلّ اللُّغات. ولم تتوقّف تلك العروض منذ ذلك الحين، ولو أنّها قلّت كثيرًا بعد اتّفاقية أوسلو، وشبه انعدمت بعد ما ألمّ بالعالم العربيّ من تشرذم ودمار في إثر انتشار الفكر الإسلاميّ المتشدّد وسطوةِ الجماعات الإرهابيّة التي كرّهَتْ العالم بنا وأنقصت تعاطفه مع قضايانا، وبالذات القضيّة الفلسطينيّة، التي أُهمل ذكرُها تمامًا، وضاعت أهمّيّتها التاريخيّة في لجج العنف، وغرقت في بحر راكد يجلّله الغموض.

الشهادة فالوظيفة

عدتُ بعد توقيع العقد إلى دراساتي الأكاديميّة من أجل الحصول على شهادة تؤهّلني لشغل وظيفة، أي تحقيق هدفي الثاني الذي يوفّر لي الاستقلال المادّيّ والتحرّر الشخصيّ. وقد فعلت ذلك. لكنّي وُوجهت بمشكلة جديدة، إذ إنّ مكتب التّسجيل اكتشف وجود نقصٍ ساعةٍ أكاديميّة واحدة في عدد الساعات المعتمَدة، وأبلغوني بأنّي لن أحصل على البكالوريوس ما لم أستكمل الساعة المطلوبة. أصبت بالفزع، فقد كنت أتعجّل الحصول على الشهادة، فالوظيفة، وتحقيقِ حلم كان يراودني منذ سنين. أسعفتني بالحلّ د. حنان عشراوي، وكانت مدرّستي ومستشارتي الأكاديميّة، إذ أشارت عليّ تقديم الصبّار بديلًا عن السّاعة الأكاديميّة النّاقصة، وبذلك أحصل على الشهادة فورًا من دون العودة إلى الدّراسة. وافقت إدارة الجامعة على الاقتراح بسرور، إذ كان معظم الإداريّين، بمن فيهم رئيس الجامعة، قد قرأوا الصبّار وتحمّسوا لها واعتبروها إنجازًا جماعيًا جامعيًا، وليس فرديًا فقط. ولكنّهم اشترطوا أن أحصل على تقييمين رسميّين من دائرة اللّغة الإنكليزيّة التي أنتمي إليها، وأيضًا من دائرة اللّغة العربيّة، لأنّ الرواية مكتوبة باللّغة العربيّة. بدأت، حينئذ، بصراع جديد مع رئيس دائرة اللّغة العربيّة الذي قيّم الرّواية بمستوًى متدنٍّ للغاية، إلى درجة أنّه منحها علامة دال، أي علامة سقوط. فقامت قيامتي، ودخلت في نقاش عقيم معه، وعاملني بفوقيّة واستهزاء، وسخر بروايتي وكتب فيها تقريرًا غايةً في الضحالة والسّخف، إلى درجة أنّه بدأه بقوله: «هذه الرّواية من القَطع المتوسّط غير محلّاة بالصّور والرسوم والزّخارف... ومليئةٌ بالسّباب والألفاظ البذيئة والمصطلحات السوقيّة، وكلُّ شخصيّاتها إمّا منحرفةٌ وطنيًا وإمّا من مستوًى اجتماعيّ رديء...» إلخ، إلخ، إلخ، ما جعلني أوجّه إليه اتّهامات مشابهة لما وجّهته إلى الأستاذ حلمي مراد، إلّا أنّ رئيس دائرة اللّغة العربيّة، وكان متخصّصًا بالتراث الفلسطينيّ، كان تراثيًا بالفعل ويفتقر إلى رحابة صدر الأستاذ حلمي مراد، وأصرّ على منحي علامة السقوط على الرّغم من محاولات د. حنان عشراوي اليائسة في تغيير موقفه أو تليينه. وحين شكوت أمري إلى الإداريّين المعجبين بالرواية، التزموا الصمت تعبيرًا عن موقفهم المُحرَج، والذي يتطلّب منهم عدم التدخّل في تقييمات الأساتذة الأكاديميّة. وللخروج بحلّ وسط يُرضي الجميع، ارتأوا أن يجمعوا علامة د. عشراوي وعلامةَ رئيس دائرة اللّغة العربيّة ويقسموهما على اثنين، وبذلك نلت على

الصبّار علامةَ نجاح على الحافّة، وكانت أقلَّ علامة حصلت عليها طوال فترة دراستي الأكاديميّة في جامعة بيرزيت. وكان ذلك أوّلَ درس أتلقّاه بهذا الخصوص، إذ تعلّمت وتيقّنت من أنّي لن أواجه رجعيّين ومتخلّفين وحاقدين سياسيّين اجتماعيّين فقط، بل نقّادًا وأكاديميّين شبهَ أميّين سياسيًا واجتماعيًا ومعرفيًا. وهؤلاء، في رأيي، مَن لهم الفضلُ في انحدار مستوى التّعليم لدينا، وحشوِ النشء بمعلومات عديمة النفع على حساب مضامين تفتح أذهانهم على مفاهيم العصرنة والتّحديث.

إلّا أنّ **الصبّار** استمرّت في إثارة الرأيين العامّين الفلسطينيّ والعربيّ، ولم تبقَ صحيفة فلسطينيّة أو عربيّة إلّا وكتبت عنها إمّا مدحًا وإمّا قدحًا. وتلقّيت بفضلها العديدَ من الدّعوات إلى مناقشتها أو الاحتفاء بها. وفي كلّ الدعوات التي لبّيتها كنت أواجَه بمتحمّسين منفعلين أو منتقدين شرسين يتحدّثون عن الرواية كأنّها غزو أو مَرَض مُغِدٍ يهدّد المجتمع الفلسطينيّ والأمّة العربيّة بأكملها. وكان المتحمّس أو المنتقد يقف وسط القاعة ويبدأ بتوجيه المديح أو الانتقادات الحادّة إليّ وإلى الرواية ويستعرض قدراته اللّغويّة والسياسيّة على حسابي، ولا يتوقّف إلّا حين يتذمّر الحضور، أو يوقفه مدير الندوة عن الاستمرار في الوعظ والاستعراض. وكنت أتساءل، وأنا أراقب أوداج المنفعلين وتشدُّقاتهم الاستعراضيّةَ بصمت: لو كنت رجلًا، فهل كانوا يستوطون حيطي بهذا الشكل؟ لو كنت عضوًا في تنظيم من التّنظيمات السياسيّة العسكريّة، فهل كانوا يتمادون بهذا الشّكل؟ لو كنت أستاذة جامعيّة من حملة الدكتوراه في أيّ موضوع لا يمتّ بأيّ صلة إلى المواضيع والأجواء الاجتماعيّة السياسيّة الاقتصاديّة التي أطرحها، أما كان المتنطح يحسب ألف حساب ويبادر إلى مسح الجوخ لصاحبة المنصب والشهادة، كما أراهم يفعلون في كلّ الندوات والمنتديات؟ والغريب والمؤسف، أنّ ما خبرته في الأجواء الأدبيّة والأكاديميّة الأجنبيّة مختلفٌ تمامًا عمّا خبرته في أجوائنا العربيّة، إذ يستمع الحاضرون هناك إلى ما يُناقَش أو يُعرَض باهتمام، وحين يناقشون يتوجّهون بأسئلتهم وتعليقاتهم بحياديّة واحترام. وفي الغالب، حتّى لو كان المتسائل أو المعلّق أستاذًا جامعيًا متخصّصًا، أو كاتبًا معروفًا وله كتاباتٌ وأبحاث مشهود لها بالتميُّز، فإنّه لا يسترسل في التعقيب مدحًا أو ذمًّا، بل يتساءل بأدب، وبلهجة مَن يريد الاستزادة من المعرفة وليس استعراضَها، كما يفعل الكثيرون في الندوات والمنتديات العربيّة. وربّما أفضلُ مثال على ما كنت أواجهه من استعراضات وما يتخلّلها من تناقضات ونوادرَ، الندوةُ التي دُعيت إليها في غزة، إذ إنّني، بسبب ما كنت

مررت به من مواقفَ عديدة محرجة، اشترطت على الدَّاعين ألَّا أفتح فمي بكلمة وأن أستمع بصمت إلى ما يقال في **الصبَّار**، وإلى المواضيع التي تُطرَح، حتَّى أتعرَّف إلى ردَّات فعل القرَّاء وأتعلَّمَ. ولطرافة تلك الندوة، سأقصَ ما حدث خلالها ببعض الإسهاب لأنَّها تعكس ما كان يدور في تلك الأيّام، وحتَّى هذه الأيّام، إذ إنَّ عاداتنا في الاستماع والنقاش والاستعراض لم تتغيَّر، بل زادت، وأصبحت أكثر حدَّةً وشراسة مع انتشار الفكر الغيبيّ المتزمِّت، ووصولِه إلى الجامعات والمنتديات، وحتَّى النقابات.

استقبلني، في غزَّة، أعضاءُ اللَّجنة الثقافيَّة لذلك المنتدى الأدبيّ استقبالًا مشجِّعًا جدًا، وأشعروني بأنِّي قمت بعمل أدبيّ وطنيّ يشار إليه بالبَنان فارتاح بالي. وأجلسوني بعد شرب العصير والقهوة على منصَّة في ملعب كرة قدم، محاطةً بعدد من الأدباء الغزيِّين المرموقين أمام حشد هائل من القرَّاء والمشاهدين. كان الاجتماع أشبه بمظاهرة وليس لقاءً أدبيًا ثقافيًا بسيطًا، فانشرحت وأحسَّست بالامتنان، لأنِّي ظننت أنَّ كلَّ هؤلاء يشبهون أعضاء اللَّجنة الثقافيَّة بالاهتمام والتجاوب والتَّقدير. إلَّا أنِّي أصبت بإحراج لا مثيل له حين بدأ خطيب الحفل ومديرُ الجلسة بتقديمي بأسلوب بعيد كلَّ البعد عن الأسلوب البسيط المتواضع الذي قدَّمتُ به نفسي من حيث المظهرُ والمحضر. كنت ألبس بنطالًا كتانيًا وقميصًا رجاليًا بكمّين مرفوعين ومن دون رتوش على الإطلاق. كنت أحاول أن أبدوَ مثقَّفة ثوريَّة تجاوزت الطقوس الأنثويَّة التقليديَّة ومفاهيمَها. لكنِّي فوجئت بالخطيب يجلجل وراء الميكروفون بعبارات ملأتني بالدهشة والخجل، فطأطأت رأسي وتمنَّيت لو تبتلعني المنصَّة. كان يصيح بأعلى صوته: بسمة فلسطينيَّة، نسمة فلسطينيَّة، زهرة فلسطينيَّة، شوكة فلسطينيَّة، ثورة فلسطينيَّة، عاصفة فلسطينيَّة... ثمَّ ألقى قصيدة حماسيَّة فيها الكثيرُ من الغزل الوطنيّ للمرأة الفلسطينيَّة الخارقة، والذي بدا كأنَّه موجَّه إليَّ وحدي، مع أنِّي كنت قد قرأت تلك القصيدة الانفعاليَّة في مكان ما ولم أعجب بها، لكنَّها هناك، وأمام ذاك الحشد في ملعب كرة القدم، بدت كأنَّها كُتبت لي، لي وحدي. وحين انتهى، صفَّق الجمهور بحرارة وهم يتطلَّعون إليَّ، فقد كانوا يتوقَّعون أن أقول شيئًا حماسيًا مشابهًا لما قيل. حينذاك، لم أجد بدًا من أن أقول شيئًا كي أنزل بالجوّ على الأرض، فأهدِّئ من غلواء التوقُّعات، فقلت بالعاميَّة، وببساطة، وأنا أبتسم للخطيب المنفعل والجمهور المتوقِّع: «ما ترذُّوا عليه. أنا إنسانة عاديَّة، بسيطة، بحاول أقدِّم شيء. مرَّات بنجح، ومرَّات بفشل. وهذا شيء طبيعي، ولازم نفهم أنَّ كلّ الكتَّاب هيك. وكلّ كاتب له شطحاته، وشطاراته، وتياساته.

واعذروني إذا أخفقت أحيانًا وتتايستُ». ضحك الجمهور وصفَّق فاسترحتُ، وعدت إلى صمتي.

قفز واحد من بين الحضور من دون أن يرفع يده أو يستأذن، وكان رجلًا في الخمسينيَّات، ممتلئَ الجسم إلى درجة السُّفنة، وله صَلَع خفيف ووجهٌ يلمع، ويلبس بدلة وكرافة، وصوتُه جهوريّ، فاستوقفه الخطيب وقدَّمه بإجلال وتملُّق، عرفت منهما أنِّي أمام مدير التربية والتعليم في غزَّة، فارتعشت وتذكَّرت رئيس دائرة اللُّغة العربيَّة في بيرزيت، لكنِّي رسمت على وجهي ابتسامة تقدير وانتظار، فبادرني بقوله موبِّخًا: لا، يا سيِّدتي، الكاتب إنسان غير عاديّ. الكاتب كذا، والكاتب مذا... وأسهب في وصف ما للكاتب من مزايا عُلويَّة تفوق ما يتمتَّع به البشر العاديُّون من صفات. ثمَّ بدأ هجومًا شرسًا لأنِّي أخفقت إخفاقًا ذريعًا في توصيف قيادة الطبقة العاملة وتصويرها، فقيادة الطبقة العاملة واعية ومحترمة وتعرف واجباتها ومسؤوليَّاتها تمامًا، كما قال، وهي من تقود هذه الطبقة إلى النصر والقضاء على الفساد والاحتلال. فأين ما صورته **الصبَّار**، وأين الواقع؟!

وانتظر مدير التربية أن أردّ عليه، لكنِّي لم أجب، بل بقيت أتأمَّل تعابير وجهه، وأتذكَّر ما كتبته في **الصبَّار** عن شبيه له يبادر «بإلقاء خطبة مليئة بشتَّى العواطف والانفعالات، خطبة تهتزّ لها أضلع ذوي الشانات في مؤتمرات العواصم العربيَّة.»

تبرَّع أحد الكتَّاب الشباب وأسعفني بالتَّفسير، حين طال الصَّمت ولم أجب، فقال: عجزت الطبقة البرجوازيَّة، التي هي نحن، عن قيادة الطبقة العاملة والطبقة غير العاملة. ثمَّ أين هي الطبقة العاملة؟ أصلًا، الطبقة العاملة لدينا ليست مبلورة، وهي أقرب إلى الفلَّاحين الأميِّين منها إلى العمَّال المدرَّبين، كما أنَّها غير واعية، ولا تملك نقابات تدافع عنها، ولا قيادةً قريبة منها لتتفهَّم مشاكلها... وأسهب أيضًا في الوصف والتَّفسير، فابتسمت وارتحت، وواظبت على السكوت.

لكن مدير التربية والتعليم لم يهدأ، فصرخ وهو يهزّ كفَّه في وجه الكاتب الشابّ ووجهي: «كما أنَّ **الصبَّار** فيها تكريسٌ للجنس». نطقتُ حينذاك وقلت بدهشة: أعطِ أمثلة! وفتحت أذنيّ وعينَيّ وفمي في انتظار الأمثلة. فقال مدير التربية موبِّخًا باشمئزاز يصل إلى حدّ التهديد: باسل المراهق لا يمكن أن يفكِّر في البيضة المسلوقة بتلك الطريقة الجنسيَّة المشينة التي وصفتِها. كما أنَّ زهدي البروليتاريّ لا يمكن أن تكون نظرته إلى الحياة بتلك الحيوانيَّة التي وصفتها بقولك «لقمة وفرشة وهذا، هي

كلّ ما يطلبه أمثالي من الطيّبين.» والفدائيّ السوريّ لا يمكن أن يُعجَب بامرأة ويتزوّجها لأنّه أعجب بفخذيها المضيئين كالبلّور. وتوقّف عن الصراخ في انتظار الردّ، لكنّي لم أجب، بل بقيت أتأمّل شكله المكبوت وأتخيّله في كلّ المواقف التي خبرتها كامرأة شرقيّة، وأتساءل في داخلي عن الكيفيّة التي يُعجَب فيها رجل مثله بامرأة في مجتمع كمجتمعنا، لكنّي واظبت على الصّمت وأنا أتأمّل وجهه وأبتسم بصبر. تبرّع حينذاك آخرون بالردّ وحاولوا تفسير ما قلت وترقيعَ الموقف، وبعضهم استثارهم سكوتي فاستثيرت نخوتهم وبدأوا يدافعون عن الأنثى المستضعَفة فيّ، ولم يدافعوا عمّا كتبتُ، فابتلعت مهانتي وضحكت، وبدأت ألقي القفشات والتعليقات المقتضبة هنا وهناك، فانبسط الجمهور وصفّقوا لي. وحين رأى مدير التعليم تحيُّز الجمهور إليّ على حساب أحكامه وأخلاقيّاته، احمرّت جبهته وأذناه، لكنّه ظلّ واقفًا، فوجّهت نظري وتعليقي إلى واحد ممّن دافعوا عنّي بشهامة، وقلت بدلال: كلّك نظر، يسلم تمّك، هيك الناس اللّي بفهموا. والتفتُّ إلى مدير التربية والتعليم وغمزت بعيني فاستثيرت فحولتُه وشدّ قامته ووجهُه يطفح بالتحفُّز وعيناه تلمعان، وقال كلامًا كثيرًا رفعني فيه إلى السّماوات بعدما كان قد أنزلني إلى الأرض. وأنهى مرافعته بقوله: كلّ ما أشرنا إليه من مآخذ ليس أكثر من إشارة إلى النمش في وجه القمر. وانتظر أن أبتسم له أو أضحك كما فعل الجمهور، لكنّي لم أفعل. ومن يومها وأنا أعرف أبعاد معظم اللّقاءات الأدبيّة في بلدي وأهدافَها ونتائجها، وأحسب للندوة أو الدّعوة ألفَ حساب.

ومع ذلك كلّه، استمرّت **الصبّار** في لفت النّظر والسّباق على نشرها من قبل عدة دُور نشر عربيّة، بإذن أو من دون إذن منّي، وكذلك فعل اتّحاد الكتّاب الفلسطينيّين في بيروت بعد إهمالها في الدُّرج المنسيّ لعدّة سنوات. وفي استطاعتي القول إنّ **الصبّار** هي التي فتحت لي الطريقَ إلى دُور النشر الأجنبيّة، بحيث تتالت العروض عليّ من بعدها لنشر بقية أعمالي بلغات لم تكن تخطر لي في بال، مثل الروسيّة والعبريّة والإندونيسيّة والكوريّة، بالإضافة إلى اللّغات الأوروبيّة المعروفة، كما هيّأتني للحصول على جوائزَ عربيّة وعالميّة.

أشباحُ الماضي من جديد

كانت جامعة بيرزيت، في ذاك الجوّ المفعم بالإثارة والغليان، تجذب أنظار الثوريّين وقد أصبحت محطّ أنظار الإعلام، عربيًا وعالميًا، على حدّ سواء، وعوّضتني إدارتها عن «سقوط» **الصبّار** بأنْ وظّفتني رئيسةَ تحرير مجلة الجامعة والمسؤولة عن الإعلام بعد أن منحتني ثقتها، وكذلك فعلت لجنة تحرير المجلّة، وكلّ من زار الجامعة من صحافيّين وكتّاب وأغلام. وأهمّ من هذا وذاك، بتُّ موظّفة ذات أجر معقول أستلمه في نهاية كلّ شهر فأشعر بالعزّة والاستقلال. وذلك كلُّه مضاف إليه جلوسي وراء مكتب جميل في غرفة مميّزة تقع في مدخل بناء الحرم القديم، أستقبل فيه لجنة تحرير المجلّة من الطلبة المبدعين، والأساتذة، والصحافيّين.

في ذلك الجوّ، في يوم ما، وأنا في عزّ نشاطي وحماستي وإحساسي بالثقّة والاستقرار، فوجئت بزيارة جعلت رأسي يدور وكاد يغمى عليّ. دُفع بابُ المكتب وكان شبهَ مغلق، ومن دون طرقات مؤدّبة وكلمات استئذان كما جرت العادة، وإذا بأبي وخلفه زوجي يدخلان ويقفان أمامي مباشرة، وسط المكتب، وهما صامتان، من دون توجيه أيّ كلمة، ولا حتّى التحيّة التقليديّة «صباح الخير»، أو «مساء الخير»، أو حتّى «مرحبًا» خفيفة كما اعتدنا، وعينا أبي تحدّقان فيّ للحظات ثمّ تدوران في أنحاء المكتب تتأمّلان الصُّور والملصقات الجداريّة والإعلانات، وعينا زوجي تنظران إلى الأرض وقد رسم على وجهه تلك النظرةَ المستكينة شبهَ الخجلى التي لطالما غرّرني بها، وغرّر أهلي، وأنا أرقبهما بدوري وقلبي يدقّ ورأسي يدور. استمرّت تلك الوقفة لحظات خلتها أجيالًا وأنا بين مصدّقة ومكذّبة، مندهشة ومذعورة إلى أبعد حدّ، إذ أرى أمامي في ذلك الجوّ الفسيح المنير شبحي الماضي المظلم يعودان إليّ ليهدّداني ويعذّباني كما فعلا طوال سنين. وهما أكثر رجلين مرمراني وتركا في قلبي جروحًا لم ولن تندمل على مرّ السنين. جاءا إليّ وأنا في عزّ عنفواني وإحساسي بالنصر، ليؤكّدا لي أنّ هروبي كان مجرّد جنحة، وأنّ نجاحي ليس أكثر من حلم أو وهم من الأوهام. لكنّي، ولا أعرف كيف، أُصبت بهبّة مفاجئة أيقظتني وذكّرتني بأنّي الأقوى لأنّي أصبحت مستقلّة، ذاتَ وظيفة، وذات شهادة، وذات راتب شهريّ، وكاتبةً معروفة، وشخصيّة مرموقة في محيط الجامعة ودنيا الإعلام. فقمت من وراء مكتبي، ورسمت على وجهي ابتسامة دبلوماسيّة كما لو كنت أقابل زائرًا غريبًا لا أعرفه، ومددت يدي مصافحة وأنا أقول بلهجة رسميّة:

ـ أهلًا وسهلًا شرفتم، أهلًا بابا، أهلًا يا فلان.

وأسرعت إلى التلفون أطلب لهما قهوة وأنا أشير إليهما بالجلوس.

وبدأت أشرح لهما عن مشاريع الجامعة وأنشطتها، من دون سؤال أو جواب، وأشير إلى الحائط خلفي حيث ضوَرُ مبنى الحرم الجديد الذي سننتقل إليه والذي سيستوعب ضعف عدد الطلَّاب الحاليِّين، ولي فيه مكتبٌ أكبر من هذا بكثير، وسيتضاعف عدد صفحات المجلَّة الجامعيَّة التي أرأس تحريرها، وسيتضاعف راتبي، وقد أحصل على بعثة دراسيَّة إلى الخارج وأعود بالماجستير أو الدكتوراه، وأصبح أستاذة جامعيَّة، وأيضًا كاتبة مشهورة أكثر من الآن بكثير.

تعمَّدت وأنا أتكلَّم، أن أوجِّه كلماتي إلى أبي وحده، ولا أنظر بتاتًا إلى وجه زوجي، مَن كان سجّاني وقابضَ روحي، ربَّما لأنِّي ربئت من النَّظر إلى وجه لطالما نفرت منه، أو لأنِّي ما عدت أحس بأنَّ له وزنًا أو قيمة وبات ذبابة، أو لأنِّي أردت معاقبته والنَّظر إليه من فوق وهو من تحت. لا أدري، المهمّ أنِّي لم أنظر إلى وجهه ولا نظرةً، وظلَّ هو جالسًا كتلميذ مؤدَّب وقد وضع كفَّيه بين ركبتيه.

لم يكن أبي في البداية يهزّ برأسه، ثمَّ بدأ يفعل. وأنا أخذتني الحال واستفضت في الشرح، مقارنةً بين موقفه الحالي في تلك اللَّحظة، وموقف آخر له مررت به وأنا في سنتي الثانية من دراستي الجامعيَّة. ففي ذلك الموقف، قبل ثلاث سنين، كان قد عزمنا أنا وأخواتي الخمس، كي يعرّفنا رسميًا إلى زوجته المصون. كان قد مرَّ على زواجه عدَّةُ سنوات وبدأ الجوّ يصفو، أو هكذا كان المقصود، فأطعمنا من أكل زوجته المفنَّنة أكلًا لذيذًا متعوبًا عليه، وسفرة أنيقة، وهي ستّ البيت الغندورة تروح وتجيء أمامنا بكعب عالٍ لبابوج لمَيع يدقّ الأرض كما الهاونُ، وفستان شيفون يهفهف ويطير حول ساقين جميلتين، وأرض تهتزّ. وبعد الغداء مباشرة، ونحن نشرب القهوة، باغتني بسؤال غريب هزّ بدني: متى تنوين العودة إلى بيتك وزوجك؟ قلت بدهشة: أنا أعود إلى ذلك النصَّاب؟ قال بلهجة حاول أن تبدو محايدة: ما عاد نصّابًا، انصلحت حالُه. قلت بدهشة: هذا المقامر المدمن انصلحت حالُه؟ هزَّ رأسه عدَّةَ هزَّات وعاد يؤكِّد: انصلحت حاله، هو وعدني، ما عاد يقامر أو يلعب. قلت بغيظ: كم مرَّة وعدك وعاد إلى اللَّعب؟ ثمَّ أضفت الكثير وأنا أذكّره بما كان، وكم مرَّة سدَّد عنه ديونه، وكيف اشترى لي العصمة كي أنقذ نفسي منه. وأنهيت قولي بأنِّي الآن طالبة جامعيَّة، وعلاماتي كلُّها فوق التسعين. سخر بي وبعلاماتي

وبجامعتي، وقال مستهينًا: بلا جامعة بلا علامات وحكي فاضي. مش أحسن تنضبّي في بيتك بدل ما تظلّي دايرة بين الشوفيريّة والزعران؟ وكان يقصد المواصلات التي أستخدمها والركّاب الذين أجاورهم كلّ يوم في طريقي من نابلس إلى بيرزيت، أو ربّما ليعيّرني بوضعي غير المألوف وغير المناسب لواحدة مثلي، ابنة عيلة، تلبس الجينز كما المراهقون أو الصعاليك، وتضيّع الوقت في مشروع سخيف، محض أوهام.

قلت بحدّة: تعتبر العلم والتعلُّم حكيًا فاضيًا؟ فقال بحدّة أكبر: مش شايفة حالك كيف صرتِ؟ لبس مبهدل وشعر منفوش وشكل مخزي. لازم ترجعي لزوجك وتنضبّي. وقفت وأنا أهمّ بالخروج من داره ومن أجوائه، وقلت بغيظ وغضب مكتوم: أنا أقرّر حياتي كما قرّرتَ أنت حياتك. لو كنت مكانك لا أحكي ولا أتدخّل. أنت قرّرت، وأنا أقرّر ولا أحد له الحقّ بعد الآن في أن يتدخّل في حياتي. وخرجت بسرعة حتّى لا أسمع ردّه.

والغريب العجيب أنّ أبي في تلك اللّحظات، وهو في مكتبي، يستمع إليّ ويهزّ برأسه، وأنا أشرح مشاريع الجامعة وأنشطتي. لم يقل لماذا جاء وبرفقته ذاك المقيتُ، إذ شرب القهوة بصمت تامّ، ثمّ وقف من دون أن يقول أيّ كلمة، وصافحته وصافحت الآخر عند الباب، وعدت إلى مكتبي وأنا أحسّ بأنّي طويت آخر صفحة من ماضٍ رهيب.

في ذلك الجوّ، وأنا أحسّ بأني انتصرت على الماضي، بما فيه من ضعف واتّكالية وإذلال، مررتُ بحادثة ذكّرتني بأنّ ما قمت به من مغامرات وتضحيّات ليس مثالًا سهل التطبيق، وأنّ الكثيرين والكثيرات، وبالذات الكثيرات، لا يستطعن القيام به ربّما خوفًا من الفشل، أو الخسارة، أو لأنّ النّساء منهم تحديدًا يفضّلن حياة الكسل والاسترخاء. وهذا ما وصفته في روايتي اللّاحقة **مذكرات امرأة غير واقعيّة**، إذ تقول عفاف، أي البطلة:

كلّما اشتدّ الفراغ ازددتُ فراغًا على فراغ. ما عاد رأسي يدور إلّا داخل ثقب إبرة. وكلّما أمعنتِ الأيّامُ في سحقي ازددتُ خنوعًا. واتّسم الخنوع بملامح الرضى فبتُّ راضية ولا أطلب من اللّه إلّا المزيد. وباتت محاسن زوجي تتكشّف، فلمت نفسي على قِصَر النّظر. فإذا أحضر شيئًا جديدًا للدار حمدت اللّه أنّه ليس بخيلًا. وإذا توقّف عن السهر بضع ليالٍ متتاليات حمدت اللّه أن باتت حياتنا مستقرّة. وإذا أمرني أن أقوم بعمل سخيف حمدت اللّه أنّه بات يعتمد عليّ في كلّ صغيرة وكبيرة. وتمرّ أيّام وأنا في أجمل حالٍ وأهدأ بال. وتنمسح من ذاكرتي كلُّ المساوئ وتصبح مجرّدَ شبح أطرده بإصرار وهمّة. فإذا ما عاد زوجي إلى طريقته أصابتني صدمةٌ فادحة وحمّلت نفسي مسؤوليّة الانحراف. وأقول لنفسي: لو لم تكوني يا عفاف عقيمًا لامتلأ البيت صخبًا ولشدّة الأولادُ إليك. لو لم تكوني يا عفاف سقيمةً لما سئم أجواءك المملّة. لو لم تكوني يا عفاف قبيحة لما هَفَت نفسه لغيرك. وفي محاولة يائسة لإصلاح ما أفسده الدّهر أبدأ بتجميل البيت وتجميل نفسي. أقلب البيت عاليه سافلًا فأغسل الزجاج باللّيف والصابون حتّى يصبح كالألماس، وأنحت البلاط حتّى يصبح كالمرآة، وأملأ النوافذ وحفاف البلكون باللّحف والبطّانيّات ومخدّات الإسفنج، ومخدّات القطن وأشمّس بذلاته حتّى يتصاعد منها البخار. وأنزل للسوق وأشتري اللّحم والخضار وأتفنّن في انتقاء الأكبر، والأنضر والأطزج. هذا خيار ما زال يحتفظ بمساماته النّاتئة، وتلك بندورة نصفها أحمر والنصف الثاني ما زال أخضر، وبطاطا رائعة كالبدر في يوم اكتماله، وبامية وفاصوليا وقرنبيط وفجل. وأعود إلى الدار مزدهية بخضرتي وثلّاجتي المليئة بالخيرات وأحمد اللّه لأنّي أعيش أحسن عيشة.

ثمّ أقوم بترميم نفسي. وأقف أمام المرآة أستعرض ما لديّ من ملابس. فهذا فستان غامق سأستبدله بفاتح، وهذا فاتح سأستبدله

بغامق. وهذا فستان قصير لا بدَّ من تطويله. وهذا طويل أستبدله بقصير أو أقصَ من طُوله. وأقضي أيّامًا أخرى وأنا أطوّل وأقصّر وأشتري وأتفرَّج. وأقوم بمسح شامل لكلّ واجهات السُّوق وكلّ «أوكازيونات» المدينة. وأقضي على ما لديَّ من نقود فأتحيَّن فرصة هبوط التورُّم في عينيه لأقول له بدلال سقيم وأنا ألبس أفضل ما عندي: «أعطني يا محمود فقد فلَست». وباندفاع أفتح الثلّاجة وأستعرض الخيرات أمامه وأصفُ الملابس الجديدة على السَّرير حتَّى يختفي الفراش، وأدور حولها بفرح عساه يفرح، فيبتسم بغيظ ويقول: هذا ما تفلحين فيه. فأقول له بحماس: وماذا ينقصُنا؟ احمدْ ربَّك يا محمود ولا تكفز بالنعمة. بيتك أنظف وأحلى من كلّ البيوت، وطبيخ زوجتك أزكى طبيخ، وأنا وأنت أحسنُ الناس جميعًا. فيمدّ يده إلى جيبه ويناولني العشرات وهو يهمهم: خذي واسكتي. وآخذ وأسكت. وأزداد سكوتًا على سكوت حتَّى أنفجر يومًا فأبكي وأهمد وأعود إلى شحوبي وأذوي وتذوي الثلّاجة ويمتلئ البيت بالغبار، ويهبّ الطوز فيتَّسخ الزجاج ويصبح مثل ورق البرداخ وأنام كثيرًا. وفي ظلام اللَّيل أرجو اللَّه أن يمنّ عليَّ بضوء جديد يبدّد عتمتي ولو لأيّام حتَّى أتبلّغ بما يكفي لأواصل المسير في صحراء التّيه. ويستجيب اللَّه لدعائي فتتحسَّن الأحوال ويبتسم زوجي فتنفرج السماء عن ليلة القَدْر. وأرى النور مصدرًا عظيمًا للفيض فأشربه بنهم التائه في صحراء. جرعات أشربها تمدُّني بالقوَّة للسَّير في الصهد خطوات أبعد. وحين أرتمي ثانية ينطلق «فلاش» لضوء آخر. فأستمدّ القوَّة ثانية وأمشي خطوات أبعد، وهكذا إلى ما لا نهاية.

نعم، هذه هي التناقضات التي تعتري عفاف، وكلَّ عفاف، لهذا يصعب عليها الوصول إلى أيّ قرار. تذكَّرت ذلك كلَّه حين حاولت إحدى الصديقات أن تفعل ما فعلتُ وتتمرَّد. كانت متزوِّجة من رجل في سنّ والدها والفارق بينهما ليس فارق أجيال فحسب، بل فارق اهتمامات وهوايات وعواطف. كانت لها اهتماماتٌ ثقافيَّة وإعلاميَّة وتحبّ الحياة. أغرقها بالمال وكثرةِ الحَبَل والميلاد ولم تعِ إلَّا وهي أمٌّ لعدد من الأطفال وفي قلبها جوعٌ للحبّ والإحساس. حاولت أن تلهي نفسها بالدّراسة فانتسبت إلى أوَّل جامعة بالمراسلة ولم تستمرّ، وإلى ثاني جامعة ولم تستمرّ، وبدأت تكتب للصحافة وتشعر ببعض الاكتفاء، حتَّى زارتني في مكتبي ورأت ما رآه والدي ولاذ بالصَّمت، وقرأت كتابي وسمعت ما يقال عن نجاحي ففبطتني، وقالت: لا بدَّ من أن أفعل ما فعلتِ وأتحرَّر. لولا

تحرُرُك من زواج فاشل لما نجحتِ. وصمتت وملامح الأسى تغلّف وجهها، وقالت بعد لحظات تفكير وصمت: لا بدَّ من أن أفعل ما فعلتِ. فهزَّزت رأسي ولم أصدقها، إذ كانت تلك هي المرَّة السَّادسة أو السَّابعة التي تقول فيها مثل ذلك الكلام ثمَّ تنسى ما قالته بعد ساعات، أو تمرّ بذلك الاهتزاز التقليديّ الذي عاشته وتعيشه صاحبتنا عفاف وكلُّ عفاف.

لكنْ، في يوم ما، وقت المغرب، فاجأتني صديقتي بزيارة لم أتوقَّعها وهي تبكي ووجهها أحمر وعيناها وارمتان. ارتمت على السَّرير الوحيد في غرفة كنت أعيش فيها مع ابنتَيّ هربًا من مضايقات عائليّة قُصد بها تدجيني والتدخُّلُ المعهود في خياراتي وقراراتي. فضَّلت غرفة متقشِّفة صغيرة في تقعيدة فيلّا لعائلة معروفة في رام اللّه على العيش في دار العائلة الكبيرة في نابلس ذات المساحات، حتَّى لا أفقد مساحاتي. لهذا انتقلت بسرعة عجيبة، من دون تردُّد إلى تلك الغرفة وأقمت بها مع ابنتَيّ نتقاسم النوم على سرير واحد وفرشتين على الأرض، من دون أثاث، ومن دون فرن أو ثلّاجة أو غسّالة، وكلُّ ما لدينا شنطاتُ سفر ضخمة نضع فيها ملابسنا وحوائجنا، وبريموس غاز صغيرٌ نغلي عليه القهوة والشاي. أمَّا الأكل فأحضره لهما في علب بلاستيكيَّة من كافتيريا الجامعة.

قلت لصديقتي إنَّ مثالي يتطلَّب الاستعداد للعيش بتقشُّف حتَّى الحصول على الاستقلال، وأولى درجات الاستقلال هي الوظيفة والراتب. وعلى قدر الراتب أقيس كلّ احتياجاتي وأحدّدها. وإذا زاد أحصل على مزيد من متطلّباتي وليس قبل ذلك. يعني على قد فراشي أمدّ رِجلَيّ، فهل أنتِ على استعداد لفعل ذلك؟ قالت بحماسة: طبعًا، أكيد، المهمّ أن أنطلق مثلك وأعيش حياتي.

تعشَّينا عشاءً خفيفًا وشربنا الشاي وهي ما زالت تقصّ عليّ ما تعانيه وما ينقصها، وتفاصيلَ آخر خناقة مع زوجها من دون أن تنسى ما كان يقوله لها وما كانت تقول له في كلّ الخناقات، حتَّى استأذنتنا ابنتاي بالذهاب إلى النوم. طلبت منها حينذاك أن نقوم عن الفرشتين المتلاصقتين، إحداهما فوق الأخرى، ونستعملهما ككنبة للجلوس، وفسَّرت لها أنَّ البنتين ستنامان على الأرض على الفرشتين. ففتحت عينيها بدهشة وانزعاج وقالت: على الأرض؟ ضحكتُ وقلت: ألم أقل لك على قد فراشي أمدّ رِجلَيّ؟ صمتت وهي تراقب البنتين تفرشان الفرشتين وتغطيانهما بشرشفين وتتغطّيان بلحافين وأنا وهي جالستان على السَّرير الوحيد في الغرفة. ثمَّ التفتت إليّ وسألتني: وأين أنام أنا؟ قلت لها وأنا أبتسم وأدقّ

على طرف السَّرير: هنا. سألت بقلق: وأنت أين تنامين؟ قلت ضاحكة: إلى جانبك أو إلى جانب ابنتَيّ. حملقتْ وصاحت بصوت حاولت أن تخفضه قدر الإمكان: أنت يا سحر بنت العزّ ودار أبوك أحلى دار تعيشين هكذا؟ سألتها بجدِّيَّة: وماذا توقَّعتِ؟ قالت بلجلجة: كنت أظنُّك في أحسن حال. تعملين في بيرزيت ولديك وظيفةٌ حلوة وسمعة ممتازة وأصبحت كاتبةً معروفة، والآن أكتشف أنَّك تعيشين مثل الفقراء! قلت لها كما لو كنت أفسِّر لتلميذة غير نجيبة: راتبي من الوظيفة لا يكفي إلَّا للأساسيَّات. وعدتني الجامعة بزيادته حين أُثبَت في الوظيفة، سأنتقل حينذاك إلى شقَّة حقيقيَّة وأشتري بعض العفش المستعمَل. صاحت بحشرجة: عفش مستعمَل؟! أنتِ؟ قلت لها: وماذا تظنّين؟ أتظنّين أنَّ طريقي وطريقتي كانتا سهلتين؟ إذا كنت تريدين أن تتحرَّري مثلي كما تقولين فعليك أن تهيِّئي نفسك لما ترين. صمتت، وظلَّت صامتة طوال اللَّيل، وأظنُّها أخذت تعيد حساباتها وتفكِّر كما كانت تفعل عفاف، أيْ تهتزّ وتتأرجح مثل البندول، وتحاول أن تُسبغ على حياتها بعض الفضائل، وتتذكَّر، كما تذكَّرت عفافُ، ما كان لزوجها من حَسَنات.

غادرت في الصباح حتَّى قبل تناوُل الفطور، وقالت وهي تقبِّلني على استعجال: اشتقت إلى بيتي وأولادي. أريد أن أذهب قبل أن يذهبوا إلى مدارسهم. سأفطر هناك. شكرًا يا سحر. واللّه يا حبيبتي أنَّك بطلة.

فكَّرت طويلًا فيما قالته، وما قالته أخرياتُ وما جربتُ وكتبت ووصفت تناقضات البطلة عفاف. وصديقتنا العزيزة البطلةُ عفاف، هي في حقيقة الأمر ليست بطلة، بل إنَّها، أوَّلًا على آخر، ابنةُ ظروفها، كما كنتُ أنا، وكما كانت كلُّ العفافات. والفارق بيني وبينهن جميعًا هو ما وصفه الفنَّان شمَوط، أيِ القدرةُ على تهيئة الظرف الخاص، والبوصلة، واجتراح الصعب وبُعد المسافات.

وقعت في الحبّ، في ذلك الجوّ الحارّ المتوثّب في بيرزيت سنة ١٩٧٢، وأنا ما زلت أتعلّم وأحلم وأطير. أنظر الآن إلى تلك التجربة وتلك الأيّام بعين الحسرة، لا لأنّ التجربة كانت ملاذًا من الوحشة وعُقم الأيّام، ولا لأنّها أرضت حرمانيَ وأشواقيَ، ولا لأنّ المحبوب كان الفارسَ الذي حملني على أجنحة الحلم وأسعدني، بل لأنّي بكيت كثيرًا وتألّمت. لماذا بكيت؟ لماذا تألّمت؟ ألم يكن أفضل إنسان عرفته؟ بلى، هو كان. ألم يكن لطيفًا وذكيًا وبعقل فذّ؟ بلى، هو كان. ألم يكن فنانًا وعالمًا، في الوقت نفسه؟ بلى، هو كان. لماذا، إذن، تألّمت؟ لأنّي أحببت صورة وهميّة أو قصّة شاعريّة خلقها خيالي الجانح وعشت فيها كأنّها واقع. لم تكن الصورة حقيقيّة، ولا القصّة، ولا العلاقة مجسّدة في أرض الواقع. سمعته يعزف كالموسيقار، ويناقش الأمور بعقل واسع وصوت رقيق متواضع. يخوض في الفلسفة والسياسة ويطرح أسئلة مبتكَرة، ويحاور الأجوبة يفصّصها حتّى يصل إلى عمق التفاصيل، ثمّ يعرّج على الآداب العالميّة فيتحدّث عن أرسطو ونيتشه وهرمان هسّه والرجل ذي الألف وجه ووجه، فبُهرتُ وسُحرتُ وتخيّلته قَدَري الثاني، أو تعويضي من السّماء عمّا لقيتُ من قَدَري الأوّل، أيْ زواجي المقيت. وجاء ذاك الرجل ذو العقل الفذّ والمزاجِ الراقي والصوتِ الخفيض لينقذني من عطش القلب وجفاف الرُّوح، فقدّسته. جعلته محرابيَ وألبسته ثوب الأبطال والقدّيسين. وضعته فوق منصّة وتعبّدته. ربّما كنت في حاجة إلى تلك الصورة وذلك القدّيس. فبعد زواج من رجل مثل زوجي، وتهشُّمِ تمثال أبي ونزولِه على الأرض، وعلاقاتٍ غير متكافئة ولا سويّة أراها حولي في كلّ مكان، اعتقدت أنّي وجدت توأم روحي ومكافأتي، نصفيَ المفقود، كلّيَ على الأرض، فلاحقتُه.

كنت أراه مارًّا فأستوقفه لأسأله سؤالًا سخيفًا أو ذكيًا لألفت نظره. يجيب بلطف ثمّ يتابع مسيرته من دون التفات إلى شخصي. أسمع عزفه في غرف البيانو فأقفز وأطير إلى تلك النافذة، أو ذلك الباب، أو ذلك المقعد لأفاجئه فيبتسم حين يراني ابتسامتَه الناعمة الآسرة ويُنهي عزفه، أو يستمرّ، ثمّ يغلق درفة البيانو ويسألني عن دروسي واهتماماتي وماذا أفعل، كما لو كنت طالبة وهو الأستاذ. وهذا ما كان، أنا الطالبة وهو الأستاذ. لكن الحال تبدّلت قليلًا، وبالتّدريج، وأصبحنا صديقين، صديقين فقط، هذا ما كان في الحقيقة، صديقين فقط. أمّا أنا، بحسّي المتعطّش إلى الرومانسيّة، وخيالي الجامح والمشتاق إلى صورة مثيرة وقصّة حبّ

ملتهبة تنبعث من قلب حار، فقد أحببته بكلّ كياني، وكنت على استعداد لأن أموت في سبيله! شيء مضحك، بل في الحقيقة مؤسف، لأنّي اكتشفت فيما بعد، وبعد دراساتي عن المرأة، أنّي ما كنت إلّا نموذجًا فذًّا، وعينةً مجسّدة لامرأة عربيّة وسطيّة، نتاجِ تربية وسطيّة، في جوّ وسطيّ، في أواسط القرن العشرين، وربّما بعد العشرين. فماذا نعرف نحن النساء عن دنيا الرجل؟ ماذا نعرف عن دنيانا، دنيانا نحن، نحن النساء الضائعات في خضمّ بحر متلاطم تعتلينا فيه أمواجٌ في إثر أمواج، ونحن قواربُ صغيرة تائهة يقذفها الموج على الساحل، ساحلِ الدّين، ساحلِ الجنس، ساحلِ الأفكار المستورَدة من دول الغرب، أو دول الشرق والسعودية والوهّابيّة وحجاب الرأس والبرقع وحجاب العقل؟ ماذا نعرف عن دنيا الناس؟ ربّما فتياتٌ ونساء غير وسطيّات، ومحروماتٌ من كلّ شيء، من المال والعلم والثقافة، وجدنَ في أجوائهنّ الواقعيّة بعضَ الخبرة. أمّا نموذج الوسطيّات، أي مثلي أنا، فلا شيء أكثر من أوهام وأحلام وتوقُّعات أنتجها الحرمان والكبتُ وعدم الخبرة. ما زلنا جديدات على الدُّنيا، نحبو ونهيمُ على سطح الأرض.

اكتشاف العالم في حاجة إلى تأهيل؛ في حاجة إلى تراث أو تاريخ. وأين هو تراث المرأة العربيّة في الاقتصاد والسياسة وعلاقات المجتمع وحياة الناس؟ ومنذ متى كانت المرأة العربيّة في مواجهة الدنيا من غير حجاب؟ أصلًا، السّؤال الأهمّ: متى نزعت المرأة عن وجهها بُرقعَ التقليد وستارَ الحجاب؟ المسألة في حاجة إلى التوثيق والتّدقيق في الواقع. وذلك الواقع، أو التاريخ إن صحّ القول، يبدأ مع نكبة ٤٨ حين بدأت النساء في فلسطين التشبّه بنساء القاهرة بإعلان السفور. وأنا ما زلت أذكر غطاء الرأس، أو المنديل، كما كنّا نسمّيه، أو الملاية والغطوة والكاب التي ارتدتها أمّي وجدّتي. جدّتي لأمّي كانت ترتدي الملاية والمنديل والإيزار حتّى ماتت. وأمّي، وحتّى أختي الكبرى لبضعة أشهر، ارتدتا الكاب والمنديل. وربّما أفضل تجسيد لذلك اللّباس هو الصّورةُ التي وضعتها على غلاف روايتي **أصلٌ وفصل**، وفيها تظهر النساء القياديّات، ذواتُ الأصول العريقة، بناتُ العائلات، مسلماتٍ ومسيحيّاتٍ، حين ذهبن لمقابلة المندوب السامي البريطاني لتقديم احتجاج سياسي رسمي لأوّل مرّة، أوّل مرّة، وعلى رؤوسهن ملاياتٌ ومناديلُ، والنساءُ المسيحيّات ببرانيط ساترة لكامل الشعر والجبهة والأذنين تيمُّنا بحجاب المسلمات. المسيحيّاتُ بالبرانيط الساترة الحاجبة للشعر والجبهة والأذنين، والمسلماتُ بالكاب والملاية والمنديل. من هناك بدأنا، ذلك تراثنا، في ذلك التاريخ. أمّا فيما بعد، بعد

هزيمة ٤٨، حين تشقَّقت أرضيَّة المجتمع واهتزَّ السطح، فما كان ذلك أكثرَ من سطح، السطح فقط، ونحن كنَّا على ذلك السطح، وما زلنا. وإلَّا فما هذا الارتدادُ الجامح والمفزع لحجاب المرأة المتزايد، والمضاعف، والمزاود، والشامل للوجه والعينين والقدمين واليدين؟ ارتدادٌ إلى الخلف فاق كثيرًا حجاب الماضي، أيْ بتنا أكثر تحجُّبًا من الماضي، وأخلف بكثير (من تخلُّف). إذن، كنَّا وما زلنا نحبو على السطح.

أعود إلى قصَّة تلك الرومانسيَّة وتلك الصورة التي خلقها عقلي الواهم وقلبي المحروم. قلت إنَّنا بتنا صديقَين، صديقين فقط، لكنِّي في ذلك الوقت توهَّمت أنِّي نجحت في اختراق قلبه وخلقت لديه بعضَ العواطف. كنت قد بنيت له في خيالي صورةً دراميَّة تتلخص في أنَّه غريب الأطوار بسبب عقله الفذِّ ومواهبه وإبداعه. ألم أقرأ الكثير عن غرابة أطوار الفلاسفة والشعراء والفنَّانين؟ ومحبوبي أنا، بطلي الساحرُ، هو من فصيلة هؤلاء، غريبُ الأطوار تنقصه العواطف. وأنا، بفضل جَلَدي واجتهادي وقلبي الحارّ، سأدفئ دنياه وأفتح قلبه للنور بعد الظلمة، فيذوق الحبّ والأشواق ويعشقني. هذا ظنِّي، كان كذلك، إلى أن فُجعت بذاك المشهد الذي وصفته في **عبَّاد الشَّمس** بدقَّة وإحساس وتفجُّع، وفيه كتبت:

كانت تنتظر. الأصدقاء يمزحون ويمرحون، يتأهَّبون لقضاء سهرة ينسون أو يتناسون فيها أحداثَ اليوم وكلَّ يوم. واختلطت الأصوات والضحكات...

وما زالت تنتظر في الردهة المظلمة وتتأمَّل اثنين يجلسان في الحديقة منشغلَين عن الدنيا ولسعات البرد. وأحسَّت بالوحشة والخوف، فقد ينشغل عن المجيء أو يتشاغل. هل يحبها؟ لم يَقُلْ هذا أبدًا، ولم يَقُلْ عكسه. لم يجلس معها جلسة حميمة كجلسة هذين الاثنين. لم يحتضن يدها وينظر في عينيها نظرة تقول ما لم يقله لسانه. لكنَّه يمسك بيدها يعبران الطريق وحين تصيبها نوبات الجنون وتركض وتضحك وتصرخ في الشوارع الخالية. لم يفعل ذلك إلَّا بدافع الحماية والمجاراة. لو تركته لمزاجه لَما قام بذلك وحده. عليها أن تقوم بمجهود بطوليّ كي تسحبه لأجواء أقلَّ فتورًا ووقارًا. لماذا لا يحبّ؟ أليس إنسانًا له قلبٌ وعواطف؟... تريد قلبه. تريد علاقة متكافئة ليست من طرف واحد. واستمرّ الصراع على قلبه. وكلَّما تمادى في خذلانها اندفعتْ تحاول من جديد بإلحاح يفوق إلحاحها السَّابق. تريد قلبه ولن

تعدل.

ورأته يقترب بخطواته الواسعة البطيئة. لو أنَّه أكثرُ حركة. لو أن حركة أعضائه تجاري حركة عقله. لو أنَّ قلبه. لو أنَّ! وحيَّاها بمزيج من الودَ والتعاطف. ولكنْ، لا أثر للّهفة في صوته أو حركاته. بينهما شيء مشترك. يمشيان معًا، يتسكَّعان معًا، يجمعان معلومات عن مواضيع تهمّه...

تساءل:

ـ هل نقضي السهرة بعيدًا عن الزملاء؟ اسقيني شيئًا رفيف.

وبندائه ذابت أبخرة النقمة وتلاشت. وأحسَّت به طفلًا وهي أمّه. وتدفَّق الحنان في قلبها واستجابت. مدَّت يدها إليه فأذعن، وقادته للداخل وتخطَّت به صيحات التَّرحيب المنبعثة من هنا وهناك... نظر نظرة أليفة عذبة وهتف:

ـ أنت رائعة.

وخفق قلبها لكنَّها تماسكت ولم تُبدِ اهتمامًا ظاهرًا. وبقيت تحوم حوله. تعود إليه بعد كلّ دورة تقوم بها في أنحاء المنزل الصاخب، وتجده واقفًا ما زال يناقش... متى ينتهي من كلّ هذا؟ متى ينتهي ويتفرَّغ لها؟

... وقفت في الرَّدهة وحدها. وأحسَّت بالنسمات الجارحة تخترق مسامها. «سأمرض، سأصاب بلفحة برد ونزلة صدريَّة أو ذبحة. سأموت ولن يسأل عنّي.» وتكثَّفَ إحساسها بالإشفاق على نفسها فازدادت حاجتها إليه. لو أنَّه معها وَلَها. بحاجة إليه من دون كلّ الناس. لم يعد للآخرين وزنٌ. ما عاد في العالم شيء يثير اهتمامها سواه. تلخَّص الوجود في شخص واحد.

وقفت على العتبة تشمل الراقصين بنظرة ضائعة ذاهلة. أينَهُ؟ وبحثت عيناها عنه في كلّ الزوايا. وارتطمت نظرتها بالمشهد الغريب. يدور مع الراقصين يشدّ إليه فتاة لها جسد مصهور وبشرة نحاسيّة. يدفن وجهه في عنقها، ويده ترتفع وتنخفض على الظهر المصبوب كقالب.

ارتفع العالم ثمَّ هوى. تناثرت الجبال واختلطت بالشجر والصخر وأعمدة التلفون ومصابيح الكهرباء. وانسدلت ستارة كثيفة من العتمة

والقتام. واختبأت في زاوية الرَّدهة تلهث، وأمسكت بقلبها المشروخ وأنَّت. وأوقفت دمعة غصَت في حلقها.

«كفى سخفًا، أغار عليه. الغيرة ليست غريزة، بل غريزة، بل أحد الرواسب المتخلِّفة وبصمة من بصمات الكبت وعدم الثقة، ونزعة للاحتكار والامتلاك وكلّ ما هو ضيق. المفاهيم العفنة والجذور الممتدَّة من بداية العصر البطريركيّ. اللَّعنة على كلّ شيء. فقدنا البساطة. حتَّى الغيرة لها حساب ومقياس. لو أنَّني بقيت كالأخريات، كملايين الأخريات. لا أحلام ولا ثقافة ولا ثورة. مجرَّد أنثى يتقدَّم لخطبتها رجلٌ لديه دَخْلٌ. ثمَّ تحبَل وتلد وتطبخ الأكلات الصعبة، وتُثبت جدارتها بالزوج والبيت ومسؤوليَّات الأمومة.»

وأنَّت تستنجد، أمي. قلت لك ألف مرَّة، ارتفعت الإصبع. ونشجت بيأس. ما عاد الماضي ملجأ. والحاضر كذلك ليس ملجأ. هناك هروب، وهذا صراع. وهي معلَّقة بين هذا وذاك.

... وما زال النزفُ في قلبي والجرحُ طريًّين، اقترب منّي أستاذ شابٌّ عُرف بتوجهه اليساريّ. لم يكن يساريًا حقًّا، وهذا ما اكتشفته فيما بعد، لكنّه كان يتكلّم بمنطق مَن تجاوز الكثير. كان من أسرة محافظة ريفيّة، لكنّه يناقش وينفعل بالتّعبير والتّنظير، ويدعو إلى التمرّد على المؤسّسات التقليديّة في كلّ ميدان وكلّ اتّجاه: مؤسّسات النّظام السياسيّ، والاجتماعيّ، ومؤسّسة الزواج والتركيبة العائليّة، وحتّى مؤسّسة الجامعة العربيّة وهيئة الأمم المتّحدة. أفّ، يا سلام، كم أدهشني! يريد تغيير العالم، وهذا بالضبط ما أصبو اليه.

بدأنا نسير معًا. نسير معًا: يعني نتمشّى في أنحاء الحَرَم الجامعيّ ونجلس حول الطاولات الخشبيّة في الكافتيريا، ونحضر الحفلات الطلّابيّة، ونتجوّل أحيانًا في شوارع رام اللّه الجميلة ونأكل المثلّجات في «بوظة ركب». وبوظة ركب عبارة عن دكّان؛ دكّان فقط فيه بضعة كراسيّ وطاولات، في الشارع الرّئيسيّ من رام اللّه، حيث يلتقي المثقّفون والصحافيّون والمنفتحون على العالم من أهالي رام اللّه والقدس، وحتّى نابلس، ليأكلوا بوظة ركب. كنّا نسمّي المكان «ركب»، فقط ركب، كما كنّا نسمّي الغراند أوتيل «عودة» تيمُّنا بكنية مالكته السيّدة عايدة عودة. وفي هذين المَفلَمين، كنّا كمثقّفين، أو أنصاف مثقّفين، أو أنصاف كتّاب وصحافيّين، نلتقي لنأكل البوظة في ركب، أو نشرب المشروبات تحت ظلال أشجار الصنوبر والكينا في الحديقة الوارفة الفسيحة لأوتيل عودة، أو ما كان يعرف بالغراند أوتيل.

حدّثني الأستاذ الشابّ عن تجاربه السياسيّة والفكريّة. قال إنّ الطريق لتغيير العالم هو بتحطيم الأشكال البنيويّة للمؤسّسات. يجب أن نثور على المؤسّسات. يجب أن نتحرّر من المؤسّسات. يجب أن نمارس حريّتنا القصوى من دون ضوابط. يجب أن ننفلت من كلّ قيد أو شرط.

في البداية، وأنا ما زلت أستمع إلى شروحاته وتنظيراته التي استقى معظمها من أحد مفكّري بيروت ومنظّريها في أواسط القرن العشرين، أُصبت بالدّهشة، ثمّ الصدمة، ثمّ التشفّي بمؤسّساتنا المُغرقة في الضّيق والتخلّف والتقييد الممنهج لحرّيّة الفرد وإبداعاته، وبالتالي ضعف الإنتاج.

أثار الأستاذ الشابّ تساؤلاتي واستفزّ تفكيري بتنظيراته. قرأت كلّ

نشراته، واستمعت إلى كلّ نقاشاته، ودرست كلّ احتمالاته. يريد تغيير العالم، وهذا بالذات ما أحلم به. لكن، بالطبع، من أين نبدأ؟ قال بإيمان: «نبدأ بتغيير النُظام، بكسر القوانين، فنكون مثالًا للآخرين.» قلت لنفسي: «سبق وكسَّرت القانون، لكنَّ شيئًا لم يتغيَّر. لم يتغيَّر قانون الناس، لم يتغيَّر نظام الأسرة، وحتَّى أنا لم أتغيَّر. فكيف يكون وضع المرأة في مجتمع تخرج عليه؟ هل تُحدث شيئًا من التغيير وهي بعيدة عن حدود النُظام؟ إذا تغيَّرت المرأة إلى أقصى حد، وهم ما زالوا على ما هم عليه، ألن تُنبَذ؟ ألن تنقلب إلى أضحوكة؟ والأضحوكة، هل تتمكَّن من كسب الود، من كسب العيش، من كسب الثقة واحترام الناس؟ وإذا فقدت احترام الناس، فهل تقنعهم؟ وإن لم تقنعهم فكيف تكون لهم نِعمَ المثال؟»

ما مررت به من نفاق وأنفاق منحني القدرة وقوَّةَ القلب اللّازمة لاختبار مدى صدقه، أو إيمانه. فأخذت أراقبه بدقَّة، لكنَّه خيَّب أملي في كلّ امتحان. وقرَّرت أخيرًا مواجهته بعيدًا عن النُظريَّات والمنشورات وسحر البيان. جلست في إحدى الزوايا وفي يدي قطعةُ ورق دوَّنت فيها كلّ النقاط. وبدأت الحديث مباشرة، من غير لفّ أو دَوَران. قلت بجدِّيَّة، ومن دون ابتسام: «هذا عطائي من أجل الثورة والتغيير، فماذا تعطي؟» فوجئ بسؤالي. جمدت النَّظرة في عينيه، ولم يتحرَّك. ثمَّ تململ، وقال أشياء لم أفهمها لأنَّها شظايا محض؛ كلماتٌ تبرق في العتمه ثمَّ تخبو، تنطفئ فجأة بلا إنذار فتتلوها جمل أخرى، خيوطٌ أخرى تلمع وتموج وتتشابك ثمَّ تغرق في زحمة الكلام، مجرَّد كلام. ثمَّ استنتجت: يريد أن أعطي ولا آخذ. هذا ما يراهن حقًّا عليه. لا شيء كبيرًا، لا شيء عظيمًا، لا شيء حقيقيًّا ذا تأثير. لن يتغيَّر، لن أتغيَّر، فكيف، إذن، نصعد إلى الشمس؟ قلت بتحدٍّ واستفزاز: «إذن، هذا ما تدعو حقًّا إليه: أنا أقوم بعبء العمل وأنت تقطف ثمار المجد». وغادرته. لكنَّ الدرس والعبرة منحاني خطوطًا وتفاصيل تلهمني، ومنها غرفت، فرسمت مشاهد ورموزًا وشخصيَّات ترصد ما كان، ما جرَّبته، فبتُّ هدفًا لأكثر من سهم، أكثر من رمح، ومن أيدٍ تطمح إلى التغيير.

ربَّما ما نفعني في ذلك الوقت أنِّي لم أرتبط بذلك الشابّ عاطفيًّا، لم أحبّه. لم يجعلني أطير كما فعل الأستاذ الكبير ذو الصَّوت الخفيض والعزف الساحر والعقل الفسيح. وربَّما، أقول ربَّما، لو أنِّي أحببت الأستاذ الشابَّ داعيةَ تحطيم المؤسَّسات، لانسقتُ وراءه وجارَيتُه. أقول ربَّما، لأنِّي أعرف ما لعواطف الإنسان من تأثير في عقله وسلوكيَّاته وقراراته. ولحسن

الحظّ، ولأنّي كنت ما زلت أحنّ إلى أجواء الأستاذ الكبير ذي الصوت الخفيض، ونقاشاتِه الفلسفيّة وتجلّياته الموسيقيّة وتحليلاته، أخذت أجابه الأستاذ الشابّ، داعيةَ تحطيم المؤسّسات، بأسئلة مرتابة وجدليّة. أسأله الأسئلة فيجيب ببراعة ومنطق هيغليّ شديد الذكاء. أراقب سلوكيّاته وأقواله وتعبيراته التلقائيّة وتمجيدَه لأجواء القرية بعاداتها وتقاليدها وعلاقاتها الموغلة في التقليديّة، وأتساءل: كيف تريد تهشيم المؤسّسات وأنت شديد التعلُّق بنظام العائلة القرويّة وقيمها وعاداتها وتقاليدها وانتمائك الفعليّ إليها؟ يختلّ منطقه ويتلجلج. يضيع منطق هيغل الفلسفيّ ويحلّ محلّه منطقٌ شديد التعثُّر والفجاجة، مكسوٌّ بطبقة من رياء ونفاق. أحتدّ فيحتدّ ويعلو صوته، وطبعًا صوتي، وأتّهمه بالنفاق الفكريّ والجبن السياسيّ المغلّف بتبريرات يستر بها عدمَ قدرته على الالتزام بما يلزم من انضباط وتضحية للانخراط في أحزاب وتنظيمات سياسيّة؟ كيف نقاوم الاحتلال فرادى من دون منظّمات وأحزاب وجماعات؟ كيف نقاوم المؤسّسات الصهيونيّة بلا مؤسّسات؟ إذن، ما هي الثورة على المؤسّسات؟ ما معناها؟ معناها أنّي أنا، أنا المرأة الوسطيّة، ذات التربية الوسطيّة، في هذا الجوّ الوسطيّ، عليّ أن أخلع حذائي وأرميه في وجه مؤسّسات المجتمع وأصبح خارجة، أو خوارجيّة، منبوذة. أهذه هي الثورة؟ أن أصبح خارج المجتمع لا داخلَه؟ لا جامعة، ولا مدرسة، ولا وظيفة تضمن لي أجرًا واستقلالًا ماديًّا ومعنويًّا، ولا عائلة، ولا دولة، ولا حلم بدولة تحمي حرّيّتي وهويّتي وقوميّتي وانتمائي؟ ولا شرطة تحمي ظهري وتسهر اللّيل على راحتي؟ وكيف يعيش الناس بلا شرطة؟ كيف يعيش الناس بلا نظام وبلا قيود تردعهم عن ارتكاب المخالفات والجرائم؟ كيف تُحمى الأموال والممتلكات؟ وإن انفلت الناس من النّظام ورفضوا التقيُّد بالقوانين والامتناعَ من المحظورات، ألن تدبّ الفوضى؟ إذن، المشكلة ليست في المؤسّسات، بل في عدم تحديثها وتطويرها وجعلها أكثر تلبية لحاجات المجتمع واحتياجات الفرد، وليس تكسيرها وتحطيمَها وتشويهَ صورتها في عيون الناس.

لم تمضِ أكثر من بضعة أسابيع حتّى افترقنا. ما عدنا نمشي معًا، ولا نجلس في الكافتيريا معًا، ولا حتّى نحتفظ بشيء من الودّ، أحدنا تجاه الآخر. بتنا غريبَين. من ناحيته، حقد عليّ لأنّي اكتشفت نفاقه الفكريّ وانتهازيّته وجبنه. ومن ناحيتي، اكتشفت وجهه الحقيقيّ ورغبته في تضليلي واستغلالي متذرّعًا برغبته في تغيير العالم والثورة على نظام المؤسّسات والقيم والعادات والقوانين وكلّ الحدود.

حمدا للّه ما كنت صغيرة، ولا ساذجة، ولا كنت أرغب في الخروج على دوري كأمّ ومواطِنة ذات وعي سياسي واجتماعي، ولا كنت راغبة في التخلّي عن حلمي في أن أكون جزءًا فاعلًا، ومؤثّرًا، في محيطي، وقلمًا صادقًا يحكي عن الواقع من الداخل بحميميّة وإخلاص وحنيّة. أداوي الجروح وأساهم في البناء لا التهديم والتّحطيم والتهشيم.

وشاءت الصدفة، في تلك الفترة بالذات، أي فور ابتعادي عن الأستاذ الشاب، أن أتلقّى دعوة إلى حضور حفل زفاف شاعر فلسطيني شهير في منطقة الجليل، أي المنطقة التي احتلّها الإسرائيليّون سنة ٤٨ وأصبحت جزءًا من الكيان الإسرائيلي، لكنّ بكثافة عربيّة.

كان حفلًا جميلًا بالفعل. أكلٌ وشرب ومازاتٌ ورقص وغناء وموسيقى. مجتمع له عادات يختلط فيها القرويّ بالمدنيّ بالتقدُّميّ العالميّ، لأنّ معظم عرب ٤٨، كما نسمّيهم، كانوا منخرطين في الحزب الشيوعي وطروحاته، أو متعاطفين معها ومعه؛[1] ذاك الحزب الذي تخرّجت على يديه نخبةٌ من مفكّرينا وكتّابنا وشعرائنا المميّزين، أمثال إميل حبيبي وإميل توما وتوفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم، وقائمة طويلة من أبرز الكتّاب والصحافيّين.

انتهى الحفل فأخذتني شابّتان ذكيّتان مبدعتان متميّزتان، إحداهما شاعرة، والأخرى ممثلة في المسرح العربيّ التقدُّميّ، لأنام في شقّتهما المشتركة، بحيث إنّ الرجوع إلى الضِّفّة في ذلك الوقت المتأخّر غيرُ مأمون وغير ممكن.

جلسنا في الشقّة بعد منتصف اللّيل نشرب الشاي ونتسامر، ونتبادل الآراء والأفكار والتعليقات، وأيضًا التّحليلات للسلوكيّات. وتطرّقنا، من حديث إلى حديث، ومن تعليق إلى تعليق، إلى عرس الشاعر وعروسه والخلفيّة الغريبة لذاك العرس. قالت إحداهما، وصادقتْ على كلامها الأخرى، إنّ العريس، أي الشاعرَ التقدُّميّ الشهير، لم يُبقِ فتاة أو امرأة تقدُّميّة إلّا أطاح بها، أي استغلّها عاطفيًا وجنسيًا ثمّ نبذها. دمّر هذه، وشوّش تلك، وبنى قصورًا في الهواء لعشرات الفتيات الواثقات والمؤمنات بمبادئ الحرّيّة والعدل والمساواة، ثمّ رماهنّ. وها هو الآن، بعد أن شبع من اللّفّ والدّوَران، عاد ليتزوّج من القرية، من قريبته التي «ما باس فمها إلّا أمها».

صادقت المبدعة الأخرى على كلام الأولى، وذكرت أيضًا ما فعل فلان، ثمّ فلان، ثمّ فلان، حتّى قضت الاثنتان على كلّ الرجال المعروفين

في ذلك الجوّ، والذين كنت أحتفظ لهم بصورة نقيّة وإجلال عظيم. وكلّما رأت الاثنتان فكّي يرتخي وعينَيّ تجحظان من الدّهشة والذُّعر والانبهار، ازدادتا تشريحًا لسلوكيّات يختلط فيها الصّدقُ بالرياء، والشرفُ بالتغرير والانحراف، وأنّ المرأة، هي المرأة، من تدفع ثمن تحرُّر لا تنال منه سوى حرقة القلب والإذلال والانكسار. فحين ينبذها فلان يستلمها فلان آخر يزيّن لها، بل يُقنعها بأنّه مختلف عن زميله، وأنّه سينقذها ممّا أصابها من جرح وإذلال. ويأخذ بنهش سيرة زميله وتعريتِه والسُّخريّة بدونجوانيّته، فترتاح الفتاة لإحساسها بأنّها ليست الوحيدة المغرَّر بها، وأنّها ككلّ الفتيات السّابقات، بسبب سذاجتها وغفلتها، وقعت في براثن ذلك الدونجوان. وهنا تبدأ بالانفتاح للآخر، وحشو قلبها المتورّم، فتذرف الدموع، فيربّت على كتفها ويهدهدها ويواسيها، ويضع رأسها على كتفه، ثمّ صدره، ثمّ رأسه على صدرها، ثمّ فمه، وتبدأ القصّة من جديد، حبّ وأنين فتفجُّع، ويعود الرجل إلى أصله، و«ياكلوا فولهم ويرجعوا لأصولهم»، وتزول الأوهام والمشاعر الرقيقة، وينكشُف التقدُّمي عن فلّاح ابن فلّاح. هذا فلّاح وذاك فلّاح وذاك بدويّ في أعماقه، ابنُ البيئة، أي ابنُ تربية محافظة رجعيّة تقليديّة تستهين بالمرأة وتعتبرها في مرتبة أقلّ من الإنسان، بل تراها معظم الأحيان، بعقل منقوص خلقيًا، خُلقت لتكون خادمةَ الرّجل ومطيّته، وفي أفضل الأحوال استراحة محارب. وحين يشبع من الامتطاء والمُتَع المجانية، يذهب ليعشّش في خفه ويتزوّج من ابنة عفه أو خاله، ويبني عائلة قرويّة. هذا ما نحن، صاحت إحداهن بغضب ساحق، هذا ما نحن، وهذا ما هم. نحن في العمق فلّاحون. أمّا في القشرة، القشرة فقط، فنحن دعاة العدل والتحرُّر ومساواة المرأة بالرجل، ومثل هذا الكلام. نحن ما زلنا فلّاحين. هم فلّاحون ونحن كذلك. لكنّ المرأة المسكينة لا تعرف مثل هذا الكلام، أي إنّ التحرُّر والتحرير ليسا بوجه واحد، بل بعدّة وجوه. وهي المسكينة البريئة، لأنّها خام، تصدّق الوجه الواحد ولا ترى ما تحت الوجه من عدّة وجوه.

طلع الصبح وما زلنا نتشاكى ونتبادل الأفكار والتعليقات، ونحلّل هذا ونحلّل تلك، حتّى امتلأتُ بقصص الآخرين، مَن أعرفهم، ومَن أقرأهم، ومَن أعتبرهم قمّةَ التّحرير والتّحرُّر في فلسطين[2].

عدت إلى بيرزيت وأنا متوتّرة موتورة، إذ اكتشفت أنّ الأستاذ الشابّ ليس حالة نادرة ولا شاذّة، بل هو نموذج للرجل العربي الجديد، أي سي السيّد عبد الجواد، في رداء جديد، من جيل جديد، في عصر جديد،

لكنَّ الحشوَ، وفي الأعماق، هو سي السيِّد عبد الجواد، متمنطقًا بمنطق هيغليّ ماركسيّ سارتريّ وجوديّ وهرمان هيسه والرجل الواحد بعدَّة وجوه.

وماذا عن المرأة؟ أليست كذلك بعدَّة وجوه؟ بلى، هي أيضًا بعدَّة وجوه. وجه جديد ووجه قديم. وجه ما زال يتعثَّر في أواخر القرن العشرين، ووجه ما زال يتدثر بإيزار أمِّي وجدَّتي وآراء ومكتسبات ورثناها من الدِّين والأعراف والتربية والقوانين. وفي هذه الحال، المرأة ليست متَّهَمة، ولا مدانة، وكذلك الرجل ليس متَّهَمًا ولا مدانًا، فنحن نتاج مرحلة انتقاليَّة يختلط فيها القديم بالجديد، والتراثيُّ بالتحديث، ومفاهيمُ التَّحرُّر والتَّحرير بأصولِ وقيم ورثناها وعايشناها، وتربَّينا عليها، وأصبحت منذ طفولتنا جزءًا منَّا، من داخلنا، من جُوَّانا. ومن المحال، مهما تمنطقنا بالمنطق، منطق هيغل وماركس وإنجلز، أن نقفز أو نتجاوز، بضربة ساحر، ما ورثناه وابتلعناه وهضمناه في الطفولة، وما أصبح في قرارنا جزءًا منَّا، مهما غلَّفناه بالادِّعاءات والشعارات والأمنيات. إذن، لا بدَّ من دراسة. فالمسألة ليست فرديَّة، ولا شكليَّة، ولا فئويَّة. هي قضَّة مجتمع يسعى للتَّحرُّر من الماضي وينطلق نحو التَّغيير. والمرأة هنا، الرِّياديَّةُ، في هذا الجوّ، أيّ مَن خرجت من قشرة التَّقليد إلى الشارع وتجاوزت بعض العقبات، وتعلَّمت، وتثقَّفت وخرجت للعمل والوظيفة والنشاط الثقافيّ والسياسيّ وأصبحت جزءًا من هذا العصر، لا بدَّ لها من أن تستوعب هذا الوضع، من أين جاءت، وإلى أين المسير.

من الواضح أنَّ ما اكتشفته في عالم الناس أثار قلقي وذهولي. فتجربتي المحدودة مع رجال العائلة والوالد، ثمَّ زوجي، ما كانت أبدًا لتبدو نموذجًا لما سألاقيه خارج البيت، في دنيا الناس. فبالدرجة الأولى، ما كنت أعتقد، ولو بالظنّ، أنَّ أبي كان رديئًا، لأنَّه فعلًا ما كان. كلّ ما اعتقدته بعد زواجه، أنَّه كان ضعيفًا وهرب من العبء والفجيعة. كما أنَّ زوجي ما كان حالة عاديَّة أو مألوفة. ففي مجتمعنا المحافظ التقليديّ كانت أفعاله تبدو غريبة، بل نادرة، أو على الأقلّ، هذا ما قيل لنا نحن البنات، كما قيل لنا إنَّنا الأفضلُ والأشرفُ، لأنَّنا الأنقى والأطهرُ، فديننا هو أحنفُ دين، وشرعُنا هو أعدلُ شرع، وأخلاقُنا أفضلُ أخلاق. لا نكذب، لا نخدع، لا نسرق، لا نحكي زُورًا وبهتانًا، ولا نغدر بصديق.

وعلى الرَّغم ممَّا جمعته من هنا وهناك من حقائق، وما لمست من تناقضات، فإنَّني كنت لا أزال أفكِّر في أنَّنا بالفعل أناسٌ طيِّبون ومن أهل

الخير. لكنَّ الواقع صدمني، بل أفزعني. وكانت صدماتي أحيانًا تبلغ منّي حدَّ الهذيان، فكنت أردِّد: لا، لا يمكن. وأتَّهم نفسي بالتشكيك وسوء النيَّة. وكان الآخرون يرونني في تلك الحال وقد جحظت عينايَ وارتخى فكّي، فيردِّدون أنّي أبدو كطفلة ساذجة غبيّة. وربَّما كان صحيحًا ما قالوه، إذ كنت ساذجة حقًّا، كما كان أستاذي يردِّد. كنت كطفلة فتحت شبَاكًا سرِّيًا واكتشفت خلفه عالمًا فريدًا من نوعه. يبدو كلّ شيء فيه جديدًا، مثيرًا، ومليئًا بالدَّهشة والأسرار.

بدأت أفهم، رويدًا رويدًا، ومع الأيَّام ومرور السنين، ما تعنيه تلك الأمورُ وروابطها. كانت العلاقات دومًا موضوعيَ الأثيرَ: علاقة المرأة بالمرأة، علاقة الرجل بالمرأة، علاقة الإنسان بمجتمعه، والسياسة. ووجدت في كلّ تلك العلاقات الناسَ أنانيِّين، قساةَ القلوب، ضعافَ النفوس أمام المال والسُّلطة والاستئثار. كنت أراهم على استعداد للقيام بأيّ عمل، على نحو لا أفهمه أو أتوقَّعه، للحفاظ على السُّمعة والوجاهة وكسب المزيد من الثروة ورضى الحكام. في البداية، كنت أردِّد: «هذا هو الرجل العربيّ، وهذه هي ثقافتنا.» وفيما بعد، حين قرأت قصص الشعوب والحضارات، ثمَّ درستُها، بتُّ أعرف، لعجبي وارتياحي الشديدين، أنَّ ما أراه هو العالم، هو دنيا الناس، وأنَّ هناك نساء مثلي، وأيضًا رجالًا، ممَّن يرون هذا العالم بمنظار جديد، برؤية جديدة، وعقل جدليّ.

صمَّمت، مع كلّ تلك الاكتشافات وما خلّفته من هزَّات، على خوض معركة جديدة وفتح باب النقاش بشأن قيادتنا في الداخل. وكنت أنوي أن أعطي لكتابي اسمًا ضخمًا يكشف لُبّ الموضوع، ويشير إليه، فسمَّيته **الرجل العربيّ بين الرشيد وماركس**. وبدأت بجمع المعلومات والانطباعات وردود الفعل. وبعد أكثر من خمسين مقابلة في العمق أجريتها مع أكثر من خمسين رجلًا من قادة الفكر والتنوير والتثوير، قرَّرت أن أجري مقابلات مماثلة مع زوجاتهم وصديقاتهم وأكثر النساء فعاليَّة في تجمُّعاتهم. ولخيبة أملي، وبؤسي الشديد، وجدت أنَّ «ثيمة» الاستغلال والدونيَّة والتَّمييز، التي وسمت وسمَّمت حياتي وحياة أمّي والعديدات من نساء العائلة وأخواتي، كانت تنعكس وتتبلور في كلّ قصَّة ممَّا سمعت، مع اختلاف بسيط في الشكل، لا المضمون. وما جعل المأساة مضاعَفة بالنسبة إليّ هو اكتشافي حقيقة أنَّ هؤلاء النساء كنَّ وما زلن، على الرَّغم من ثقافتهن، يشعرن بضعف لا يُقهَر، وفي أعماقهنَّ، يُخفين شعورًا بالدونيَّة واحتقار الذات. كنَّ يعتقدن، عن قناعة، بأنَّ الأنثى مهما عملت، ومهما علت، ومهما

ضحّت، فهي أقلّ من الرجل بعدّة درجات، وأنّ تضحياتها في حفظ البيت والأسرة، ونضالَها خارج البيت من خلال العمل والمعتقلات، شيءٌ صغير لا يستحقّ الذكر.

وعلى الرّغم من إثارة تجربتي تلك، فإنّها كانت محبطة ومخيفة. فقد اكتشفت أنّ القادة، أو من اعتقدت أنّهم كانوا الرؤّاد، ودعاة الثورة والتّغيير، ما كانوا أكثر من نسخة بالكربون، لجيل سالف، جيل الماضي، لكنْ بملامح عصريّة. ثمّ اكتشفت أنّ قيادتنا الذكوريّة زائفة وفاسدة وتعيسة، وأنّ النساء الطليعيّات في وضع بائس، وأنّ الثورة، ثورتُنا نحن، هي ثورةٌ عقيمة ومحدودة لأنّها تتغاضى عن العمق، أي الداخل. مزّقت خيبةُ أملي روحيَ وأغرقتني في بحور الشك. تربّطت يداي وما عدت أعرف ما أفعل. فكلّ ما رأيت وما سمعت، وما اكتشفت، أضاف إلى خوفي بعدًا جديدًا: لا أمل لدينا ولا مخرج، سنُهزَم ثانيةً وثالثة ولن نتحرّر. كلُّ ما نقوم به ونقود إليه هو إضاعةُ الوقت وهدر الدم. وهذا ما رصدته **عبّاد الشّمس**.

رصدت في **عبّاد الشّمس** مرحلة اصطدام الثورة بالواقع وانزياح غلالة رومانسيّة الثورة عن الثوريّين. وقد صوّرت ذلك من خلال خطّين متوازيين متمثّلين في عادل الكرمي، الشابّ اليساريّ المتقدّم، بعلاقته المحبَطة والمثبطة بأعضاء هيئة تحرير مجلّة **البلد**. ومن خلال رفيف، الشابّة المتوتّرة والمشحونة بوعي نسَويّ فجّ بدأ يتبلور من خلال اصطدامه بالواقع الخاصّ: علاقتها بعادل، وبالواقع العامّ؛ علاقتها بأعضاء هيئة تحرير المجلة. أمّا النتيجة التي يتوصّل إليها هذان البطلان، فهي اكتشافُ عادل، وبالتالي اكتشافُنا نحن القرّاء، أنّ عمليّة التّحرير ليست سهلة، وليست على البُعد المنظور، كما كنّا نظنّ، بل هي عمليّة معقّدة، شديدة التشابك والتعقيد بسبب تشتُّت أعضاء هيئة التّحرير وتهتُّكِهم وسخافتِهم. وكذلك لأنّ خضرون، الصحافيّ الإسرائيليّ التقدُّميّ، لا يمثّل سوى شريحة ضئيلة تعوم على السطح، ولا امتداد لها في المجتمع الإسرائيلي، ولا تأثير لها في مجريات الأمور.

النتيجة التي تتوصّل إليها البطلة رفيف، وبالتالي نحن القرّاء، هي أنّ البُعدَ النسويّ غيرُ مكتمل النضوج بسبب تشتُّته وقِصَر تجربته وصغر عمره. لا تجد رفيف نفسها مع عادل الكرمي المنقسِم على ذاته، ولا تتمكّن من الخروج من زاوية المرأة إلى نصف المجلة لأنّ طرحها كان سابقًا لأوانه، وبالتّالي صعب التحقيق. ومع ذلك، وبسبب الأحداث، وبسبب

الهزّات التي جاء بها الاحتلال، تتعلّم أنّ دورها، بل موقعَها، هو إلى جانب سعديّة، لأنّ سعديّة هي الأغلبيّة النسويّة، وليست رفيف. وستستمدُّ رفيف قوّة من سعديّة التي تتحزّك في اتّجاهين وتنتفض على سلطتين: سلطة المحتلّ الغاشم، وسلطة المختار القامع، والذي يحاول عبثًا إعادةَ النساء إلى الحشمة ومنعَهنّ من أداء دور في التّحرُّر والتّحرير.

---

1 كان الحزب الشيوعيّ، حتّى أواسط السبعينيّات، هو الذي يقود الحركة السياسيّة القوميّة والفكريّة في أوساط العرب في إسرائيل.

2 فيما بعد، وحين بدأت الحركة النّسويّة العربيّة تدرس الأوضاع النفسيّة والاجتماعيّة للمرأة العربيّة، وجدنا تشابهًا، وغالبًا تطابقًا في سلوكيّات الشريحة المتقدّمة من النّساء، وكذلك الرجال، في معظم الدول العربيّة.

سأركّز، في هذا الباب، على امرأتين محوريّتين، إذ إنّ ما يميّز الرّواية، على اتّساع مساحاتها وتشابك المواضيع فيها وكثرة شخصيّاتها، في رأيي، هو الطرح المبكر للجانب النسويّ، أيّ تفجيرُ البعد النسويّ في وقت كانت فيه كلّ التّنظيمات، بما فيها اليساريّة، تعتبر أنّ إثارة هذا الموضوع، أو هذه القضية، مسألةٌ في غاية الخطورة، لأنّها تعمل على شقّ الصفّ الوطنيّ. هذا ما كانت تقوله جميع التّنظيمات والنقابات، وحتّى النساء المسيّسات أنفسهن. إضافة إلى ذلك، بل قبل كلّ ذلك، موقف الإسلاميّين والمستقلّين والمفاهيم الاجتماعيّة الرّاسخة، ومفادُها قصورُ المرأة ودونيّتها واعتبار القوانين الشرعيّة والمدنيّة التي تميّز ضدّها أمرًا طبيعيًا لا غبار عليه، ولا يتنافى مع العدالة وحقوق الإنسان. أصلًا، منظومة حقوق الإنسان الفكريّة ومبادئها ما كانت مطروحة على الإطلاق. كلّ ما كنّا نسمعه في ذلك الوقت، نحن النساء المثقّفات والسياسيّات والمسيّسات، هو ما يتعلّق بحقوق العمّال وعدالةِ التوزيع الاقتصاديّ والصراع الطبقيّ وما شابهها، أمّا ما يتعلّق بحقوق المرأة وغياب عدالة التوزيع فيما يخصّها، في كلّ الأصعدة، الاقتصاديّة والاجتماعيّة والقانونيّة والجنسيّة... إلخ، إلخ، فذاك ما لا يُذكَر على الإطلاق، وإن ذُكر، فهو يعني مؤامرة أو دسيسة خارجيّة يُقصَد بها تفكيكُ المجتمع العربيّ والقضاءُ على لحمة العائلة العربيّة، على اعتبار أنّ العائلة العربيّة مثاليّة تمامًا وتخلو من الشوائب والجرائم. لهذا، كان لهذا الطرح المبكّر للمشكلة النسويّة في ذاك الوقت وقعٌ مدوٌّ، وخصوصًا أنّنا نعيش في فترة كانت فيها كلّ الأنظار مسلّطة علينا على اعتبار أنّنا الحركةُ الوطنيّةُ الأهمّ في العالم العربيّ، أو ما كنّا نسمّيه «الثورة الفلسطينيّة.»

أقول إنّي سأركّز هنا على شخصيّتين نسائيّتين فقط، أي على البعد النسويّ، لأنّ هذا الجانب، أيّ النسويّ، هو الذي أثار كلّ تلك الانتقادات من اليمين واليسار، على حدّ سواء، واعتُبرت خارجة على القوانين الثوريّة، أيّ القوانين الحزبيّة، التي تفسّر للآخرين، للأعضاء الحزبيّين وغير الحزبيّين، ما هي الثورة، وكيف تكون الثورة، وبمن تبدأ، وكيف نعالج تفاصيل حياتنا وثقافتنا وأوجاعنا وهزائمنا. وكما أشرت سابقًا، فإنّ اليساريّين يقولون إنّ علينا البدء بالعامل والفلّاح، ومشكلة المرأة تؤجّل إلى ما بعد التحرير. والوسطيّون يقولون إنّ علينا البدءَ بتحرير الأرض. والإسلاميّون يقولون إنّ علينا العودةَ إلى صحيح الإسلام وقوانينه. أمّا أن يجرؤ أيّ كان على

القول إنَّ عمليَّة التَّحرير لن تتمّ، ونصفُ المجتمع مهمَّشٌ ومقموع ونائم، فتلك جريمةٌ فكريَّة سياسيَّة وطنيَّة لا بدّ لها من عقاب، وخصوصًا إذا جاءت من كاتبة فلسطينيَّة بدأت تأخذ مكانها في المدّ الثوريّ، أو الثورة الفلسطينيَّة. وقد حاول البعض فعل ذلك، إلَّا أنَّ نجاح **عبَّاد الشَّمس**، فلسطينيًّا وعربيًّا، أبطل كلّ التقوُّلات والاتِّهامات، وما هي إلَّا أشهرٌ قليلة حتَّى كانت **عبَّاد الشَّمس** مع أختيها **الصبَّار** **ولم نعد جواري لكم**، ضمن الأدبيَّات المقرَّرة لتعبئة أشبال التَّنظيمات اليساريَّة وتثقيفهم. وكان نجاحها الأكبر حين اشترت منظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة حقوقَ إنتاجها مع **الصبَّار** كمسلسل تلفزيونيّ طويل. وقد قبضتُ ثمن حقوق الإنتاج تلك على الرَّغم من أنَّ المشروع لم يتحقَّق كالعديد من مشاريع منظَّمة التَّحرير المهمَلة والمنسيَّة، وعلى الرّغم ممَّا صُرف عليه من ألوف الدولارات قبضها المخرج المصريّ المعروف محمد فاضل، ومن بعده صديقتُنا الراحلة السيناريست فتحية العسال.

شخصيَّات نسائيَّة محوريَّة في عبَّاد الشَّمس

رفيف: شاعرة وصحافيَّة والمشرفة على زاوية المرأة في مجلة **البلد** المقدسيَّة. تقيم علاقة زمالة وصداقة وحبّ من طرف واحد، طرفِها هي، بزميلها الصحافيّ التقدُّميّ عادل الكرمي. يحاول عادل إفهامها أنَّ العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تُبنى على الصِّدق المطلق، أي أن يعيش الاثنان بحرِّيَّة مطلقة لا تتوقَّف عند حدود.

«...قال موضحًا ببطء:

ـ نريد من العالم أشياء كثيرة. الحرِّيَّة مفهوم واسع. الحرِّيَّة تعني أن نعيش الحياة. أن نعبّر عن إنسانيَّتنا. تكمن الحرِّيَّة في الصِّدق المطلق.

كانت تحدِّق في اللَّيل وأضواء القدس. وعقلها يمحّص أفكاره بشكّ وقلق.

ـ تكمن الحرِّيَّة في الصِّدق المطلق، حقًّا؟ مفهوم رومانسيّ مرفوض. الحرِّيَّة، قد لا تصلها إلَّا بعد أن تمارس على نفسك أقسى أنواع الضغط، فأين هذا من الصِّدق المطلق؟

ضبطته، فهو ككلّ المثقَّفين متناقض متذبذب.. يطبِّقون على العامّ ما لا يطبِّقونه على الخاصّ. وتذكَّرت موقفه أمام الأضواء. «أنت بحاجة للضوابط». «وهل أنت ضابط؟» قضية الوطن مختلفة عن

قضيَّة المرأة؟ بل هذه من تلك ولا مجال للفصل. قضيَّة المرأة جزء أساسي من قضيَّة الوطن. يحلُّون عُقَدَهم على حسابي فأتعقَّد وأعقِّدهم معي، والحلقة اللَّانهائيَّة تدور تدور، وندور معها.

كان يفكِّر فيما قالته. وكان موقنًا بأنَّ ما قالته صحيح. ولكن، ليس هذا ما يقصد. وحاول أن يفسِّر:

ـ العلاقات التقليديَّة تُفقد الإنسان صدقه. أليس كذلك؟

قالت بحزن:

ـ بلى.

وعادت إلى جمودها. واستغرقت في الصَّمت. أحسَّ بالبرودة تتسرَّب إلى نفسه، فها هي تبتعد عنه وتخلِّفه وحيدًا مع اللَّيل والأضواء والقدس الغربية. أمسك بيدها الدافئة يحاول استرجاعها واسترجاع الدِّفء...

...شدَّها إلى صدره محاولًا امتصاصَ حزنه وحزنها. اختبأت لحظاتٍ وانسحبت بعنف. تساءل بألم:

ـ لماذا؟

استدارت بوجهها عنه، فهي تعرف أنَّه لا يحبُّها، وأنَّه لا يحتاجها، وأنَّ حاجته إليها لحظية مؤقَّتة. وأيَّة امرأة أخرى باستطاعتها أن تسدَّ الفراغ. وهي ترفض هذا، ترفض أن تبني علاقاتٍ عابرةً سطحيَّة. العلاقة يجب أن تكون عميقة. كلّ شيء يجب أن يكون عميقًا، حادًا، يجعل للدنيا معنًى وطعمًا ونتيجة. كلّ شيء يجب أن يقرِّب الإنسان من قلب الدنيا، من موطن الدفء من رحم الحياة. وهناك تكمن الحرِّيَّة. لكنَّ الحرِّيَّة بحاجة للأقوياء، للأصحَّاء. والرجل العربي ما زال مريضًا، منفصمًا منقسمًا يرغب في شيء ويطبِّق آخر.. مشدود إلى الماضي ويتغنَّى بالمستقبل. تجاربها وتجارب زميلاتها وزاوية المرأة علَّمتها. هو ضحيَّة، كالمرأة تمامًا، لكنَّ مرضه أخطر لأنَّه الأقوى والمتجبِّر. هذا هو الواقع. ولن تكون ضحيَّةً الضحيَّة. ولكن، من ثمَّ الوحدة.

...قال بفتور:

ـ لماذا نلحّ بأن نكون عبئًا على الآخرين؟ لماذا يتوجَّب عليَّ أن أقدِّم صكًّا للعبوديَّة؟...

...وحاول أن يقول أشياء أكثر، أحسَّ أنَّه ما عاد صادقًا معها ومع نفسه، وأنَّه يحاول إقناعها أنَّ مفاهيم المجتمع قد تغيَّرت، لكنَّه

يعرف أنَّ التغيُّر مقصور على فئة قليلة. وحتَّى هذه الفئة ما زالت مشدودة لخيوط قضيَّة أكثر تعقيدًا، ولا يمكن تفسيرها من خلال خطّ واحد. خطوط متشابكة تمتدّ جذورها في الأبعاد الثلاثة، أبعاد الفكرة نفسها، فكرة اليوم وكلّ يوم، الماضي والحاضر والمستقبل.»

❋❋❋

تكتشف رفيف أنَّ ما يفهمه عادل الكرمي وأمثاله عن ثورة المرأة هو التحرُّر الجنسيّ فقط لا غير. فتثور عليه وعلى مفاهيمه القاصرة، وتفكِّر:

«الثورة لن تحلّ مأساة الشعب وهؤلاء هم القادة. عادل والشعب. وأنا نصف الشعب. أنا المرأة، أنا النموذج الذي يمارس عليه عادل تطبيقَ النظريَّة. يعجز عن فهم واقعي ومواكبةِ متطلَّباته، فهو عاجز عن رؤية واقع المرأة ومتطلِّبات هذا الواقع، فهو عاجز عن دمج الواقع بالنظريَّة، ومن يعجزْ في الجزء يعجزْ في الكلّ. ويريدني أن أستمرّ في زاوية المرأة. أهذا هو الحلّ الذي يطرحه عادل لمشكلة المرأة؟ (نحن بحاجة إلى مزيد من القرّاء وإلى المزيد من المساندين.) ثمّ ماذا يحلّ بنا؟ ما حلّ بالمرأة الجزائريَّة بعد الاستقلال؟ وعادت المرأة إلى قاعدة الحريم وغطاء الرأس. ناضلت وحملت السلاح وتعذَّبت في السُّجون الفرنسيَّة، وجميلة وعائشة وعائشات، ثمّ ماذا؟ خرجوا للنُّور وتركوها في الظلمة. وكأنَّ الحرِّيَّة مقصورة على الرجل وحده. ونحن، أين حرِّيَّتنا وما هو السَّبيلُ إليها؟ لن يخدعونا. الحرِّيَّة للرجل والاستقلالُ للرجل والصلاحيَّاتُ للرجل ونحن؟ المسانِداتُ للثورة حتَّى يتمَّ التَّحرير ويتمَّ الاستقلال. ولنا من كلّ هذا المجد زاويةُ المرأة. نحن القارئات ونحن المساندات. ثمّ لنا بعد العشاء حديثُ آخر.»

❋❋❋

تقرِّر رفيف، بناءً على ما فهمته وجرَّبته، أن تضرب ضربتها وتطالب عادلًا وكلّ أعضاء هيئة التَّحرير بنصف مجلَّة **البلد** بدلًا من زاوية صغيرة لا تُستخدم إلَّا كرشوة يراد بها استقطاب المرأة والضحك عليها بزاوية لا شيء فيها إلَّا الطبخ والمكياج وآخر صرعات الموضة، فتقول:

«ـ وبناء على كلّ ما أوردت أقول: لنصف الشعب الحقُّ في نصف المجلَّة.

ردَّد الأستاذ بديع منغمًا وقد أخذته المفاجأة:

ـ اللّه أكبر!

وصاح سالم:

ـ على مهلك، واحدة واحدة يا بنت الناس!

وفكّر عادل بمرارة، وهو يتلقّى الصدمة الثالثة: النضج لن يسبق التجربة. الدَّرب طويل يا بو العز، الدَّرب طويل.»

❋ ❋ ❋

تعليق صغير مهمّ: الغريب أنَّ المهتمين من القرّاء، وخصوصًا المسيّسين منهم، والنقّادَ، نسوا أو تناسوا أنّي كروائيّة أتحدّث أيضًا بلسان عادل الكرمي الذي يقول وهو يستمع إلى رفيف وطرحها السّابق لأوانه: «النضج لن يسبق التجربة»، وهذا ما أقوله وقلته أنا الكاتبة الباحثة. لكن، طبعًا، من الأسهل على من يرغبون في توجيه الاتّهامات والتّشهير أن ينتزعوا الأقوال والأفكار من سياقها، ويقولوا إنَّ طلبَ رفيف هو مطلبي أنا المشابهُ لما تطالب به النسويات الغربيّات المشبوهات. ونسوا، وربّما لا يعلمون، أنَّ باحثين فلسطينيّين وغيرَ فلسطينيّين كتبوا بحوثًا ودراساتٍ مطوّلةً ومعمّقة عن تناقضات مشابهة وقعت في الثورات التي قامت في أجزاء أخرى من العالم، كالثورة الجزائريّة وحركة حقوق الإنسان في أميركا في أثناء حرب فيتنام وغداتها، وثوراتِ بلدان أميركا اللاتينيّة، مثل شيلي ونيكاراغوا والسلفادور، وحتّى الثورة الروسيّة وما دار خلالها من مراسلات حامية الوطيس عن حقوق المرأة بين لينين وروزا لوكسيمبورغ، وأخيرًا وليس آخرًا في ثورتنا الفلسطينيّة[1].

❋ ❋ ❋

سعدية: زوجة الشهيد زهدي، شابّة، جميلة، تضطرّ إلى العمل في الصناعة الإسرائيليّة حتّى تستمرَّ في فتح بيتها والتكفُّل باحتياجات أولادها من مأكل وملبس ودراسة. بعد استشهاد زوجها، وخوفًا على أزواجهنَّ من الوقوع في براثن أرملة جميلة ومقتدرة، تبدأ نسوة الحارة بتأليف القصص والحكايات عنها وعن عملها الذي يدرّ عليها من المال ما يفوق مداخيلَ أزواجهنَّ، ويتّهمنَها ظلمًا بما ليس فيها، ويضطهدنَها، وينبذنَها، فتعمد إلى شراء قطعة أرض في الجبل المشمس لتبني عليها بيتًا لتهرب من الحارة المعتمة والمزدحمة وأقاويلِها، ومن رجال يترصّدون بها ويحاولون الإيقاع بها وقد باتت من دون رَجل يحميها.

«حين غاب زهدي وخرجت إلى الدُنيا الواسعة اكتشفت كم هي صعبة حياة الرجال. وأصعب الصعب أن تحاول امرأة أن تعيش هذه الحياة. دعك من مشاكل الرزقة التي تسحبها من بين أسنان وحش، فهناك المشاكل الأخرى وهي أمرّ وأقسى. امرأة شابة جميلة وأرملة... وكم عليها أن تدفع مقابل هذا النعت الذي لا يبدو محصّنًا. أرملة. أيّ إنّها بدون رجل مستعدّ لكسر رقبة مَن يتصدّى، كأرض بدون حارس. وقد تعلّمت، هؤلاء الرجال قد علّموها الكثير. علّموها كيف تشك في كلّ النوايا مهما صدقت. وهذا شحادة الرجل الوحيد الذي يحاول مدّ يده بالحلال.. سخل أعجف لا يبلعه زور ولا تهضمه معدة. لكنّه على كلّ حال رجل، على الأقلّ في نظر الناس ونظر الشرع.

... لكن الأيّام عوّدتها كيف تستمتع بمكاسب الحياة اليوميّة الصغيرة. فحين تقبض أجر جلبة من الجلبات وتعود من تل أبيب وفي حوزتها شيك بألفي أو ثلاثة آلاف ليرة، كانت تحسّ بأنّ الدُنيا قد بدأت تهادنها فجأة، وأنّ موعدها مع الفرج قد اقترب، وأنّ حلم الأرض أصبح مشروعًا وليس حلمًا.

... وبالطبع تمتلئ الحارة بالأقاويل بعد بضعة أيّام. ويقال بأنّ سعدية كانت اللّه أعلم أين، ورجعت إلى البيت ورَجل طول الحائط يتبعها حاملًا ما لذّ وطاب، واللّه أعلم مقابل ماذا أعطاها كلّ تلك الخيرات، واللّه أعلم من أين تأتي بكلّ تلك اللّيرات مع أنّ ما تخيّطه سعدية وكلّ العاملات لديها لا يتعدّى ربعَ ما يخيّطه أبو تحسين عند صاحب «المقص السّحريّ،» ومع ذلك فإنّ صاحب المقصّ السّحريّ لا ينفك يشكو من قلّة الدخل وارتفاع الضرائب وسوء أحوال السوق. ذاك ما يشكو منه الرجالُ فكيف تكون أحوال النسوان؟

... لكنّها ستشتري الأرض في الجبل المشمس. ستحصل على قطعة بجوار أرض صبيحة المدرسة، وستبنيها غرفةً غرفة، وحين يكبر الأولاد ويزوّدونها بالمال ستبني طابقًا علويًا له فراندة زجاجيّة تجلس فيها صباحًا تشرب القهوة وترى المدينة بساطًا ممدودًا تحت قدميها. وستكون هي قد ارتفعت مع المرتفعين، وستمدّ لهذه المدينة القاسية لسانها وتبتسم لأمّ صابر وأم تحسين ابتسامة ذات مغزى. وستذكّرهما بالفضائح المزعومة وهي تقدّم لهما الكنافة على صحون برّاقة كالألماس.

تُظهر لنا قصّة سعدية بوضوح أنّ المرأة تستطيع، بجدّها واجتهادها،

أن تُلين البعد الاقتصاديّ وتتخطّى حواجزه وأعباءه، إلّا أنّها لا تستطيع، بمفردها، في الوقت الراهن، أن تتخطّى القيم الاجتماعيّة والنّظرة التقليديّة التي تعاملها كمخلوق «معيب» قاصر، وبالتالي اضطهادها بحجّة الدفاع عن العرض والأخلاق والشرف.

***

يكتمل الاضطهاد فيصبح مثلّث الأضلاع: اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، حين يصادر الاحتلال أراضي الجبل المشمس، بما فيها أرضُ سعديّة، وتخسر بذلك كلّ ما استثمرته في شرائها، وينتهي حلمها بالهرب من حارة تضطهدها وتنبذها فتنهار. وتأتي رفيف مع مجموعة من الصحافيّين لتغطية الحدث وترى ما حدث لسعدية. تحاول مواساتها والتقرُّب إليها، ولكن عبثًا، فلكلٍّ واحدة أجواؤها ومظهرُها ومَحضرُها ولغتها، وذلك يجعل من الصّعب على رفيف إقناعَ سعدية بوحدة الألم والمصير. وهنا، أحاول تجسيد الإشكال الذي يواجه حركة تحرير المرأة. فالنساء الواعيات، أمثالُ رفيف، غيرُ قادرات على الوصول إلى القاعدة الشعبيّة للنساء المتمثّلات في سعدية وخضرة بسبب فارق البُعدين الطبقيّ والثقافيّ. فرفيف، المنتمية إلى الفئة المثقّفة من البرجوازيّة المتوسّطة، غيرُ قادرة على الوصول بأفكارها وقناعاتها إلى المرأة المنتمية إلى الفئات المسحوقة طبقيًا، والمحرومةِ العلمَ والثقافة والوعي. وهذا يجيب عن التساؤل المطروح دومًا عن سبب فشل الواعيات نسويًا في الوصول إلى شرائح النساء الأقلّ وعيًا وثقافةً. فالوعي النسويّ في حاجة إلى مستوى علميّ ومعرفيّ معقول يساعد المرأة على هضم وابتلاع مفاهيم الثورة النسويّة المناهضة للكثير من القيم الاجتماعيّة والممارسات المتجذّرة في عمق التربية العربيّة، وقبل كلّ شيء، في الطروحات والتشريعات القانونيّة المدنيّة والدّينيّة. وهذا الاختلاف الطبقيّ والمعرفيّ بين شرائح النساء يجعل التواصل بينها صعبًا، بل شبهَ مستحيل. فنظرة المرأة المسحوقة طبقيًا ومعرفيًا إلى المرأة البرجوازيّة الواعية، فيها الكثيرُ من التشكُّك والحَسَد والغيرة. وعليه، فإنّ عمليّة التوعية والاستقطاب في غاية الصعوبة وقليلة الاحتمال. وأحاول في المشهد التالي تجسيد هذا الإشكال دراميًا حين ترفض سعدية يدَ رفيف المدودة إليها لدعمها والتعاون معها.

«تأمّلت الشابّة وابتسمت ابتسامة صفراء. «أنت يا بنت إيش عرّفك بالدُّنيا؟ هاي إنت ما شا اللّه عليك، شباب وجمال ومال وعلم ووجاهة. بتفكري كلّ الناس مثلك؟ لابسة بنطلون وقاعدة بين الرجال

القلم بايد والسيجارة بايد ولا وراك فاطمة ولا محمد. وأنا إللّي إن غبت عن بيتي ساعة تنهدَ الدار وتنهزّ الحارة. وجاية تقولي لي عيب يا سعدية، شماتة مين يا سعدية؟ مين يشمت بهمّه يا سعدية؟ يا شيخة حلّي عن ديني، واللّه ما أنا طايقة أشوفك ولا أشوف حتّى أولادي». . .

وكانت الشابة تحملق في وجهها تستوعب الخلفيّة والأحداث.

ـ مالك بتبحلقي فيّي؟ عمرك ما سمعت كلمة عكروت؟ عمرك ما عرفت عكروت بزمانك؟

ـ سمعتْ وعرفت.

ـ سمعتِ وعرفتِ؟ وناقص تقولي جربت.

ـ جرّبت.

ـ إنت جرّبت؟ وإيش جرّبت يا حسرة؟ جرّبت الرملة؟ جرّبت الفضيحة؟ جرّبت همّ الأولاد الملزّقين بالرقبة مثل العلقة وما تحلّ عنها إلّا لما تمصّ آخر نقطة دم؟ جرّبت الماكينة ودوشة الخياطة ومشاوير الشركة وعكرتة الرجال؟ جرّبت لما واحد يستوطي حيطك ويستفرد فيك وما يرحم شبابك ولا يرحم رملتك؟ جرّبت الحال المايل اللّي يصعب على عزاريين وما يصعب على ربّك؟ جرّبت حال خضرة اللّي تبيع حالها وحيلتها عشان لقمة ونقطة دوا؟ جرّبت؟ ولك بس. بس. خلص. مش طايقه أشوف حدًا ولا أسمع حدًا ولا أحكي مع حدًا.

وبكت الشابّة أمامها وأمسكت بيدها وهمست:

ـ يا سعدية همّك همّي، صدّقيني.

ـ طيّب، وتشرّفنا، وبعدين؟

وبكت رفيف بحرقة وتذكّرت مرارتها وهي تواجه أفراد الهيئة وهم يذكّرونها بتعاطفهم وتحالفهم، ألم تكن نفس الكلمات بحروف مختلفة؟ وماذ أفعل بهذا الحلف؟ أنقعه وأشرب ماءه؟ وسعدية ماذا تفعل بتعاطفها هذا؟ تنقعه وتشرب ماءه؟ وأحسّت بالعجز التامّ فخارت عزيمتها وانهارت معنوياتها. فماذا باستطاعتها أن تفعل إزاء كلّ هذا؟ وما قيمة ما تفعله؟ وما الذي تفعله سوى خوض صراعات جانبيّة مع أعضاء هيئة التّحرير عادل وسالم والأستاذ عطااللّه والأستاذ بديع؟ وماذا حقّقت حتّى الآن؟ لا شيء سوى إطلاق صرخات الندهة في واد مفغور الفم. وما نفع هذا؟ نصف المجلّة؟ أيّة نكتة! وماذا ستفعل بنصف المجلّة؟ تكتب فيها عن تجارب لم تخضها؟ أين أنا منك يا

سعدية!

وقالت من خلال دموعها:

ـ أنا وأنت يا سعدية نكتب للناس ونهزّ الضمائر.

حدّقت سعدية في وجهها وقد علت فمَها أماراتُ القرف:

ـ نكتب للناس؟ أيّ ناس؟ هم بس يحلُّوا عنّا يا شيخة. هو مين إللّي خرب الدّنيا وهدّ الدُّور وفضح الأرامل والمطلّقات وقطع اللُّقمة عن تُم الاولاد؟ مش الناس؟ ومين حطّ محطتنا وهتك سترنا ودعا علينا وسخط كبيرنا قبل صغيرنا؟ مش الناس؟ لمين نحكي ولمين نشكي؟ إذا ربّك مش سامع ليسمعوا الناس! إسكتي يا شيخة إسكتي، واللّه حاسّة راسي نافورة نار ودمي حامي ولا الكبريت. واللّه واللّه لو بإيدي قنبلة لأنسف العالم وما أخلّي من ريحة الناس ناس.»

---

1 طروحات واكتشافات مشابهة لغازي الخليلي في كتابه **المرأة الفلسطينيّة والثورة**، وفي **مقدّمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينيّة** لخديجة حباشنة أبو علي.

ردود فعل عجيبة!

أتساءل الآن، وأنا أتذكّر تلك المرحلة وكيف كنّا نفكّر ونناقش، عمّا إذا كنّا اختلفنا بالفعل ورذات الفعل، وهل تحسّنَ الوضع لدينا أم ساء؟ ولأكونَ موضوعيّة ومخلصة في تقييمي، أقول إنّنا تحسّنّا من ناحية وتراجعنا من عدّة نَواحٍ. فمثلًا، معظم مثقّفينا باتوا ينادون بتحرير المرأة من دون ربط عمليّة تحريرها بالوصفة اليساريّة التقليديّة التي كانت تدّعي أنّ وصول اليسار إلى السُلطة هو الممرّ الوحيد لذلك التحرير الشامل الذي يندرج فيه تحرير المرأة ويتلازم بتحرير العامل والفلّاح وتحرير الوطن. الآن، معظم مثقّفينا وأغلبهم يساريُون أو نصفُ يساريّين أو ربع أو عُشر أو واحد في المئة، باتوا يتبنّون مقولة إنّ تحرير المرأة هو مقدّمة لتحرير الوطن لأنّ عمليّة التّحرير لا يمكن أن تتمّ ونصفُ المجتمع مقموعٌ ونائم، بينما كانت المقولة في السّابق معكوسة، أي تحرير الوطن أوّلًا ثمّ تحريرُ المرأة والفلّاح والعامل. ومن كان يقول غير ذلك كان يُتّهم بالنشوز والشذوذ، وفي أحسن الأحوال، يُتّهم بالجهل والشوفينيّة ومحدوديّة الأفق والرؤية.

لكن انتقالنا من الموقف القديم إلى الجديد لم يكن سهلًا، ولا فجائيًا، فقد سبقته أنشطة عمليّة اتّخذت شكل لجان أو تنظيمات نسويّة. في تلك اللّجان المنبثقة عن التنظيمات الذكوريّة، بدأت النساء بمراجعة أوضاعهنّ داخل التّنظيم وخارجه، وداخل المؤسّسة الزوجيّة وخارجها، وحقّ المرأة على الوطن في مقابل حقّ الوطن على المرأة. أي إنّ المرأة في تلك اللّجان، وبحكم التجربة التنظيميّة والتسيّس، تعلّمت كيف تواجه وتناقش وتضع النقاط على الحروف وتخرج من عباءة النظريّات الرومانسيّة وتقيس الأفكار والممارسات بمقياس المصالح المشتركة لجميع الأطراف، وليس مصلحة فريق أو كيان على حساب مصالح الطرف الآخر.

لكن، ولنَعُد إلى ردود الفعل التي واجهتها في إثر كتابة **عبّاد الشّمس**، إذ انقسمت الآراء كالعادة بين موافق وغير موافق، بين مشجّع وآخر مناهض، وبين مادح وآخر قادح. وأكثر ما أثّر فيّ في ذلك الوقت هو موقف أحد التّنظيمات اليساريّة، الذي اعتبر أنّ انتقاداتي لمسلكيّة عادل الكرمي ومفاهيمه وازدواجيّتها، موجّهةٌ إليه، وأنّي اتّخذتُ من عادل الكرمي غطاءً أمرّر من خلاله انتقاداتي لمسلكيّات أفراد ذاك التّنظيم بالذات، فقاطعوني وتجاهلوا روايتي الجديدة وتوقّفوا تمامًا عن نشر أيّ نقد أدبيّ لكتاباتي، سواء مدحًا أو ذمًّا، بعد أن كانوا من أكثر المشجّعين

لمجهوداتي. والأبلغ من ذلك، هو موقف بعض اليساريّات اللّواتي كن يستوقفنني في الشارع ليؤنّبنَني على موقف رفيف في مجلّة **البلد**، على اعتبار أنّ رفيف تمثّلني وتمثّل موقفي السياسي من قضايا المرأة. ويتّهمنني جهارًا ويُعِبنَ عليّ، بسخريّة شديدة، أنّي ذاتُ رؤية معوجّة وشوفينيّة نسويّة مستورَدة من النسويات الغربيّات اللّواتي يخلعن صداريهن ويقذفنها وسط الشارع في وجوه الرجال. ويسألنني بحدّة واستهزاء عمّا إذا كان ما أكتبه ينادي بذلك، أي قذفِ الصداري في وجوه الرجال في الشارع؟ وهل رفيف، تلك البرجوازيّة الدلّوعة[1] التي تطالب بنصف المجلّة، هي النموذجُ الأمثل للمرأة الفلسطينيّة المناضلة ضدّ الطبقيّة والاحتلال؟ وهل لم أجد بين البطلات الفلسطينيّات، المناضلات، مَن تصلح لبطولة روايتي إلّا رفيف! طبعًا، كان ذلك قبل أن تبدأ لجان المرأة، أي التنظيمات النسويّة بالانبثاق، وتبنّي النساء اليساريّات مواقفَ متقدّمة من قضايا المرأة والمجتمع، ومطالباتهنّ بإعادة النّظر في قانون الأحوال الشخصيّة وما ينتج من تطبيقه من ظلم وتمييز وتجنٍّ فاضح لحقوق الإنسان.

أمّا ردُّ الفعل الأبلغ، فكان لكاتب وناقد يساريّ معروف، إذ بدأ مقالته أو ردّةَ فعله بقوله إنّ رواية **عبّاد الشّمس** هي تجسيد لانفصام تعانيه الكاتبة. فهذه الرّواية، **عبّاد الشّمس**، ذاتُ شقّين، أحدهما مظلم والآخر منير؛ أحدهما نضاليّ وآخر رجعيّ متخلّف. فالشقّ النضاليّ المنير هو ما تطرحه الرّواية من قضايا الصراع مع المحتلّ، والمتخلّف هو دعوتُها إلى تحرير المرأة عبر قنوات مشبوهة. فسحر خليفة لا تفهم أنّ ما تنادي به يشقّ الصفّ الوطنيّ، كما أنّها عاجزة عن استيعاب أنّ تحرير المرأة لن يتمّ إلّا حين تصل قيادةُ الطبقة العاملة إلى السُلطة، وهي التي ستقوم بتحرير الوطن أوّلًا، ثمّ تحرير جميع الفئات المسحوقة، ومنها المرأةُ والعامل والفلاح. وعليه، فإنّي، أي الكاتب، أنصح القرّاء بقراءة الجزء الخاصّ بالصراع مع المحتلّ، وتجاهلِ القسم الخاص بتحرير المرأة لأنّه مشبوه، وفي أحسن الأحوال ساذج.

وعلى الرّغم ممّا أحاط بـ **عبّاد الشّمس** من مشاذات فكريّة بين مُوافق وغير موافق، بين مادح وآخر قادح، بين يساريّين اعتبروني خارجة على الوصفة اليساريّة التقليديّة لتحرير المرأة والمجتمع، ومحافظين اتّهموني بالنشوز والخروج على العُرف والتقليد، إلّا أنّ **عبّاد الشّمس** حقّقت نجاحًا آخر لم أكن لأحلم به. وهي أيضًا، مثل **الصبّار**، تُرجمت إلى

عدّة لغات، وصدرت بالعربيّة في عدّة طبعات عن أربع دُور نشر عربيّة في فلسطين ولبنان وسوريا. كما تبنّتها منظّمة التّحرير الفلسطينيّة في ذلك الوقت، واشترت حقوق إنتاجها مع **الصبّار** (كما أشرت سابقًا) كمسلسل تلفزيوني طويل يصوّر تجربة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، ويقدّم لوحة بانوراميّة عريضة لشعب يبذل الضغط حياته ويزوّده بوعي جديد.

---

1 تُثبت كلّ الدّراسات التي أُجريت على المرأة والثورة أنّ المرأة من أصول برجوازيّة، البرجوازيّة المتوسّطة والصّغيرة، بسبب حصولها على مستوًى تعليمي معقول، هي السبّاقةُ إلى الوعي بدونيّة وضعها والتّمييز ضدّها بسبب أنوثتها.

ذلك الحبّ الرومانسيّ الذي غرقت فيه من جديد ما كان جديدًا، بل كان استكمالًا لما بدأته خلال سنيّ المراهقة وانتزعت قسرًا منه. كان حبًّا رومانسيًّا شفافًا تحيط به الألوان والأحلام ومشاعرُ مرهفة جيّاشة وحلمٌ شبيه بما كنّا نراه في أفلام الخمسينيّات. فتاةٌ حلوة، وشابٌّ جميل، وأجواءُ المَعارض واللَّوحات ورائحة الباستيل ودهان الزيت.

هكذا بدأت القصّة ثمَّ انتهت تمامًا، كما وصفتُ في روايتي **مذكرات امرأة غير واقعيّة** التي كتبتها عام ١٩٨٠ وتمَّ نشرها عام ١٩٨٦. أمّا لماذا تأخّر نشرها لستّ سنوات، فلأن الرواية كُتبت بالأصل بدعم من مركز الأبحاث والدراسات في جامعة بيرزيت، وكان المفروض أن تُنشَر هناك. إلّا أنّ أحداثًا مأساويّة ألمّت بالجامعة حين هجم الإسلامويُّون على إدارة الجامعة الوطنيّة بالبلطات والسكاكين والجنازير، وتصدّى الطَّلَبة التابعون لمنظّمة التّحرير الفلسطينيّة لذلك الهجوم. وكان لتبعات ذلك الحادث الجلل ارتداداتٌ، من بينها عزوفُ الجامعة عن نشر بعض البحوث والكتابات المستفِزّة اجتماعيًا وبينها روايتي الجديدة، **مذكّرات امرأة غير واقعيّة**، لما فيها من تحدٍّ واضح لقيم المجتمع وتربيته وما يخصّ المرأة وثورتها، أو بالأحرى تحرُّكات المرأة نحو التّحرير. ومنذ ذلك الحين، اختلفت الأجواء المنفتحة، وما عادت بيرزيت بؤرة تنوير وتثوير كما كانت، وكذا الواقع في كلّ أجزاء فلسطين.

أمّا ما كتبته في تلك الرّواية، فهو تحليل ووصف للأجواء التي تنشأ فيها امرأة عربيّة متوسّطة الحال، أي منتميةٌ إلى الطبقة المتوسّطة ونالت قسطًا متوسّطًا من التّعليم وقسطًا متوسّطًا نسبيًّا من الانفتاح وحرّيّة التّعبير عن مشاعرها ومواهبها. وكيف تعاني امرأة من هذا النوع انفصامًا بين ما يقال وما يُفعَل؛ بين التّحديث السّطحيّ وما ورثناه من قيود وتقاليد؛ بين ما ترجوه المرأة المتعلّمة نسبيًّا وما تجد نفسها مرغمةً عليه. وهذا ينسحب على مواصلة التّعليم، ثمَّ العمل في الميدان الذي يناسبها، وكذلك حرّيّة اختيار الزوج المناسب في الوقت المناسب. وقد بيّنت أنّ المرأة المتوسّطة، أو الوسطيّة، والمتقدّمة نسبيًّا عن بقية النساء، تعاني ازدواجيّة المعايير والسلوكيّات وقواعد التّطبيق، فما بالك بأغلبية النساء العربيّات، ومعظمهن فقيراتٌ، بل مُعدَماتٌ، أميّات أو شبه أميّات، والأغلبية الساحقة منهن بلا مال ولا وظيفة ولا خبرات إلّا ما يخصّ الزواج أو اللّازواج، وأعمالَ البيت اللّانهائيّة، والمجانية، وغيرَ المعترف بها على

المستويين الماديّ والمعنويّ، والكبت العاطفيّ والجنسيّ وكثرة الأولاد!

كما هو واضح لمن يقرأ الرّواية، فإنّ معظمها، بل ٩٠٪ منها، يتّكئ على تجربتي الشخصيّة؛ تجربتي أنا، سحر خليفة، بشحمي ولحمي وروحي ووجداني وثورتي وأحزاني، ولا تغيير فيها عمّا خبرتُه وعانيته سوى الثانويّ القليل الذي لا يشكّل خروجًا أو انحرافًا عن النصّ الرئيسيّ لحياتي. لكنّ الغريب والمدهش أنّ ذلك النصّ، أو ذلك الإحساس بالظلم والتمرُّد، وحتّى الوصف الدقيق لتلك الأجواء، أمرٌ نال استقطابًا جماهيريًّا نسويًّا على كلّ المستويات، إذ لم أجد امرأة واحدة عربيّة، أو أجنبيّة، ممّن قرأن الرّواية إلّا وقالت لي بصوت منفعل متهدّج: أنا عفاف، أو عفاف هي أنا بأحاسيسي وحزني وغضبي وثورتي على كلّ ما أحاق بي من ألم وظلم ومرارات. هذه أنا. أنا عفاف.

وللغرابة، أنّ الرواية التي رفضت جامعة بيرزيت نشرها في حينه خوفًا ممّا قد تسبّبه من أزمات، وخصوصًا مع الإسلامويّين الذين بدأ نجمهم يرتفع وقواهم تشتدّ، والرّوايةَ التي تردّدتُ أنا في نشرها لعدّة سنوات خوفًا ممّا قد يلحق بي من هجوم وتنديد وتعهير وانتقام كما حدث للكاتبة الأميركيّة كيت شوبان في إثر نشر روايتها ***The Awakening*** **(الوعي** أو **الاستيقاظ)**؛ هذه الرّواية التي اعتقدت في حينه أنّها تخصُّني وحدي، واعتبرتها آنذاك نوعًا من السيرة الذاتيّة والفضفضةِ والاعتراف، لم تكن تخصُّني وحدي، ولم تكن سيرتي وحدي، ولا ما أفكّر فيه وأحسُّ به وأتألّم منه وحدي، بل، وكما رأيت بأمّ عينَي وسمعت بملء أذنَيّ، إنّها تخصّ المئاتِ، بل الألوفَ، وربّما الملايين من بنات جنسي، عربيّات وغربيّات. وسأقصّ ما حدث، بالتفصيل، لأنّ ما مررتُ به، أو بالأحرى، ما مرّت به الرّواية، من دلالات واختبارات، جديرٌ بالتأمُّل والتسجيل.

حصلت في سنة ١٩٨٠، على بعثة فولبرايت لاستكمال دراساتي العليا في جامعة شابل هيل الأميركيّة، وسلّمت حينها روايتي الثالثة المنشورة: **مذكّرات امرأة غير واقعيّة** إلى مركز الدراسات والأبحاث في جامعة بيرزيت، ومنحته من خلال تعاقد رسميّ الحقَّ الحصريّ في نشرها في مقابل ٥٠٠ دولار أميركي. وسافرت فورًا، بعد التعاقد، إلى أميركا وكلّي أملٌ في أن يتمّ نشر الرّواية خلال أشهر قليلة، كما ينصّ الاتّفاق، إلّا أنّ الجامعة اعتذرت عن نشرها بعد أشهر قليلة، من خلال رسالة رسميّة، بسبب الأوضاع المتأزّمة في الجامعة وفي كلّ المناطق الفلسطينيّة، وذلك في إثر هجوم الإسلامويّين بالبلطات والسكاكين على إدارة الجامعة الوطنيّة.

وعليه، فقد أعفتني من التزامي تجاهها وأباحت لي نشر الرّواية عبر قنوات أخرى فلسطينيّة أو عربيّة. وبما أنّي كنت أتابع مجريات الأمور في بيرزيت، فقد تفهّمت الأمر، وعذرت الجامعة، وبدأت أفكّر في نشرها عبر قنوات عربيّة.

غير أنّ الدّراسة الجامعيّة ومتطلّباتها وتغيُّرَ المناخ الاجتماعيّ والثقافيّ عليّ في أميركا، واندماجي في البحوث الأكاديميّة؛ كلّ ذلك شغلني عن الرّواية لأشهر تعرّفت خلالها إلى الكاتبة الأميركيّة، عديمة الذكر حتّى ذلك الحين، كيت شوبان، وروايتِها التي أصبحت شهيرة فيما بعد، أيْ بعد عقود من الإغفال المتعمّد والنسيان، وبعد ما تعرّضت له الكاتبة المذكورة من اضطهاد وآلام أدّيا إلى وفاتها المبكّرة، كلّ ذلك بسبب تلك الرّواية الأخّاذة: The Awakening.

تحكي كيت شوبان في روايتها التي أصبحت مقرّرًا في معظم المساقات الأدبيّة والنسويّة التي درستُها، قصّةَ امرأة تعيش في الجنوب الأميركيّ في الرُّبع الأوّل من القرن العشرين، أيْ في الفترة التي عاشتها ونشطت فيها كيت. وهذه المرأة، أي البطلةُ، مثقّفةٌ، حسّاسة، وذكيّة، وذات ميول فنّيّة. وتقيم علاقات غراميّة بعدد من الرجال، وتكتشف في إثر كلّ علاقة أنّها لم تشبعها، أو أنّها أشبعت جزءًا منها وظلّت أجزاؤها الأخرى بلا إشباع. وهذا يعني أنّها في حاجة إلى تعدُّد العلاقات، كما يفعل الرجال في العادة، لكنّها محكومة بالظرف الاجتماعيّ الذي تعيشه، والذي يحرّم عليها مثلَ ذلك السلوك أو حتّى التفكير فيه. وتحت ضغط التناقض الذي تعيشه بين متطلّبات روحها وجسدها وما يفرضه المجتمع من قيود وضوابط، تقرّر الانتحار. لكنّ الانتحار الذي تصفه شوبان لا يتّصف بالعنف، كما فعل تولستوي في **أنا كارينينا**، ولا كما فعل فلوبير في **مدام بوفاري**، بل بفعل يشبه الاسترخاء والاستسلام لحلم جميل أخّاذ وسط أمواج بحر دافئة تحت سماء زرقاء، والطيور حولها تشدو، والفراشات تحوم في حلقات، وهي، أي البطلة، تستمتع بروحها وجسدها بذلك الانتحار، أو الاستسلام، كما لو كانت تقوم بعمل حسّيّ أو جلسة مساج.

واجهت الكاتبة، في إثر نشر الرّواية، أقسى أنواع العقاب، إذ نبذها المجتمع، وتخلّى عنها الأصدقاء، وشطب اتّحاد الكتّاب اسمَها من عضويّته، وسُحبت كتُبها من المكتبات، فاختبأت في مزرعة زوجها من دون معارف ولا أصدقاء، وماتت كمدًا بعد سنتين من النبذ والانزواء.

حين قرأت تلك الرّواية وتمعّنت في معانيها والظروف المحيطة بها

وما حلّ بصاحبتها من بلاء، قلت لنفسي إنَّ ظروف مجتمعنا ليست أرقى ولا أكثر ثقافةً ووعيًا ممَّا كان عليه الوضع في جنوب أميركا حينذاك، بل ربَّما نحن نُواجَه حاليًا بموجة أشدّ تعسُّفًا وتشدُّدًا، بدليل ما حدث في جامعة بيرزيت وفي الهلال الأحمر الفلسطيني الذي يرأسه الدكتور الجليل حيدر عبد الشافي، بين الإسلاميّين المتشدّدين من جهة، والقوميّين والاشتراكيّين وغيرهم من المواطنين العاديّين من جهة أخرى. وخرجت باستنتاج أنَّ الرّواية سابقة لأوانها، وأنَّ عليَّ ألّا أكرّر مأساة كيت شوبان لأنّي أعي ما في مجتمعي من تناقضات. كما أنَّ روايتي لن يهاجمها الإسلاميُّون المتشدّدون فحسب، بل معظم اليساريّين، وكذلك اليساريّات، كما حدث لـ **عبّاد الشّمس**. وسألت نفسي إن كنت على استعداد للموت في سبيل رواية؟ وقلت جازمة: بالطبع لا. وهذا لا يعني أنّي اتّخذت قرارًا بالتراجع عن طريقتي في الكتابة والاستفزاز، لكنّي، وقد بدأت أتسيَّس، صرت أعرف أنَّ أيّ عمل مهما يكن بديعًا، إن لم تكن له دعامةٌ ما، ولو محدودة، تدافع عنه وتتبنّاه، فسيقعد وينام في الظلّ، وربَّما تحت التراب، لعقود وأجيال، كما حدث لرواية The Awakening، وسيكون ذلك بالنسبة إليَّ نهايةَ الإنتاج والإبداع. وعليه، وضعت الرّواية جانبًا، وقرّرت إرجاء نشرها لعدّة سنوات، أيّ حتّى تتبلور الأمور وأتأكّد من أنّها لن تُطمَر، وأنا لن أدمَّر، وأنَّ عفافَ، أي البطلة، لن تعاقَب فيّ، ولن أعَهَّر، وأنّها ستضاف إلى رصيدي ككاتبة ثوريّة، وأنّها ستكون مصدرَ فخر لي، وليس مصدرَ تشويه واستهجان.

بعد ٦ سنوات، أيّ سنة ١٩٨٦، وكانت التّنظيمات النسائيّة قد بدأت تقوى وتنتشر ويشتدّ عُودُها، وبعضُ المنظّرين اليساريّين والقوميّين بدأوا يغيّرون مواقفهم التقليديّة تجاه المرأة وحركتها وكيفية تحريرها، أرسلت الرّواية إلى الدكتور سهيل إدريس في «دار الآداب» في لبنان، فتحمَّس لها ونشرها على الفور. وتلقيت في زيارتي للأردن وفلسطين في الصيف التالي العديدَ من الدّعوات إلى أماكن لم تخطر لي في بال، إذ انفتحت لي ولروايتي كلُّ الأبواب، وأقيمت على شرفي وشرفها ندواتٌ وحفلات شاي، وناقشتِ الرّوايةَ وتحمَّست لها نساءٌ يساريّات وقوميّات وأخريات ممَّن كنَّا نصفهن بالبرجوازيّات. وكانت مقدّمة الرّواية ومديرة الجلسة تقول بانفعال في كلّ لقاء: يا جماعة، عفاف هي أنا، عفاف هي نحن. فتتصاعد أقوال مؤيّدة من كلّ مكان في الصالة: عفاف هي أنا، عفاف هي نحن. والأبلغ من ذلك أنَّ الكاتبة الإيطاليّة داشا مراييني، صديقة ألبرتو مورافيا الحميمة، وهي التي قدّمتني وقدّمت روايتي للنقاش في جامعة روما، وقفت تقول:

كنت أظنّ أنّ حواجز ومسافات طويلة من الاختلاف البيئيّ والتراثيّ والدّينيّ تفصلنا عن المرأة المسلمة، إلى أن قرأت هذه الرّواية واكتشفت نفسي في عفاف، فعفاف هي أنا وتمثّلني، وتمثّل ملايين النساء الغربيّات، وهذا دليل على أنّ مشكلة المرأة وما تعانيه من قمع وانسحاق هي مشكلةٌ كونيّة، يونيفيرسال، وعابرةٌ للقارات. وهذا أيضًا ما كرّرته مديرة المركز النسويّ في صقلية، وأخرياتٌ في ألمانيا والنمسا وأمستردام، ثمّ مَن التقيتهنّ في سوريا ولبنان.

نجحت الرواية، وأعيد نشرها عدّةَ مرّات، وأعيدت أيضًا قرصنتها عدّة مرّات. وأنا فخورة بها على الرّغم ممّا أحاق بالحركة النسويّة في العقود الأخيرة من تراجع وارتدادات. فعفاف أنا، ما زالت أنا، وما زالت نحن، على الرّغم من التشويش والانحسار. وأنا على قناعة تامّة بأنّ ما يصيبنا الآن من تراجع سيمرّ وينتهي خلال عقود أو سنوات، ويبقى الأدب على مرّ السنين، مرجعًا وتراثًا للأجيال.

Personal is Political

الشّخصيّ هو سياسيّ

لم أكن أعلم بأنّ الحركة النسويّة العالميّة تتبنّى المفهوم أو الشعار القائل Personal is Political **الشخصيّ هو سياسيّ**، حين بدأت بطرح قضايا المرأة من خلال الوضع الخاص، أي من خلال تجربتي وتجارب النساء من حولي، ثمّ تحويلها إلى مشاهد ومواقف دراميّة. ولم أعرف عن ذاك المفهوم أو الشعار إلّا حين انتظمتُ في الدّراسة الأكاديميّة في قسم الدراسات النسويّة في إحدى الجامعات الأميركيّة في أوائل الثمانينيّات. ويعني هذا المفهوم أو الشّعار أن ما نعيشه ونعانيه نحن النساء، على المستوى الشخصيّ، هو في الأساس سياسيّ، لأنّه حصيلة مفاهيم وممارسات وقيود وقوانين سياسيّة أفرزها، على مرّ العصور، الوضعُ الاقتصاديّ للمرأة، ثمّ وَضْعاها الثقافيّ والدّينيّ. وإنّ أيّ تغيير على المستوى العامّ، أو ما نسمّيه، في مفهوم الثورات والتّغيُّرات الاجتماعيّة، التنميةَ المجتمعيّة أو النهوضَ المجتمعيّ، لا بدّ من أن يبدأ، بل أن يدخل عنوةً وبشكل حادّ وجادّ، في تفاصيل الوضع الخاص. ومثالٌ على ذلك، أنّنا لا نستطيع أن نقيم أيّ مشروع ناجح من دون دراسة للتفاصيل الماديّة والبشريّة ووسائل الإنتاج وسبل التسويق. وهذا ينطبق على الثورة، أيّ ثورة. فمن دون دراسة التفاصيل، تضيع الجهود في عموميّات وشعارات تؤدّي إلى متاهات ضبابيّة لا تنزل على الأرض وغير قابلة للتطبيق، وإن طبّقت تلك العموميّات والشّعارات على المدى القصير فلن تأتي بمردود ناجح وفعّال على المستوى البعيد، وتكون المحصّلة النهائيّة الارتدادَ والرّدة. وهذا ما جرّبناه في ثورتنا الفلسطينيّة وكلّ الانتفاضات التي قمنا بها ابتداءً من ثورات العشرينيّات في القرن الماضي وحتّى انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠. كانت الارتدادت حتميّة لأنّ دراسة التفاصيل كانت منقوصةً، بل غائبةً كلّيًا، فكان الفشل هو المردود.

نرى، في تحرّكات المرأة الفلسطينيّة نحو التحرّر والتّحرير، على امتداد العقود الماضية، الارتدادَ والمردود نفسيهما. تنطلق بعض النساء، بمبادرات فرديّة عفويّة، في أثناء فترات المدّ الوطنيّ، ويساهمن في الثورة أو الصراع، وحين ينتهي المدّ الوطني أو يرتدّ، تعود المرأة إلى قواعدها من حيث بدأت، وأحيانًا إلى وضع أسوأ ممّا كانت عليه، لأنّ قيادة الحركة، إن كانت لها قيادةٌ واضحة تُذكَر، لم تضع ضمن مخطّطاتها إستراتيجيّاتٍ مرحليّةً مبنيّة على دراسات جادّة تعمل على تحقيق تغيير حقيقيّ في الوضع الخاص للمرأة. ولا بدّ من العودة في هذا السياق إلى ذكر دراسة

غازي الخليلي **المرأة الفلسطينيّة والثورة**، ودراسة خديجة حباشنة أبو علي **مقدّمات حول واقع المرأة وتجربتها في الثورة الفلسطينيّة**[1]. إذ إنّ الباحثَين كانا، وربّما ما زالا عضوين فاعلين في تنظيمين، أحدهما يساريّ، والآخر وطنيّ غير محدّد الأهداف والتوجُّهات سوى المناداة بتحرير فلسطين. يستنتج الدارسان في هاتين الدراستين، بشكل واضح لا لبس فيه، أنّ الأحزاب والتّنظيمات الفلسطينيّة التي دعت إلى الثورة والتّغيير، حتّى اليساريّة منها، لم تأخذ بشكل جدّيّ مشكلةَ المرأة وتخلُّفها ومعاناتها والتحيُّز الاجتماعيّ والسياسيّ والاقتصاديّ والشرعيّ والتشريعيّ ضدّها. وكلّ ما عملت عليه واجتهدت فيه هو استقطابُ النساء للعمل في التنظيمات من دون أن يكون لعملها أيّ مردود جماعيّ واجتماعيّ يُذكَر، إذ لم تتبنَّ الأحزاب والتنظيمات برامج توعية جنسويّة للجنسين داخل التنظيم، ولا وضعت خطة مرحليّة للتّغيير، ولا حتّى قامت بإصدار كتيّبات وأدبيّات ومنشورات تتبنّى طرحًا جديدًا لمشكلة المرأة[2]. وهذا بالطبع أدّى إلى استمرار الممارسات التقليديّة داخل التّنظيم نفسه، أو إلى ممارسات لا تتبنّى من مفهوم تحرير المرأة إلّا تحريرَها جنسيًا، على نحو أوقع العديد من الفتيات الساذجات في مطبّات أثرت في وضعهن النّفسيّ والاجتماعيّ، ودفعهنّ بسببها ثمنًا باهظًا على المستويين العائليّ والاجتماعيّ. وهذه الإشكاليّة جسّدتُها دراميًا في **عبّاد الشّمس** من خلال العلاقة المربكة والمرتبكة بين عادل الكرمي ورفيف، وفيما بعد في العلاقة الممسوخة بين مازن جيفارا وفيوليت في **الميراث**. أمّا في **مذكّرات امرأة غير واقعيّة**، فالمواقف التالية تبلور ما استنتجته أنا على المستوى الشخصيّ، وما استنتجته الدراستان المذكورتان لكلّ من غازي الخليلي وخديجة أبو علي عن وضع المرأة في الثورة الفلسطينيّة خارج المناطق المحتلّة، وما استنتجته كباحثة عن وضع المرأة في فلسطين المحتلّة.

تقول عفاف حين تحاول نوال، زميلتُها في الدراسة، أن تعطيها منشورًا صدر عن أحد الأحزاب اليساريّة، كما يبدو من السّياق:

«مناشيرك لا تساوي بصلة». قالت بهدوء «لماذا؟ فسّري». قلت «مناشيرك تحكي عن المعسكر الشرقيّ والمعسكر الغربيّ والشماليّ والجنوبيّ. لكنها لا تحكي عن معسكري أنا». ابتسمت بإشفاق ورأيت في عينيها كلمة مجنونة، فجنّ جنوني وصرخت: «معسكري أنا ومعسكرك أنت ألا تفهمين؟» قالت ببساطة : «لا». حكيت لها عن الشلنات في وعاء الشوربة. وأمسكت بفرع كينا جافّ وأخذت أضرب

الشجرة. «وأنا مسحوقة، أنا مسحوقة». قالت بجلال: «بل أنت من الطبقة السَّاحقة». اشتدَّت ضرباتي على جذع الشجرة وأنا أصرخ «والطبقة السَّاحقة تسحقني. سحقًا للساحق والمسحوق، أنا لا يعنيني كلّ هذا». وبهدوء عادت تردِّد جملًا ومصطلحات كنَّا قد قرأناها في المنشور معًا. لوَّحت بالغصن ثمَّ كسرته وأنا أخلّفها وحيدة، ومشيت وأنا أتمتم «معسكر شرقيّ ومعسكري غربيّ وبطيخ الشام. وأنا أين معسكري؟ العامل والفلَّاح والبرجوازيّ المدلّل والمطلوب أن أنقذ العامل والفلَّاح من البرجوازي المدلّل. لكنَّني لست مدلَّلة. أنقذهم؟ ومَنْ يُنقذني أنا؟ وهل باستطاعة الغريق أن يُنقذ؟ بلا مساخر!؟.

...هادنتُها وصالحتها وسحبتها من يدها وقلت لها: «أنت لطيفة وظريفة لكنَّك لا تفهمين». قالت بأدب «كيف؟» قلت لها «افرضي أنِّي انتُزعت من هنا ووُضعت هناك، في موسكو، فهل أتغيَّر؟» قالت بإيمان «طبعًا». قلت «وإخوتي فؤاد وجمال وعلي، هل يتغيَّرون؟» قالت «طبعًا» قلت «وهل يكفُّون عن التبوُّل عطرًا؟» قالت برصانة «خلِّينا في الجدّ». «طيّب، الجدّ، حتَّى لو وُضعت هناك، فكيف أنسى ما نشأت عليه؟» قالت «لن تنسي كلِّيًا ولن تتغيَّري كلِّيًا، لكن أبناءك سيتغيَّرون». «وما ورثته من مشاكل، ألن ينتقل إلى أبنائي؟» «ينتقل جزء منه.» «وتفضيلي للذَّكَر على الأنثى؟» ابتسمت فصحتُ «لا تضحكي، أنت نفسك ألَّا تتمنَّين أن تكوني ذَكَرًا لا يخاف من مغص الشهر ولا غشاء البكارة ولا من الوقاحة والقتل؟ لا تضحكي، ألَّا تتمنَّين أن يدلِّلوك ويخدموك ويجعلوك الحارس والمحروس ويضيئوا لك الشموع والمبخرة ويرقوك من عين الحسود؟»

هربت منِّي وتركتني أكسر فروع الكينا وأنتف الأوراق وأحفر على الجذع وجوهًا عفريتيَّة لها ضحكات سمجة وعيون يتدلَّى منها خرز أزرق وشبَّة وزبيب. فبعثت إليَّ بقصاصة مع فتاة صغيرة تضع على رأسها كرديلة حمراء وتضحك بخبث، ناولتني القصاصة وهربت. فتحتها فوجدت فيها «برجوازيَّة.» وضعتها في جيبي وتوجَّهت بها نحو الحمّام.

أمَّا الإرباك الأبلغ فيتجلَّى في الموقف التالي حين ذهبت خليةُ مقاومين بأكملها فداءً لشرف البنت.

«ابنة الجارة تحكي قصَّة رجل له ابنة متعلِّمة جريئة، قالوا له يومًا إنَّ ابنته تدور مع الشبَّان وتقوم بما لا يُرضي اللَّه وشرعَ الناس. وقيل له: تعالَ يا رجل انظر بعينك. ووقف عند الجبل هناك. وجاءت

ابنته وأخرى في صحبة مجموعة من الشبان. تبعهم في آناء اللَّيل حتَّى المغارة، وهناك اكتشف أنَّهم يصنعون القنابل. وفهم الرجل واستوعب وأحسَّ أنَّ الدُّنيا بطوله، لكنَّ العيلة وشرف البنت! ودار من حيّ لحيّ ومن مقهى لآخر يقول لهم: بنتي شريفة، بنتي نظيفة، بنتي جدعة تعمل ما يعمله الرجال. ودار القول ودار ودار حتَّى وصل مقر الحاكم. وكانت قضَّة. مسكوا الثوَّار، ضربوا واحدًا لم يتحمَّل الضرب فاعترف عن أوَّل دفعة، وآخر عن ثاني دفعة، وآخر عن ثالث دفعة، وكان المجموع أكثر من خمسين مقاومًا، كلُّهم ذهبوا فداءً لشرف البنت وشرف العيلة.»

يجسِّد لنا المشهد أعلاه بوضوح غيرِ قابل للجدل أنَّ مفهوم الشرف الأنثويّ ما زال يتحكَّم فينا ويحكمنا أكثر من الشرف الوطنيّ، وأنَّ الغالبية منَّا، من شعبنا، ما زالت تضحّي بالشرف الوطنيّ في سبيل الحفاظ على الشَّرف الأنثويّ. وهذا يعني أنَّ ثورة المرأة وتمرُّدَها على المستوى الفرديّ أمر صعب جدًا، يكاد يكون شبه مستحيل، في وسطٍ ما زال ينظر إليها تلك النَّظرةَ المتوارثة فيعدّ عليها أنفاسها ويلاحقها ويعاقبها، وأحيانًا يجرم فيها ويقتلها فيما لو خرجت على النصّ التقليديّ ولو مسافة خطوة أو قيد أنملة. وهذا ما أدّى، على مرّ العقود، إلى قلَّة مشاركة النساء في الثورات الوطنيَّة بشكل جماعيّ واضح، وبالتالي عدم مشاركتها السياسيَّة التي توسّع آفاقها وتمنحها الفرصة لاكتشاف نهج في المقاومة ينفعها في تناول مشكلتها الخاصَّة، أي مشكلة تخلُّفها وتحرُّرها. ولو أنَّ قيادات الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة، وقيادات الحركة القوميَّة العربيَّة بشكل عامّ، على الأقل اليساريَّة منها، بادرت إلى تبنّي طرح جديد لمشكلة المرأة كما عملت على تبنّي طرح جديد للمشكلة الطبقيَّة والصراع الطبقيّ، ونجحت إلى حدّ ما في نشر ذاك الطرح بين الشرائح الموالية والمؤازرة لها، لساهم هذا الطرح في بثّ مفاهيم جديدة عن المرأة، ولخفَّف من غلواء القيم المتوارثة عن قصورها ودونيَّتها. إلَّا أنَّ تلك القيادات والتَّنظيمات، الفلسطينيَّة والعربيَّة، وحتَّى اليساريَّة منها، أبقت على المفاهيم التقليديَّة تجاه المرأة حتَّى داخل التَّنظيمات والأحزاب نفسها، وبذلك لم تفقد المفاهيم والممارسات التقليديَّة استمراريَّتها. والمشهد، أو الموقف الدرامي التالي يجسِّد ذلك. إذ إنَّ شخصيَّة نوال، صاحبةِ المنشور، وموزعتِه، والمؤمنةِ بما جاء فيه، هي أيضًا لها قضَّة تجسِّد ذينك التناقض والارتباك. وتتلخَّص قضَّتها في أنَّها أحبَّت أحد الرفاق كما أحبَّها، لكنَّه حين قرَّر الزواج وبناء عائلة تزوَّج على الطريقة التقليديَّة من فتاة قرويَّة من عائلته، شبه قاصر، فتاة «ما باس تقها غير أمّها.»

«ـ رجل ثوريّ يفعل هذا؟ أهذا هو ثمن المنشور!

تساقط عنها قناعُ الصرامة وباتت مثلي، قطّةً تبحث عن نار الشتاء. بكت نوال على نفسها لأوّل مرّة، كانت ما تزال تحنّ إليه. أحبّها وتزوّج أخرى. لماذا يا نوال؟ لماذا؟ صحت في حديقة المنتزه المهجور فتطايرت العصافير النائمة وقفزت قطّة.

ـ رجل ثوريّ يفعل هذا، لماذا؟

ابنة عمّه، فتاة صغيرة لا تفقه شيئًا. ولم تجب نوال. وظلّت على المقعد الخشبيّ تبكي بتأثير النبيذ والحبّ الضائع

...وكانت تبكي في راحتيها. أين نوال؟ أين الصرامة والكبرياء! لم تقل شيئًا، لم تفسّر، وظلّت تبكي وأنا خلفها يدي تشدّ على كتفها والأخرى تمسح دموعًا تسيل وأضواء النوافذ والأغنية. هناك في بيت ما يجلس هو، ماذا يفعل؟ يستقبل ضيوفًا؟ يجامل الأقارب؟ يهدهد الأطفال في حجره؟ وأنا ونوال، في الحديقة المهجورة والليل والأغنية القديمة. وتذكّرت عنبر، طفلتي وسلوتي ومدفأة الشتاء. هذا الصيف القارس أبردُ من أعتى شتاء. ماذا يفعل؟ يبتسم لها؟ وماذا يقول؟ أنت حياتي العلنيّة؟ أنت المستورةُ مغمضةُ العينين والطلبات القليلة. وهي عابرة الطريق رغم الزفقة والرفاق وخيوط القضية. ألم أقل لكِ يا نوال، ألم أقل؟ ولم تجبني نوال وظلّت تبكي في راحتيها.»

---

1 نُشرت الدّراستان في بيروت في أواخر سبعينيّات القرن الماضي، ولم توزّعا بشكل واسع ولم تحصلا على ما تستحقّانه من اهتمام، سواء من قبل قيادات الفصائل الفلسطينيّة أو من قبل القرّاء. ولم تتسنّ لي، أنا الكاتبة النسويّة، فرصةُ الاطّلاع عليهما إلّا في أواخر ثمانينيّات القرن الماضي.

2 باشرت النساء بتبنّي طروحات متقدّمة لتغيير وضع المرأة، وذلك في مرحلة لاحقة، حين أُنشئت لجان المرأة المنبثقة عن الفصائل والأحزاب الفلسطينيّة. إلّا أنّ انحسار المدّ الوطنيّ بعد اتفاقيّة أوسلو أدّى إلى تراجع أنشطة لجان المرأة وإنجازاتها، وخصوصًا مع انتشار مفاهيم الإسلام السياسيّ التي ساهمت في إعادة المرأة إلى الحجاب والبرقع وغطاء الكفّين، بعد أن كانت تحرّرت منها في بداية الخمسينيّات في حركة جماعيّة تسمّى «السفور».

لم أكن أعرف كم هي قليلةُ الماءِ والخضرة بلدي إلّا حين خرجت إلى الدُنيا الواسعة ورأيت الفرقَ. طوال حياتي، حتّى ذلك الحين، أيْ حتّى نهاية السبعينيّات، وأنا أظنّ أنّ فلسطين هي الأخصبُ، وجنّةٌ على الأرض. وتلك الصُورة التي احتفظ بها المحتلّ اليهوديّ من العهد القديم، جاءت لتعزّز ما كان في مخيّلتنا، ومخيّلته، عن أرض السّمن والعَسَل، حيث عنقودُ العنب بحجم خروف يتقاسم حَمْله رجلان فيعلّقانه على عصًا تستقرّ على كتفيهما كما تُعلّق الذبائح فوق السفود!

ابتسم الملحق الثقافيّ الأميركيّ وأنا أفسّر له وَلَهَ اليهود المزعومَ بهذه الأرض وجنونَهم بأرزاقها، وأنّ دافعهم ليس الدينَ، ولا وعد اللّه، بل لأنّها أخصب بلاد الدنيا قاطبة، حيث عنقود العنب يتشارك في حمله رجلان، لأنّه أثقل من خروف أو عجل صغير.

سألني، بابتسامة مبطّنة بالسخريّة وخبث مقصود:

ـ وهل ما زال عنقود العنب الفلسطينيّ بحجم خروف أو عجل صغير؟

قلت بنفور:

ـ ما عاد كذلك بسبب الاحتلال.

سأل، وما زالت الابتسامة على وجهه:

ـ وقبل الاحتلال؟

قلت بحدّة:

ـ هم أخذوا الساحل الخصب وأبقوا لنا الجبالَ الصخريّة وشحّ الماء.

هزّ رأسه والابتسامة السّاخرة ما زالت على وجهه، فتمنّيت صفعه أو قتله، لكنّي تمالكت نفسي وواصلت شرحي بفارغ صبر:

ـ لا نفط لدينا ولا معادن. ما لدينا هو ما ذُكر في الكتب السماويّة عن التين والزيتون وطور سينين. . .

رفع كفّه في وجهي كي يوقف استفاضتي في الكلام، وقال بسرعة:

ـ وتقول الكتب السماويّة إنّ اليهود بعد أن تاهوا في رمال سينين أو سيناء أربعين سنة عاد إليهم الكشّافةُ بأقوال ما زلتم تتناقلونها حتّى الآن عن أرض السمن والعسل، حيث عنقودُ العنب بحجم خروف أو عجل صغير. بدت فلسطين جنّة على الأرض بعد ضياع في رمال الصحراء وحَمّ

القيظ. أمَّا الواقع، فهو أنَّ هذا البلد، وكلَّ البلاد العربيَّة، تعاني قلَّةَ الماء والجفاف وزحف الصحراء.

وقال وهو يلوي شفتيه ويرفع كتفيه، حين رآني أهزّ رأسي غيرَ مصدِّقة ادِّعاءاتِه:

ـ غدًا تصلين إلى أميركا وترين الفرق.

وهذا ما كان. رأيت العشب يلمع بالشمس ويتهدَّل بأطوال تكاد تصل إلى نصف ذراع أو أكثر، حين خرجت من مطار نيويورك ووقفت على الرَّصيف لأوَّل مرَّة، وشاهدتُ الشجر يصل إلى عنان السماء ويتفجَّر بخضرة أوراق تكاد تصل إلى الأرض، لثقلها ونضارتها. وتخيَّلت لو أنِّي شككتها بدبوس أو إبرة لاندفع الماء في وجهي مثل النوافير.

كان هذا أوَّلَ انطباع عن أميركا وجوِّها. ماءٌ وسماء تمطر في الصيف، ورائحة بخار الأرض وتخثّرها ونثيثها. ثمَّ النِّظام وحركات الناس. فالخطو سريع ونظرات الناس زجاجيَّة تحدِّق في أهداف أماميَّة، فلا تلفُّت على الجانبين ولا تلصُّص، بعكسنا نحن، فكلّ واحد يسابق الآخرين نحو هدفه، ولا وقت لديه للفضول ومراقبة الناس.

هذا جميل، فعلًا جميل. هنا يعيش الناس، كلّ بحاله من دون قلق من تدخُّل الآخرين وتلصُّصهم. هنا تعيش النساء بحرِّيَّة ولا يضطررن إلى الدِّفاع عن أنفسهن في إثر كلّ شهيق أو زفير. هنا يسافر المرء من أوَّل القارة إلى آخرها من دون أن تستوقفه الحواجز وكلاشنات الجيش أو الشرطة. هنا النَّظافة والظرافة وألَق الأسواق المكتظَّة ببضائعَ تخطف الأنفاس وتُبهرها، وأكلٌ وشربٌ أرخصُ بكثير ممَّا لدينا على الرَّغم من الغنى والدخل الوفير. هنا ناطحات سحاب خرافيَّة وناقلات بضائع ومحروقات بأحجام تنافس ناطحات السَّحاب بضخامتها. هنا كلّ شيء مختلف عمَّا لدينا، لهذا فُتنت.

لكن افتتاني لم يدم إلَّا أشهرًا. فحين شبعت من نظافة الأسواق والشوارع، والتزام الناس بنظام السَّير، والعيش بعيدًا عن فضول الآخرين وتلصُّصهم، بدأتْ تتكشَّفُ لي القشرةُ عمَّا تخفيه، وما تخفيه كان الأعظمَ. لكنَّ الدخول تحت القشرة لم يأزف بعد، فلديَّ الكثير ممَّا أقول عمَّا رأيت وما فعلت وما كان لرحلة أميركا من تأثير فيَّ، سواء على المستوى الأدبيّ أو الشخصيّ. ولأبدأ من البداية، من أيوا.

دُعيت إلى برنامج الكتّاب العالميّ المنبثق عن جامعة أيوا في مدينة

أيوا قبل حصولي على بعثة فولبرايت الدّراسيّة، وكانت الدّعوة لمدّة أربعة أشهر. شجّعتني إدارة جامعة بيريت على قبولها، وتعهّدت أمّي برعاية البنتين في أثناء غيابي فتردّدتُ، لكنْ قبلت الدّعوة في النهاية، وذهبت إلى برنامج الكتاب في أيوا في خريف ١٩٧٨.

أيوا ولاية زراعيّة في معظمها، وجلُّ اقتصادها مبنيٌ على زراعة الذُّرة والتبغ وتربية الخنازير. لكنّها لا تعدم نشاطات سياسيّة وثقافيّة لها وزنها، غير أنّ الأميركيّين، حين يذكرون أيوا، سواء في الساحل الشرقيّ أو الغربيّ أو حتّى في الوسط، فإنّما يذكرونها بشيء من الاستعلاء والتنذُّر، كعادة أهل المدن تجاه الريف في كلّ مكان. لكنّي أنا، أنا القادمة من مدن محاصَرة اجتماعيًا قبل أن يحاصرها الاحتلال ويزيدها شقاءً على شقاء، واختلالًا على اختلال، فقد وجدتُ أيوا في غاية الكرم والانفتاح والنّظافة. فالمكان الذي تجلّت فيه روحُ التسامح والألفة بين مختلف الأعراق والمشارب، أيّ برنامج الكتاب العالميّ، هو واحة أدبيّة لا تمثّل الوجهَ الحقيقيّ لأميركا، فهو شبه معزول عن العالم ولصيق به. معزول عن العالم لوجوده في منطقة زراعيّة لا تحظى بأضواء الإعلام والسياسة، ولصيق به، لأنّه يستضيف سنويًا، طوال أشهر، عشراتِ الروائيّين والشُّعراء والقاصّين، من جميع أقطار العالم، من كلّ الأعراق والخلفيّات الثقافيّة والسياسيّة، وتجعلهم يعيشون تحت سقف واحد في بناية ضخمة تسمّى «مي فلاور»، وتهيّئ لهم أجواء شبه مثاليّة لمن يريد الكتابة والإنتاج بجدّيّة، ولمن يريد الاستجمام ونسيان الأعباء الروتينيّة التي أثقلت كاهله في بلده. وأنا حصلت على الاثنين، إذ كتبت خلال الشهور الأربعة التي أمضيتها في «المي فلاور»، جزءًا كبيرًا من روايتي **عبّاد الشّمس**، كما استمتعت بانفتاح أجواء لم أرَ مثلها في حياتي، وخرجت من حصار الاحتلال وحصار المجتمع وأعبائي الشخصيّة، وتعرّفت إلى روائيّين وشعراء من بلاد وخلفيّات مختلفة، صادقتُ بعضهم، وتعاطفتُ مع بعضهم، واستمعتُ إلى وجهات نظر مختلفة عمّا كنّا نتداوله في بلادنا لما يدور في الاتّحاد السوفياتي والصين الشعبيّة. وظننت، وأنا أستمع إلى وجهات النّظر تلك، أنّ هؤلاء الكتّاب هم عملاء لأميركا مدسوسون بيننا للتأثير فينا وإعطائنا انطباعاتٍ سلبيّةً عن النُّظم الاشتراكيّة. وفيما بعد، بعد سنوات ليست طويلة، أي بعد انهيار الاتّحاد السوفياتي وانفتاح الصين على العالم، عرفت أنّ ما قيل حينذاك عن الجمود الفكريّ وحصار الحرّيّات الشخصيّة في النُّظم المذكورة، ما كان دسيسة ولا عمالة، بل هو واقع عاشه الكتّاب في تلك الدول وعانوا جزاءه قبل أن ينهار النّظام أو ينفتح ويتغيّر.

كانت أيوا بالنسبة إليّ، وما زالت، برنامجَ الكتّاب العالميّ. وبرنامجُ الكتّاب العالميّ كان يتمركز حول مؤسّسَيه بول أنجل وزوجته هوالين نيه أنجل. كان بول أنجل شاعرًا أميركيًا انفتح على الحضارات العالميّة وانحاز إليها. وعلى الرّغم من أميركيّته الأصيلة، فإنّه حين يذكر أميركا والأجواء الأميركيّة كان يرسم بعباراته وتعابيره ما يشي بعدم الاكتراث والتنذُّر. وزوجته هوالين هي روائيّةٌ صينيّة، صغيرةُ الحجم، جميلةُ الرُّوح والوجه، طيّبةُ القلب، كثيرةُ الابتسام. وهو، أي بول، حين يقارن زوجته الصينيّة بالنساء الأميركيّات، كان يُسبغ عليها أوصافًا تكاد، لندرتها وعذوبتها، تصيب أيّ امرأة في الدُّنيا باكتئاب الحسد. كان بول العاشقَ الأبديّ لهوالين وبرنامج الكتّاب العالميّ، وهوالين تحبّ بول وبرنامج الكتّاب لأنّهما يهيّئان لها أجواء تساعدها على الإبقاء على روابطها الصينيّة وانتمائها إلى الثقافة الشرقيّة والعالميّة. هذان الشخصان، بول وهوالين، كانا شفيعَيّ في أميركا، وربّما أبوَيّ الروحيّين طوال سنيّ مكوثي فيها، سواء كضيفة في برنامج الكتّاب العالميّ، أو كطالبة في الدّراسات الجامعيّة.

خلال زيارتي الأولى لأميركا، حيث استُضِفت في برنامج الكتّاب العالمي، تعرّفت، مع الكتّاب الآخرين، إلى أجواء أيوا الزراعيّة. حقول الذُّرة الممتدّة امتدادَ النّظر، وأكشاك تجفيف أوراق التبغ المنتشرة في المزارع، تحاذي صوامعَ الحبوب التي تضاهي بناية «المي فلاور» بضخامتها، وإسطبلات الخنازير التي تزكم الأنوف برائحتها. تلك الرّائحةُ التي تسبّب الصداع والغثيان والدوخة، قالت عنها إحدى زوجات المزارعين: هذه رائحة الذّهب. وكانت تعني أنّ في مقابل تلك الرّائحة يحصد المزارعون ألوف الدولارات التي توفّر لهم طِيبَ العيش والرفاهية والرّزق الوفير. وهذا ما رأيناه فعلًا، فالأرض خيّرة معطاءة، ما زالت جديدة لم تُستنزَف، والمطر سخيّ حتّى في الصيف، وصوامعُ الغلال الضخمة مملوءة عن آخرها بالحبوب والذُّرة، ومرائب المزارعين تحتوي على أحدث الآلات الزراعيّة من جرّارات وحصّادات وبذّارات وعربات رش مبيدات حشريّة، وكلّها من تصنيع شركة جون دير الزراعيّة التي استضافتنا في غداء فخم استمعنا خلاله إلى شُروح فيّاضة لا تخلو من التبجُّح والدعاية، فتغامزنا نحن الكتّاب فيما بيننا، وخصوصًا مَن جاءوا من دول العالم الثالث والأنظمة الاشتراكيّة، وقلنا همسًا: هذي أميركا! لكنّا حين عدنا إلى بناية «المي فلاور» وحضرنا إحدى تلك الحفلات الصاخبة التي تشاركث في إعدادها روائيّةٌ برازيليّة وشاعرةٌ أفريقيّة، وأكلنا وشربنا واستمعنا إلى أشعار وأغنيات لاتينيّة وأفريقيّة، قلنا أيضًا: هذي أميركا، أي أميركا حيث

تختلط الحضارات والأعراق وحتّى اللُّغات. وهذا لا يعني الانسجام أو المساواة بينها وعدم التّمييز، لكنّها موجودة ومتاحة، وما عليك سوى أن تختار إلى من تنحاز. وقد انحزت فيما بعد، أي حين عدت إلى أميركا كطالبة جامعيّة؛ انحزت إلى السُّود والملوَّنين، ثمَّ إلى المزارعين البيض الذين استضافونا قبل سنتين وغبطناهم، بل حسدناهم على رخاء عَيشهم ورفاهيتهم، وقد أصبحوا مُعدَمين بعد أن فقدوا مزارعهم وبيوتهم وآلاتهم الزراعيّة حين استولت البنوك على ممتلكاتهم بسبب الجفاف. توقُّف المطر الصيفيّ لعدّة مواسم، ولم يعوّض الثلج الشتويّ القارس خسائرَهم، بل ساهم في إفناء العديد من مواشيهم، فتوقَّفوا عن تسديد ديونهم إلى البنوك، فحاصرتهم وعصرتهم. وهذه أيضًا نقيصة أميركيّة، إذ إنَّ السّمة الغالبة في المجتمع الأميركيّ هي الاقتراض من البنوك بشكل شبه قسريّ أو تقليديّ. الكلّ يقترض، والكلّ يرهن، والكلّ يسدّد. وحين يشحّ الدَّخل أو المحصول، يستولي البنك على المرهون، سواء كان بيتًا أو مزرعةً أو سيّارة، ويعرضه في مزاد علنيّ ويأخذ ما تحصّل، ويصبح المقترض فقيرًا مشرَّدًا يستحقّ الإحسان بعد أن كان ملّاكًا منعَّمًا يتغنّى بالرفاهية وتحقيق الحلم الأميركيّ. وهذا ما رأيناه فعلًا وحقًّا. ألوف المزارعين من جميع أنحاء وسط أميركا يخرجون من بيوتهم ومزارعهم صِفْرَ الأيدي، و«ربّي كما خلقتني»، وهم يبكون ويشدُّون شعورهم ويصرخون، ويعيشون في خيام كخيام اللّاجئين الفلسطينيّين، أو يدورون هائمين على وجوههم في المدن الكبرى يبحثون عن أعمال خدميّة كعمّال نظافة، أو يصبحون Hobos[1] أو Bums[2]، أي مشرَّدين من دون مأوًى، ينامون على الأرصفة، ويفترشون الأرض، أو يعيشون داخل صناديق كرتونيّة أو خشبيّة ضخمة، أو حتّى في أقبية المجارير. هذه أيضًا أميركا. فهؤلاء، وقد رأيت بعضهم بأمّ عينَيّ، ينامون على أرصفة الشوارع، في عزّ البرد، والحرارة تتدنّى درجاتٍ عديدةً تحت الصفر، يفترشون الأرض قرب مَجارٍ تُصدر بخارًا حارًّا، أو حول حاويات نفايات تحترق ببطء. رأيت العشرات منهم، لكنَّ الإحصائيّاتِ الرسميّةَ وغيرَ الرسميّة تقدّر أعدادهم بمئات الألوف، وبعض الدارسين والصحافيّين يقدّرون أعدادهم بالملايين، وهؤلاء هم أيضًا أميركا، ومن نسيجها الاجتماعيّ والاقتصاديّ والبشريّ.

أخذني شابٌّ فلسطينيّ بعد إحدى محاضراتي في نيويورك، وقد وعد بأن يريَني الوجهَ الآخر لأميركا. كان طالبًا ويعمل سائقًا في اللّيل ليؤمّنَ تكاليف دراسته الجامعيّة في النهار. قال إنَّ أميركا الغنيّة ليست غنيّة لكلّ الناس، وديموقراطيّتَها ليست نعمة مسبغة على كلّ الناس، وإنَّ

مجتمع الرفاهية البرّاق ليس مرفًها ولا برّاقًا لكلّ الناس. حتّى مَن خدموا أميركا في الجيش ودافعوا عن مصالحها أو جشعها في جميع أقطار الأرض، وحتّى مَن أُصيبوا في حرب فييتنام، حين ينطرحون أرضًا أو يسقطون بسبب إصابة أو عاهة أو كِبَر السنّ، لا يجدون مَن يمدّ يدًا خيِّرة تُنقذهم.

كنّا آنذاك في أواخر السبعينيّات، وكانت آثار حرب فييتنام ما زالت عالقة في الجوّ وحياة الناس. وحين رآني غيرَ مصدّقة تقوُّلاتِه، وعد بتقديم الأدلّة والشواهد على ما يقول. فأخذني بسيّارة الأجرة التي يسوقها، بعد منتصف اللّيل، وتوقّف أمام أحد الأرصفة ونادى على جون. ورأيت رجلًا في منتصف الأربعينيّات بلحية شائبة وشعر منكوش يقترب من سيّارة الأجرة وهو ملتفٌّ ببطانيّة ممزّقة ويجرّ ساقيه كما لو كان مخدّرًا أو من أثر النعاس. مدّ يده إلى نافذة السيّارة، فأعطاه الفلسطينيّ كيسًا فيه ساندويش وتفاحةٌ وعلبةُ دخان، وسأله عن أحواله، ومازحه قليلًا قبل أن يقدّمه إليّ قائلًا: صديقي جون، كان ضابطًا في حرب فييتنام. فهزّ الرجل رأسه ولوى عنقه ولوّح بيده وهو يبتعد عنّا ويقف أمام الحاوية المشتعلة ليدفئ يديه المتجمّدتين مع العشرات من المشرّدين أمثاله، سُودًا وبِيضًا، رجالًا ونساءً.

هذه أميركا، نَعَم أميركا، وأميركا أيضًا هي الجامعات والمستشفيات والمصانع وناسا وهوليوود وديزني لاند.

وديزني لاند، لمن لا يعرفها، هي الفرح الطفوليّ وألعاب يختلط فيها العلم بالفنّ بإبداع الصناعة والتجارة. حين دعاني أعضاء في طائفة الكويكرز إلى إلقاء محاضرات عن الأدب الفلسطينيّ والقضيّة الفلسطينيّة، اشترطتُ أن يأخذوني إلى ديزني لاند. تهامسوا فيما بينهم وهم يبتسمون، فعرفت أنّهم يستغربون أو يستهزئون. فهم، الكويكرز، بما عُرف عنهم من تقشُّف وجدّيّة واهتمام بالمغلوبين على أمرهم والمسحوقين، يستغربون كيف تطلب كاتبة فلسطينيّة عُرفت بجدّيّتها وتوجُّهاتها اليساريّة زيارةَ ديزني لاند المعروفةِ في أوساطهم ببريقها الرأسماليّ الزائف وتجاريّتها. قلت: أريد أن أعرف ما هي ديزني لاند. سمعت عنها الكثير وشاهدت بعض أفلامها، وأريد أن أراها وأعرف لماذا تتمتّع بكلّ ذاك الصيت. سألوا باستغراب: أهذا شرطك؟! قلت بجدّيّة: هذا شرطي. في مقابل كلّ محاضراتي هذا شرطي. هزّوا رؤوسهم وقالوا: لا بأس. وقبل أن أبدأ سلسلة محاضراتي في ٧ ولايات مختارة من الساحل الشرقيّ حتّى الغربيّ،

استقبلني أحد مسؤوليهم في مطار لوس أنجلوس، وهو رجل ملوَّن من أصل كاريبي، في منتصف الأربعينيَّات، جذيّ الملامح ويتكلَّم برفق كما لو كان فيلسوفًا أو رجلَ دين. وأخذ يشرح لي في السيَّارة ما هي ديزني لاند وأهدافُها وتكاليفُها وأرباحُها وموقعُها الجغرافيُّ ومساحتُها، ثمَّ برنامج زيارتنا ذاك المكان، وعدد التذاكر التي اشتراها بالأمس استعدادًا لتلك الزيارة. كان يتكلَّم بجدِّيَّة مشوبة ببعض التنذُّر والسخرية، فسألته إن كان قد زار ديزني لاند من قبل؟ فالتفت إليَّ وابتسم وهزَّ رأسه يمينًا وشمالًا، وقال كما لو كان يعاتبني على أخذه إلى تلك المغامرة السخيفة: لأوَّل مرَّة! فابتسمت أنا أيضًا وقلت: إذن، فلتشكزني. قال متشكِّكًا: سنرى. قلت أنا أيضًا: سنرى. وقد رأيت، وهو أيضًا رأى، وكانت مغامرةً تستحقّ الرؤية، ثمَّ التأمُّلَ.

ألعاب، وطواحين هواء، وسفن قراصنة وهميَّة، ورقص وغناء في الشوارع، ومساحات شاسعة تعجّ بالأميركيِّين والسيَّاح تداعبهم دُمًى ومجسَّماتٌ آدميَّة بشكل أرانب ودببة وميكي ماوس، وعمالقةٌ يسيرون على أرجل خشبيَّة بارتفاع أمتار، وسَحَرةٌ ومشعوذون ومدرِّبو ثعابين وحيوانات، وآيس كريم وهمبرغر وشَعر بنات من السكر الملوَّن وأكشاك عصير وفواكه. عالم ساحر يُنسيك همومك وأعباءك ويُعيدك طفلًا مسحورًا لا همَّ لك إلَّا خوض مغامرة وهميَّة في أحد الأنفاق المعتمة المليئة بالشياطين والسَّحَرة، أو الانحشار في أحد الصناديق الدوَّارة أو الهزَّازة، والتعرُّض لصدمات تثير الضحك والخوف معًا، وتصمّ أذنيك صرخاتُ الركاب الخائفةُ والضاحكة والمستثارة.

التفتُّ إلى الكويكري أسأله رأيه، فرأيته مشدودًا مشدوهًا، وعلى وجهه أماراتُ الدَّهشة والسَّعادة. قلت له: ديزني لاند، دريم لاند؟ هزَّ رأسه وقال موافقًا: دريم لاند. قلت بتأمُّل: ألا تتمنَّاها لكلّ أطفال العالم؟ مدّ يده بأقماع التذاكر ليذكِّرني بالأسعار، وردَّ باقتضاب: لو كانت مجَّانيَّة من دون تذاكر. لم أعلِّق، فما يطمح إليه الكويكريون وأمثالهم بعيدُ المنال. بالنِّسبة إليهم، مثل ذاك الجوّ رفاهية، أو خداع محضٌ. وفي رأيهم، كان الأولى بمن يخلقون تلك الأوهام أن يبنوا ملاجئ ومدارس ومستشفيات. قلت بجدِّيَّة: لكنَّ الفنّ هو كذلك، الرَّسم والرقص والموسيقى، وحتَّى الأدب، ألا تعتقد؟ توقَّف عن المشي وحملق في وجهي للحظات حتَّى يفهم ما أقصد، ثمَّ هزَّ رأسه ولم يعلِّق. وأظنُّه كان مصدومًا من تعليقي. ألم يسمع أنِّي كاتبة ملتزمة بقضية شعب يعاني الفقر والظلم والتشرُّد؟ ألم تدعوني طائفته أو

مؤسّسته إلى شرح ظروف عيش قاسية ومُهينة تحت احتلال لا يرحم؟ فلماذا أدافع عن ديزني لاند؟ أليس غريبًا ومُعيبًا أن تُعجَب واحدة مثلي بديزني لاند، وفيما بعد بإبكوت سنتر؟

سأل بعد دقائق بدهشة وفضول: إذن، أحببتِ ديزني لاند؟ قلت مصحِّحة: تعني دريم لاند. أعاد السُّؤال: إذن، أعجبتك دريم لاند؟[3] قلت ببساطة ومن دون ادّعاء: أنسيت أنّي فنانة؟

وهذا ما قصدت أن أفسّره له، وبالتالي لهم، لأنّهم لا يعرفون، سواء الكويكريّين أو غيرهم من الأميركيّين والأوروبيّين أو حتّى الآسيويّين، أنّ الفلسطينيّين، كغيرهم من شعوب الدنيا المضطهَدة، ليسوا جميعًا مقاتلين أو مرضى ومعوزين وشحّاذين، ففيهم الأدباء والفنّانون والحالمون. وهؤلاء يقدّرون الإبداع من كلّ جنس وهوية، سواء كان بخلفيّة رأسماليّة أو اشتراكيّة أو حتّى شيطانيّة. فالفنّ فنّ، من دون جنسية ولا هويّة.

وإبكوت سنتر في فلوريدا هو صورة مكبّرة لما تحويه ديزني لاند، وأكثر إبهارًا وجدّيّة. هو للكبار، وأيضًا للصغار إذا أراد لهم الأهل التعمُّق في العلم والثقافة. ففيه دوائرُ شبيهة بالوزارات، وكلّ دائرة بحجم حيّ أو قرية، ولكلّ دائرة تخصُّصها، سواء بالعلم أو الصناعة أو الزراعة أو الفضاء أو التاريخ وحياة الكائنات الحيّة على الأرض قبل التاريخ بما فيها من ديناصورات متحرّكة شبه حقيقيّة، وثعابينُ طولها أمتار، وخفافيشُ ضخمة تنزلق من الفضاء وتكاد تصيبك بسكتة قلبيّة، وبراكينُ تحسّ بحرارة حممها تلفح وجهك ورائحة الكبريت تزكم أنفك، وطرائق الاتّصالات البشريّة قبل اختراع الدولاب وبعده، وحتّى الصاروخ، وكذلك الطاقة ومنابعها، بدءًا من حمم البراكين حتّى البترول، وصولًا إلى الطاقة الذريّة. فترى مثلًا، في الدّائرة الزراعيّة، وأنت في زورق كهربائيّ متحرّك فوق دهاليز مائيّة تعبر مساحات مزروعة، كيف يستطيع البشر أن يُنتجوا خيارة بحجم إنسان، أو بطيخة أصغر قليلًا من سيّارة فولكس فاغن بيتل، أو شجرة بندورة مزروعة داخل إناء صغير تحمل عناقيد لا حصر لها كما لو كانت شجرة برتقال أو شجرة كريسماس. وفي دائرة الفضاء، وأنت تحلّق داخل عربة معلّقة دوّارة، ترى من نوافذها كيف سيعيش الناس مستقبلًا في بيوت فضائيّة مجهَّزة بكلّ الوسائل المريحة والمفيدة، وماذا يأكلون، وكيف يطبخون، وكيف يتخلّصون من فضلاتهم، وأين يمارسون رياضاتهم، وماذا يعملون في أوقات الفراغ. وتاريخُ الكائنات الحيّة والحياة البشريّة في دائرة ثالثة، والبراكينُ، والديناصورات، والغابات الاستوائيّة؛ كلّ ذلك تراه

وتحسّ به وتعيش داخله وتشمّ رائحته وتلفحك حرارتُه أو برودته، ولا تتمالك إلّا أن تعجب. فعلًا تُعجب، بل يتملّكك الحسدُ والغيرة، وتنسى مَن الفاعل والمبدع، ولا يهمّك إن كان رأسماليًا أو اشتراكيًا، أو حتّى الشيطانَ نفسه بجلال قدره. ولو سألك سائلٌ رأيَك فيما ترى، فستقول له، إن كنت من ذوي الميول الفنّيّة والنيّات الحسنة: هذا الإبداع من صنع البشر، ومن الثقافة البشريّة. لكنّك ستجد من يلوّح أمامك بأعقاب التذاكر ويقول لك: أمَا كان الأولَى لو بنوا بدلًا من كلّ تلك الأحلام الخادعة مدرسةً أو ملجأ أو مستشفًى؟ فتغضّ الطرف وتهمس مذكّرًا: وماذا عن المتاحف والمسارح والسينما، وكلّ الثقافة البشريّة؟

---

1 عمّال يتنقلون من مدينة الى مدينة، ومن ولاية الى ولاية، بحثًا عن عمل.

2(٢) المشرّدون أو الصعاليك.

3 بلد الأحلام.

تلك هي أميركا، باختصار شديد، بمحاسنها ومساوئها، برأسماليّتها وعنصريّتها، بقوّتها وقسوتها وكفاءتها، بتحيُزها، بتجبُرها، بضخامة منجزاتها واتُساع فُرَصها، فلماذا لا نذكر في العادة إلّا وجهًا واحدًا ممّا نرى أو لا نرى، وهو في العادة الوجه الأسوأ؟ طبعًا سيقال إنّ أميركا غسلت دماغي لأنّي خرّيجتها وعشت فيها سنوات طِوالًا وخرجت منها بدكتوراه وتجارب قيّمة لا تُنسى. لكنّي أقول بصدق إنّي خرجت منها وأنا أقسم ألّا أعود إليها ثانية ما حييت، وكنت قد اكتشفت فيها الوجهَ الأقبحَ، ولم تعد تؤثّر فيّ مزاياها. وهذا ما وصفته في الصفحات الأولى من روايتي **الميراث**، حيث تقول البطلة زينة مجازيًا:

ما عدت أحسّ بالآخرين إلّا حين أكتب عنهم. فهم في الواقع ما كانوا سوى منافسين، وكنت أتغلّب عليهم. لا وقت عندي للحبّ، ولا للمشاعر، ولا للقرابة، ولا للصداقة. لا أحد سواي وسوى ديبورا. حتّى ديبورا غابت فذابت، وبقيت أنا، أسير في الدّرب وحيدة بقلب مقفر. لا أحد معي، لا أحد سواي، لا أحد لي، ولا أرى إلّا ظلّي. حتّى خطواتي تظلّ ورائي، وأسئلتي تبقى معلّقة بدون قرار. لا وقت لسؤال وجواب، ولا وقت لذكرى أو إحساس. فقط أركض.

... تعلّمت أكل الساندويشات وأنا أركض، تعلّمت أن أحتمل الصمت وأن أمضي الأيّام بدون رفاق. تعلّمت أن أجلس بالساعات في الجمعات بدون أغانٍ وبدون طَرَب. ولا غرابة في ذلك، فجدّتي ذات طبع جادّ، وكذلك كلّ زملائي وباقي الناس. كانوا طيّبين، صحيح، لكنّ الواحد للمفرد. وكلّ يدور في فلك ذاته. تعلّمت الدّرس وحفظته، فحجزت نفسي في قفص زجاج، والناس والأشياء خلف الزجاج.

...كان منظرنا لطيفًا وحديثنا طبعًا ألطف. لا نزاعات وعتاب، لا احتكاكات ونفور، وكيف تكون وبيننا تلك الجدران! باختصار شديد، لا نلمس أحدًا أو نُلمَس. وبالرّغم من كلّ ذاك السّلام، كان يترعرع في داخلي، تحت ذاك السّطح اللّطيف البريء شيءٌ بارد، فتغزوني الرعشة في كانون، وأحسُّها في عزّ الصيف. وحين يخيّم اللّيل وأطفئ الأنوار أنزوي في كرسيّ الجدّة الهزّاز، وأبقى ساعات في العتمة أرقب الجمر يتحوّل إلى رماد. وعندما تعود جدّتي في آخر اللّيل من إحدى الجمعيّات، تجلس بجواري وتبدأ بمطالعة صُحُف اليوم. في العادة، ومن

باب الذوق، كنت أُخلي لها الكرسيّ الهزّاز. ولكن عندما كنت أحسّ بالبرد يفيض من حولي ومن داخلي، أبقى في الكرسيّ الهزّاز وأبدو وكأنّي لست هنا. وفي الحال ترمقني جدّتي بإشفاق وتقول...: «يا إلهي العظيم! ماذا حلّ بنا؟ ماذا حلّ بأميركا والأميركان!»

هذا هو لبّ الموضوع وهذي أميركا: سباق، ركض مستمرّ، مجتمع استهلاك تتجلّى فيه الفرديّة في أقصى صورها، والأنانيّةُ، والعنصريّة، والوحدة. لا وقت للمشاعر، ولا للقرابة، ولا للصداقة. لا وقت لطموح سوى طموح العمل والإنتاج والرّبح السريع. لا وقت للتعرُّف إلى جار أو الاندفاع في تبنّي قضيّة عادلة أو التورُّط في محنة صديق. النّظام الاقتصاديّ لا يسمح، ولا الاجتماعيّ، ولا العائليّ. اغتراب نفسيّ عن الوطن، والأهل، وحتّى اغتراب المرء عن ذاته. كلٌّ محصور ومحاصَر داخل قفص زجاجيّ أو بلاستيكيّ، مثل الآلة.

لكن جدّيّتهم في العمل مضربُ الأمثال. الكلّ يعمل حتّى الأطفال. ما إن يبلغ الطفل العاشرة أو أكثر قليلًا حتّى يُشجَّع على العمل ضمن بيئته، وبحسب قدراته. يركب الولد دراجته صباحًا ويوزّع الجرائد، وتعمل البنت Baby sitter، أي جليسة أطفال. ويعملون في الصيفيّات، سواء في قصّ العشب أو ترميم المداخل والحدائق أو صيانة القرميد وما شابه. ويعملون في الجامعة في المطبخ أو الكافتيريا أو المكتبة، ويدّخرون ما يكسبونه لدراساتهم الجامعيّة وتكاليف الحياة المستقلّة عن أهلهم، إذ ما إن ينهي الابن (أو الابنة) دراستَه الثانويّة حتّى يخرج من بيت العائلة ويسكن مع رفيق أو رفيقة، ويتولّى أموره الحياتيّة بعيدًا عن أهله، سواء في المدينة نفسها أو في ولاية أخرى بعيدة. وهو يستقلّ، بتصرُّفه ذلك، استقلالًا ماديًّا ومعنويًّا تامًّا. وإذا ما احتاج إلى مبلغ ما لتسديد تكاليف دراسته الجامعيّة، فإنّه يقترض من والده بعقود رسميّة، أو من حكومة الولاية، أو من الحكومة الفدراليّة، وكلّ ذلك بصكوك وتعهُّدات قانونيّة يلتزم بواسطتها تسديد الدّين في وقت محدّد. وهذا يعني أنّ الأميركيّ ينشأ، منذ الطفولة، معتمدًا على نفسه، ويعرف أنّ الدُّنيا لا تؤخَذ إلّا غلابًا، وأن لا مجال للكسل والتراخي والاتّكال على الآخرين، ولا حتّى الأهل، فكلّ واحد يصنع نفسه بنفسه، وذلك بعكس العيّنة العربيّة من طلّابنا التي رأيتها وعايشتها وتعرّفت إليها من الداخل. فالفرق شاسع من حيث الجدّيّةُ والالتزام. أولادنا، نتيجة ما اعتادوا عليه من حماية وكسل وتقييد للحرّيّة والمواهب، غيرُ قادرين، حتّى لو أرادوا، على أن يكونوا جديّين ومستقلّين

عن الأهل ماديًا ومعنويًا، ولو بلغوا مرحلة الدكتوراه. ونادرًا ما رأينا شابًا عربيًا يعمل في الكافتيريا أو مكتبة الجامعة أسوةً بغيره من الشباب الأميركان. والمعروف أنَّ الطالب العربيّ في أميركا يعيش من مجهود أهله، وفي الغالب مجهود أبيه، يدرس ويصرف ويتمصرف على حساب أبيه، ولا يحرّك ساكنًا في محاولة جدّيّة أو شبه جدّيّة للبحث عن عمل جزئيّ أو وظيفة جزئيّة للتخفيف عن أعباء أبيه أو أخته. فكنت أراهم، في الجامعات التي درستُ فيها أو زرتُها، يتحلّقون حول طاولات ضخمة في مطاعمها أو الكافتيريات، يتبادلون الأحاديث والنكات والتعليقات بالعربيّة، ولا يتحدّثون بالإنكليزيّة إلّا في قاعات الدّراسة، وبلغة مكسّرة ركيكة، ولا يعرفون عن الحضارة التي يعيشون فيها إلّا أجواءَهم العربيّة، ولغتَهم العربيّة، وأكلَهم العربيّ في تجمُّعاتهم وسهراتهم وزياراتهم، وكلّ ذلك بالعربيّة. أي إنَّ ذهابهم إلى أميركا كان بالاسم والجسم فقط، أمّا العادات فواحدة لا تتغيّر، وكذلك اللُّغةُ، والمفاهيم، والدراسة، إذ يعتمد الكثيرون منهم، وخصوصًا مَن جاءوا من دول البترول، على شراء الأوراق والأبحاث الجاهزة في السوق الطلّابيّة. وظاهرة شراء الشهادات العلميّة من بعض الجامعات التجاريّة هي أيضًا متوفّرة ويستغلّها بعض طلبتنا بتهافت وسخاء. وحين يعودون إلى الوطن، يحتلُّون المناصب ويقودون بلادهم بالسياسة العشوائيّة الاتّكاليّة العبثيّة التي نراها.

هل أبالغ فيما أقول؟ ربّما. لكنّ ما أقوله مشابهٌ لما يقوله العديدون من طلبتنا المجتهدين، وهم قلّةٌ، أو مَن يشغلون مناصب تدريسيّة في الجامعات الأميركيّة، وهم أيضًا قلّةٌ، ولا يمثّلون إلّا شريحة رقيقة غير مؤثّرة في المجتمع الأميركيّ، بعكس اليهود. وما توارثناه من صور مضخّمة مفخّمة عن تأثير شعراء المهجر المبدعين، كجبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي وقلّة آخرين، وأكاديميّي المهجر ومفكّريه كإدوارد سعيد وهشام شرابي وقلّة آخرين، وعلماء المهجر وأطبائه كدبغي وزويل وقلّة آخرين؛ فهذا الذي توارثناه لا يمثّل الأكثريّة الساحقة للمهاجرين العرب في أميركا ولا الشخصيّة العربيّة. فالشخصيّة العربيّة، كما رأيتها متجلّية في العيّنة الطلّابيّة في الجامعات الأميركيّة التي درست فيها أو زرتها، هي ما ذكرته وذكره هشام شرابي في كتابه الجميل: **الجمر والرماد: ذكريات مثقّف عربيّ**، إذ يقول:

يجلسون جنبًا إلى جنب، يتهامسون ويتضاحكون. كلّما اشترك أحدهم في النقاش، كنت أتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبتلعني. كان الواحد

منهم يقدّم رأيه بشكل قاطع جازم، بلغة إنكليزيّة مكسّرة وبلهجة عاطفيّة خطابيّة...

أتيحت لي الفرصة في تلك الندوة وخارجها أن أراقب عن كثب سلوك زملائي العرب وأقارنه بسلوك زملائي الأميركيّين. وكان أوّلُ ما لفت نظري في السُلوك الأميركيّ روحَ الالتزام والشعور بالمسؤوليّة. كانت الدراسة والمطالعة والتّحضير بالنّسبة للطالب الأميركيّ مهمّةً أساسيّة تخضع لها كلّ الاعتبارات الأخرى. فكان عندما ينفرد في غرفته أو في زاوية من المكتبة، لا يُثنيه عن الدرس والمطالعة شيءٌ، فلا يسمح لنفسه بالراحة والترفيه إلّا بعد أن يُنهي ما يتوجّب عليه. وكان سلوك الطالب العربيّ على عكس ذلك تمامًا. كان دائمًا على استعداد لأن يضع كتبه جانبًا إذا سنحت الفرصة لتناول فنجان قهوة مع فتاة. كان حسّه بالمسؤوليّة مرتبطًا بما هو خارج عنه، بسلطة تقف فوق رأسه، لا بدافع داخليّ يلزمه ذاتيًا. فإذا غابت عنه السُلطةُ الخارجيّة (سلطة الأب أو الأستاذ) حلّت محلّها نزعةٌ فوضويّة تدفع به إلى التهرُّب من المسؤوليّة والسّعي نحو اللّذة. وإذا وجد نفسه حرًّا عجز عن استعمال حرّيّته...

ما تفسير ذلك، كلّ ذلك؟ التربيةُ القاصرة، ونقطة على السطر. هكذا يفسّر هشام شرابي في كتابه الشهير **مقدّمات لدراسة المجتمع العربيّ** سرَّ اتّكاليّة الشخصيّة العربيّة وعجزها وتهرُّبها. وأراني، بعد كلّ ما مررت به من هزّات وانتكاسات وتجارب، أصدّق ما يقول، بل أتبنّاه وأؤمن به وأتمنّى الخلاص منه وتغييرَه. ولكن، كيف؟

الوسط الأكاديميّ العربيّ المبدع في أميركا لا يمثّل إلّا القلّة، وإلّا فما سرّ تخلُّفنا عن التأثير في ذاك المجتمع الحرّ نسبيًا، والمهيّأ لكلّ الاجتهادات والمهيّئ لمختلف الفرص؟ فبالمقارنة مع اليهود الذين يحتلّون أرفع المناصب في الجامعات، ويديرون أرقى المؤسّسات بما فيها إدارةُ الرئاسة الأميركيّة، ويحتكرون وسائل الإعلام المقروءة والمرئيّة والمسموعة، والسينما، ويؤثّرون في الحياة الثقافيّة تأثيرًا عميقًا جادًا، ويديرون سرًّا أو على رؤوس الأشهاد منهاجَ السياسة الأميركيّة، ألا تصيبنا كلّ تلك الفروق بالاكتئاب والحسد المبهم؟ ألا تدفعنا كلّ تلك الفروق إلى التساؤل؟ وهذا التساؤل ألّا يفتح عيوننا على ما في ثقافتنا وسلوكيّاتنا وعاداتنا من جفاف وتصحُّر؟ ألّا نتساءل عن الأسباب التي تجعلنا في موقع الأدنى والأضعف، لا في أميركا فحسب، بل بين شعوب الأرض قاطبةً، بما

فيها شعوبُ أميركا اللّاتينيّة وبعض دول أفريقيا التي كانت مثلنا في الضعف وسبقتنا؟ ولماذا سبقتنا؟ ألّا يدفعنا كلّ ذاك إلى التساؤل؟ طبعًا يفعل، وهذا ما حاولتُ رصده في المجتمع العربي الأميركي، لأجد الأجوبة عن الأسئلة بين الأفراد والشرائح.

نحن في أميركا

المجتمع العربيّ في أميركا يتشكّل، في معظمه، من الطبقة الوسطى الصغيرة، بمن فيها من عمال ذوي أصول قرويّة، وباعةٍ في البقالات، وأجراءٍ في محطّات الوقود، وتجّارٍ صغار في سوق الأغذية والنثريات. تاريخيًا، في أواخر القرن التاسع عشر، حين بدأت الهجرة إلى أميركا الشماليّة، وكذلك الجنوبيّة، بدأها قرويون أغلبهم من بلاد الشام، هربوا من الفقر والقلّة وسفر برلك العثمانيّ، ولجأوا إلى أميركا بحثًا عن الأمان والرَّخاء وتحقيق الحلم الأميركيّ. هم ما كانوا يعرفون ما هو الحلم الأميركيّ، فقد كان معظمهم من الأميّين غير المؤهَّلين للأعمال الإداريّة أو الفنّيّة، لهذا عمل معظمهم أجراء أو باعةَ أقمشة وملابس ونثريات بالمفرق. يحملون البضاعة في رزم أو حقائب ضخمة على ظهورهم، يدورون بها من حيّ إلى حيّ، ومن ولاية إلى ولاية. وهذا ما أجاد وأبدع في وصفه الرّوائيّ اللبنانيّ ربيع جابر في رائعته الأدبيّة **أميركا**، إذ وصف بدقّة ما كانت عليه حياةُ أغلبية أجدادنا العرب في المهجر. يبدأ الفرد برزمة على ظهره، ومع الوقت تتحوّل الرزمة إلى عربة، والعربة تتحوّل إلى دكان، والدكان يتحوّل إلى مخزن يحتوي على كلّ أصناف المأكولات والمشروبات والنثريات، بما فيها اللّيف العربيّ والخضارُ المجفّفة والمشكوكة في حبال كالقلائد، والعرقُ اللبنانيّ والجميدُ الفلسطينيّ والسوريّ، وهذا ما وصفته في مدخل روايتي **الميراث** التي بدأت كتابتها في أميركا، مركزةً فيها، في البداية، على وصف الجوّ المسيطر بين تجمُّعات الجالية العربيّة، وكيف يعيش هؤلاء في قلب أميركا، في نيويورك أو ديترويت أو كاليفورنيا، في أحياء لا تختلف إلّا من حيث الاسمُ عن سوق الحميديّة في دمشق أو سقف السّيل في عمان أو البلد القديمة في نابلس. شوارع ضيّقة، في الغالب، محدودة النظافة، محاطة بدكاكين ومخازن عربية تبيع كلّ ما يخطر في البال من مأكولات ومشروبات وأقمشة وملابس جاهزة رخيصة، وتجارٌ صغار ما زال البعض منهم يرتدي الكوفيّة والقمباز والشروال، ونساءٌ قرويات يحملن مفارش القشّ وأطباقًها على رؤوسهن، فارغةً أو مملوءة، وهؤلاء النساء، يبعن الخضار والفواكه كما كنّ يبعنها في سوق البلدة القديمة في القدس وبيت لحم ورام اللّه، ويعشن حياة اجتماعيّة لا تختلف عن حياتهنّ في القرية العربيّة. فالمرأة ما زالت تحبل وتلد كلّ سنة أو سنتين، وتُعاقَب بالضرب من قِبَل زوجها إذا تخلّفت أو تخاذلت، ولا تحرّك ساكنًا إذا طلّقها أو تزوّج عليها، وتعامل بناتها كما عوملت هي في

طفولتها، فتقمعهنّ، وتوافق على تزويجهنّ كما تزوّجت هي، وتُعاد القصّة من أوّلها إلى آخرها في الجيل الجديد الذي يرث كلّ تلك العادت والمفاهيم والسلوكيّات، جيلًا بعد جيل. ويظلّ الجوّ العربيّ على حاله لا يتغيّر مهما ابتعدت به المسافات والأزمنة عن وطنه.

كيف هذا، ولماذا؟ كيف لا يتغيّر الإنسان مهما ابتعدت به المسافات عن وطنه؟ كيف لا يتغيّر الطالب في جامعته؟ ولا يتغيّر التاجر أو العامل في سلوكيّاته؟ ولا تتغيّر المرأة حتّى لو عاشت في أميركا؟ ما هو التفسير؟

برأي هشام شرابي، كما فسّر الأمر في كتابه الذي ذكرت، أنّ العائلة هي الأساس لكلّ ما يرثه الإنسان من مفاهيم وقيم وعادات وسلوكيّات، وأنّ السنين الأولى من عمر الذّكَر أو الأنثى هي التي تحدّد شخصيّته ومسار حياته. فالذّكَر العربيّ الذي يتربّى منذ طفولته الباكرة تربيةً ذكوريّة وتتشكّل لديه شخصيّة قضيبيّة phallic personality، لا يستطيع الخلاص من آثار تلك التربية في كِبَره مهما اختلفت الأجواء من حوله. والشخصيّة القضيبيّة، كما فسّرها شرابي، اعتمادًا على بعض المراجع النفسيّة والتربويّة، تتميّز باعتزازها بذاتها وبشعورها بأنّها شيء خطير، وأنّها هدية إلى العالم من قبل قوّة ربّانيّة. والذّكَر، بتربيته وشخصيّته الأساسيّة، حصيلةُ تربية أمّه لا أبيه. فهو موضع اهتمامها وعنايتها لأنّ قدومه إلى الدُّنيا هو دليلُ قيمتها ويمنح ضمانًا لمستقبلها، وهذا يندرج في علاقته بالأخوات والعمّات والخالات. ومع ذلك، فهو يحتقر المرأة ويعتبرها في مرتبة أقلّ بكثير من مرتبته، وإن جاز القول، فهي مخلوقة لخدمته ورعايته ومتعته واستمرار ذاته في نسله. وتلك العناية والرعاية التي تقدّمها المرأة إلى الذّكَر، والتي تولّد لديه إحساسًا هائلًا بالأهمّيّة، تولّد لديه أيضًا إحساسًا بالاتّكاليّة. والاتّكاليّة تنشأ في مرحلة الطفولة من كثرة التدليل والرعاية والاعتماد على الأُخريات للقيام عنه بما يتوجّب عليه القيام به. فإذا عطش فهناك من تحضر له كوب الماء، وإذا جاع فهناك من تُطعمه، وإذا اتّسخ فهناك من تنظّفه. وكذلك، فإنّ خوف الأمّ عليه من المخاطر يزرع في نفسه إحساسًا بالعجز والجُبن وصعوبة التكيُّف. فإذا حاول تسلُّقَ الدرج أو فتحَ الباب أو زحزحةَ كرسيّ، يجد من تقوم عنه بذلك. وهذا يعني أنّ تربيته لا تتيح له سوى مجال ضيّق لتحقيق ذاته. وبناءً عليه، فإنّ اتّكاليّته، واعتزازَه المفرط بأهمّيّة ذاته، ينتقلان معه من الطفولة إلى كِبَره وحتّى مماته.

ومن ناحية أخرى، فإنّ شخصيّة الأب السلطويّ المتسلّط هي

النموذج الذي يحتذيه الطفل الذَّكَر ويسعى إلى تقليده. فالأب هو صاحب السُلطة في العائلة؛ صاحبُ الأمر والنهي والكلمةِ العليا والقرارات الصائبة وغير الصائبة في تحديد مصائر أفراد أسرته، وما عليهم إلَّا أن يمتثلوا لتلك القرارت، ذكورًا وإناثًا، وبالذات الإناث، إذ إنَّ الأنثى في المجتمع العربيِ، بعكس الذَّكَر، تمثِّل عبئًا على العائلة لا هدية ربَّانيَّة، وهي غيرُ مرغوب فيها وغير معتبَرة، وتربّى كي تكون تابعة للذَّكَر في العائلة، ثمَّ للزوج من بعده. وقيمتها، كأمها، لا تتحقَّق إلَّا بما تقدّمه من خدمات، وما تلده من ذكور يرثون الاسم والسُلطة والأهمِّيَّة.

هذه، في المختصر المفيد، بعضُ التَّفسيرات للشخصيَّة العربيَّة وسلوكيَّاتها في أميركا وغير أميركا، كما فهمتها وفهمها بعض الدارسين الاجتماعيِّين من قَبلي ومن بَعدي. وما تركيزي فيما وصفه شرابي في كتابه إلَّا لأنَّه يوضِّح ويفسِّر باختصار شديد ما لاحظتُه ولمستُه، وهو ما سآتي على ذكره بمزيد من الأمثلة التوضيحيَّة.

حين زرت بروكلين ـ نيويورك لأوَّل مرَّة، وكان ذلك في إثر تلقيّ دعوةً لتقديم محاضرة نسويَّة من إحدى الجمعيَّات الفلسطينيَّة المعروفة بيساريَّتها وبرامجها التقدُّميَّة، وكنت قد أصبحت كاتبة معروفة بنسويَّتها ودفاعها الملتزم عن المرأة، وبما أنِّي كنت قد تلقيت دعوات مماثلة وحاضرت في عدد من الجامعات الأميركيَّة والأوروبيَّة، فقد اعتقدت أنَّ محاضرتي تلك ستكون شبيهة بتلك المحاضرات، وستكون في الأغلب أكاديميَّة. فلبست لباسًا رسميًا كما تعوَّدت، أي تايير مع ربطة عنق على شكل فراشة، وحملت محفظة تدريس معتبَرة كتلك التي يحملها أساتذة الجامعات ملأتها بمحاضرتي وبعضِ المراجع. وقبل المحاضرة استيقظت باكرًا، وراجعتها عدَّةَ مرَّات حتَّى لا أتعثَّر في لفظ بعض الكلمات أو أتجاوز شرح بعض النقاط وما شابه. كنت ما زلت مدفوعة بحماسة الشباب وحلم التَّغيير والتَّحدِّي الذي كنت ألقاه من بعض الشباب العرب المثقَّفين، أو أشباه المثقَّفين، الذين لا يتَّفقون مع طروحاتي النسويَّة ويتَّهمونني بالشوفينيَّة وتسويق الأفكار والسلوكيَّات الغربيَّة.

حضر شابان لأخذي من الفندق في الصَّباح، من أعضاء تلك الجمعيَّة، وكانا يرتديان الجينز وبهيئة مشعَّثة ومرتبكة، وأركباني سيَّارة قديمة مستهلَكة، وساقها أحدهما في شوراع ذكَّرتني بشوارع رام اللّه والبيرة، حيث التجارُ يلعبون النَّرد أمام دكاكينهم، والقرويَّاتُ بأثوابهن الموشَّاة بالتطريز الفلَّاحيّ يحملن أطباق القش على رؤوسهنّ، وحاوياتُ

الزبالة المليئة عن آخرها بالقمامة والقططُ تتقافز من حولها. علّقت تعليقات مندهشة فضحك الشابان ووعداني بمشاهدة المزيد. وهذا ما فعلاه، إذ أدخلاني دهاليز ذكّرتني بأسواق البلد القديمة في نابلس، سواء من حيث ضيقُها أو نظافتُها، ومن ممرّ إلى ممرّ حتّى وصلنا إلى مكان رثٌّ تبيّن أنّه مدرسة ابتدائيّة فيها مقاعد خشبيّة قديمة وجدرانٌ عارية ونوافذُ شحيحة الضوء وقذرة. وأمام المقاعد طاولةٌ أيضًا قديمة، طلب منّي الشابان أن أجلس خلفها في انتظار جمهور المستمعين. وذاك الجمهور حين توافد لم يكن أكثر من عشرين امرأة، معظمهن حوامل، أو من تحمل طفلًا أو تجرّ طفلين يتشبّثان بذيلها، ومعظمهن في عُفر لا يتجاوز العشرينيّات. رأى الشابان أمارات الدّهشة والانشداه على وجهي، فاقترب أحدهما من رأسي وهمس، كما لو كان يتشفّى: تفضّلي حرّريهنّ يا أستاذة. لم أُجِبه لأنّي كنت مشغولة بمتابعة ذاك المشهد وتلك الأصوات الصاخبة، وقد امتلأ الصفّ المدرسيّ بالنساء المشعّثات والأطفال النزقين والحوامل اللّواتي وجدن صعوبة في الجلوس على تلك المقاعد الخشبيّة الضيّقة. لم أعرف ماذا أقول وكيف أتصرّف، إلّا أنّ أحد الشابّين أسكتهنّ على طريقة أستاذ مدرسة ابتدائيّة بتصفيق يديه والصّياح وتوجيه الأوامر. وحين هدأن، طلب منّي أن أحاضر. أحاضر؟ أنا أحاضر؟ وفيمن أحاضر؟ أزحت محفظة المحاضرات من أمامي، وفكّكت الفراشة من حول عنقي، وخلعت الجاكيت وقلت: يا اللّه يا سثات، كلّ واحدة بالدور تحكي قصّتها، وسأبدأ أنا بقصّتي. وحكيت من دون إسهاب، وباختصار شديد، كيف تزوّجت زيجةً تقليديّة، وكيف طلّقت زوجي وبدأت حياتي من جديد فعملت وتعلّمت وتوظّفت، وكتبت عن المرأة العربيّة وما تعانيه من عجز ومعاناة ودونيّة. وبعد قصّتي، بدأت القصص تنهال تباعًا، وبعضها واكبتها الدموعُ والتّنهدات والشّتائم، وكثيرٌ من الحقد والحدّة والصراخ الفرديّ والجماعيّ، وأحيانًا ضحكات هستيريّة. ومختصر ما قيل، أنّ الأهل يزوّجون الفتاة في سنّ صغيرة قبل أن تكبر وتدور «على حلّ شعرها»، كما تفعل الفتاة الأميركيّة. وما إن تبلغ الفتاة العشرين إلّا وتكون قد أصبحت أمًا لعدّة أطفال، مهجورةً من زوج يسرح ويمرح مع كلّ فتاة أميركيّة يستطيع الوصول إليها. وحين يجد أميركيّة ترضى به، يطلّق العربيّة أو يهجرها. وتعود الفتاة وقد أصبحت امرأة إلى دار أهلها وأمّها القرويّة التي لا تنفكّ عن تقريعها لأنّها لم تعرف كيف تساير زوجها وتتحمّل نزواته وإهاناته وتستبقيه في حضنها وتنافس عليه المرأة الأميركيّة. هذه باختصار حياة معظم النساء اللّواتي قابلتهن في بروكلين وغير بروكلين، وعلى الأغلب معظم نساء الجالية

العربيّة، مستثنيةً قلّةً قليلة من نساء الطّبقة الوسطى العليا، وهؤلاء زوجاتُ رجالِ الفئة المتعلّمة الغنيّة وبناتهم، وهم وهنّ، كما قلت، قلّةٌ قليلة غير مؤثّرة في مجتمعها أو المجتمع الأميركيّ الكبير. فلا يغرّنّنا ما نسمعه عن حياة العرب في أميركا ومنجزاتهم العلميّة والأكاديميّة. فهؤلاء، كما سبق وقلت، المنجزون الناجحون، رجالًا ونساءً، لا يمثّلون إلّا القلّةَ، بل الندرة. أمّا أغلبيّة الجالية العربيّة فتعيش هناك كما نعيش في بلداننا، ضمن حدود مجتمعنا، وأفرادها مقيّدون بما ورثوه من قيم وعادات وسلوكيّات لا تختلف عمّا لدينا، وأحيانًا أسوأ، فهم بعيدون عمّا يستجدّ في مجتمعنا من تطوّرات ولو ضئيلة، ويظلّون يتوارثون ما جاءوا به من بلداننا قبل خمسين سنة، أو مئة سنة.

شكّلت تلك الاكتشافات والانطباعات عن الجوّ العربيّ في أميركا القاعدةَ الأساسيّة والهيكل العظميّ لروايتي **الميراث** التي بدأت كتابتها كجزء من أطروحة الدكتوراه، وأعدت كتابتها فيما بعد، أي حين عدت إلى بلدي وقرّرت نشرها، ولم أبقِ منها إلّا الجزء الأوّل، وذلك حتّى أصل إلى جوّي الفلسطينيّ، وكذلك الأجواء العربيّة، وأتواصل معه ومعها.

لكن رواية **الميراث** لم تبدأ من بروكلين، نيويورك كما ادّعيت في الرّواية، بل من مدينة جامعيّة، ومن عائلة عربيّة أميركيّة متعلّمة تعليمًا جامعيًا. الأب أستاذ جامعة عربيّ، والأمّ مدرّسة أميركيّة، وابنتهما الطفلة الجميلة البريئة دنيا، التي سمّيتها في الرّواية زينة، والتي ستكون إحدى أبطالي المؤثّرين فيها. فمن خلالها حاولت أن أرصد الفوارق المجتمعيّة والتربويّة بين المجتمعين، الأميركيّ والعربيّ، وما ينتج داخل الفرد العربيّ في أميركا، بتعرّضه لتلك الفوارق والتناقضات، من اهتزازات ومتاعب نفسيّة وسلوكيّة.

أمّا قصّة دنيا التي ابتدأت بها الرّواية، فمستمدّة من واقعة شاهدتها وعايشتها وتبلورت من خلالها بعضُ أفكاري وتوجُّهاتي النسويّة. فدنيا طفلة صغيرة في العاشرة من عمرها. جميلة، بشعر كستنائيّ فاتح يميل إلى الشقرة، وبشرة بيضاء زهريّة. وبعض حبّات النمش اللّطيفة المتناثرة فوق أنفها تزيد في مظهر طفولتها وبراءتها. ويمنحها حبّها للقطة كيتي وملاحقتُها لها في الحديقة وفوق الأشجار وسطح الدار شقاوةً محبّبة لطفلة صحيحة البنية وعفريتة. أمّا لغتها، فهي الإنكليزيّة ـ الأميركيّة طبعًا، فأمّها أميركيّة، ووالدها أستاذ الجامعة لا يخاطبها إلّا بالإنكليزيّة. لكنّه من باب الحفاظ على جذورها العربيّة حفّظها بعضَ الآيّات القرآنيّة، مثل «الفاتحة»، و«قل أعوذ برب الناس»، و«قُلْ هو اللّـه أحد». وكي تعزّز دنيا صداقتنا وتقترب منّي أكثر وتثبت لي أنّها مثلي عربيّة، تَلَتْ عليّ تلك الآيّات بلهجة مكسّرة لذيذة، وسمحت لي بأن أحمل قطّتها بعد أن أكّدت لي أنّها أيضًا عربيّة. فأحببت دنيا وقطّتها، وصرت كلّما زرت أصدقائي الجدد، أملأ جيوبي بحبّات الشوكولاتة والملبّس، وأحضر للقطّة كرة أو لعبة، وأمضي ساعات دافئة حنونة مع تلك العائلة العربيّة الأميركيّة، فأحسّ بأنّني بين أهلٍ من بلدي، وأنسى مشاعر الغربة موقّتًا، وأندمج بأحاديث وقصص حميمة، وطبعًا تتوّج زيارتي بأكلة دسمة لذيذة. فكرم أمّ دنيا الأميركيّة ما كان يختلف عن كرم الدكتور سليم، أستاذ الجامعة

ودماثته، بأصوله العربيّة الفلسطينيّة، والذي استقرّ في أميركا منذ أكثر من عشرين سنة، درس فيها، ودرّس فيها، وتزوج امرأة أميركيّة، وعاش حياة أميركيّة بكلّ ما فيها من جدّ واجتهاد ورفاهية. وكان يحتفل مع أسرته الصغيرة بأعياد الميلاد وعيد الشكر وعيد الفصح، على الرّغم من إسلاميّته، ويحتفل كذلك بالرابع من يوليو، عيد الاستقلال، أي إنّه بات أميركيًا قحًا، ولا تميّزه من غيره من أساتذة الجامعات الأميركيّين إلّا باسمرار خفيف في بشرته، ولون شعره، ورطنة خفيفة في لهجته.

بدأت ألاحظ بعد أقلّ من سنتين من صداقتنا، أنّ دنيا تزداد سمنة وضخامة. اختفى النّشاط من حركتها وباتت تسير ببطء وتثاقل، وفقد وجهها الكثير من رونقه وحلاوته، واختفت البسمة عنه، وما عادت تلاحق القطّة كعادتها. لفتُّ نظر كاثرين، أمّها، إلى سمنة ابنتها، فقالت إنّ دنيا تُكثر من الأكل وتناول الحلويات، ورجتني أن أكفّ عن إحضار الشوكولاتة. وهكذا، انتهى الحديث عن دنيا وسمنتها. لكنّي تلقّيت بعد أيّام، مكالمة من كاثرين، وكانت قصيرة وجدّيّة وجافّة على غير عادتها، وسألتني إن كنت على استعداد لاستقبالها في ذلك الوقت مع ابنتها، إذ كانت الساعة التاسعة مساءً، واليوم في منتصف الأسبوع، وهي تعرف أنّي خلال الأسبوع لا أقوم بزيارات ولا أستقبل الزوّار حتّى لا أتشتّت عن دراستي وكي أستيقظ في الصّباح متحفّزة نشطة. حاولت الاعتذار فألحّت، وقالت إنّ الأمر جادّ وخطير، فوافقت على مضض، ثمّ انتابني القلق من أن تكون حياة الأسرة مهدّدة بشقاق أو نزاع أو بوادر طلاق وما شابه، وعقدت العزم على أن أقوم بدور المُصلح بين سليم وزوجته، حيث إنّي بتُّ غير غريبة عن العائلة كما كانا يؤكّدان لي، وكما كرّمني هو عدّة مرّات بقوله إنّي مثل أخته وهو مثل أخي، وإنّي أصبحت جزءًا حميمًا من الأسرة.

دخلتا بوجوم، وطلبت الأمّ من ابنتها من فورها أن تغادرنا وتجلس في غرفة نومي وتغلق الباب، ففعلت دنيا ذلك بلا تردُّد كأنّها كانت قد اتّفقت وأمّها قبل قدومهما على ذلك. وحين أُغلق الباب قالت الأمّ بجدّيّة ووجهها يعبق بشتّى الانفعالات: حياة دنيا مهدّدة بالقتل، وأريد منك مساعدتي في حمايتها. فوجئت وصرخت بخوف: ماذا؟ دنيا الصّغيرة مهدّدة بالقتل؟ ممّن؟ هل لكم أعداء يريدون الانتقام منكم؟ هزّت رأسها نفيًا فواصلتْ: عصابة تريد ابتزازكم بخطفها؟ (طبعًا قلت ذلك وأنا أستحضر في ذهني ما أشاهده في الأفلام الأميركيّة عن حوادث الخطف والابتزاز والقتل وما شابهها.) لكنّ الأمّ هزّت رأسها ثانية وظلّت واجمة.

فقلت بقلق وحيرة: وماذا في استطاعتي أنا أن أفعل؟ أنا كما تعرفين غريبة، ولا أعرف أحدًا معرفةً شخصيّة غيركم. كيف أساعدكم وأحميها؟ وماذا عن سليم؟ ألم يُبلغ البوليس؟ حدَّقت الأمّ في وجهي ودموع رقيقة في عينيها، وقالت همسًا: سليم هو من سيقتلها. صحتُ بأعلى صوتي: ماذا! ماذا تقولين؟ غير معقول. لا يمكن. ماذا حدث؟ ما القصّة؟ خبّريني. قالت وهي ما زالت تحدّق في وجهي كأنّها تريد اختباري: دنيا حامل. شهقتُ ولم أعلّق، وأخذت الأفكار تدور في رأسي وأنا أتذكّر نساء بروكلين، الأمّهاتِ الصّغيراتِ والحواملَ اللّواتي زُوّجن خوفًا من أن تكبر البنت «وتدور على حَلّ شعرها» مثل الفتاة الأميركيّة. فهل فعلت دنيا الصّغيرة ذلك؟ فعلت ما تخاف منه العائلة العربيّة؟ لكنّ عائلة دنيا هي مزيج، وهذا المزيج ماذا أنتج؟ أيّ تناقضات؟ أيّ مشكلات؟ أيّ آفات؟ كما أنّ دنيا صغيرة جدًا، لم تبلغ الثانية عشرة، فهل وصلت إلى سنّ البلوغ؟ سألت أمّها: هل بلغت دنيا، أقصد العادة الشهريّة؟ قالت الأمّ بحزن واكتئاب: قبل أشهر، لكنّها الآن حامل. سألت بحزن، وقد أصبت باكتئاب شبيه باكتئاب أمّها: لكنّها بعدُ صغيرة! قالت الأمّ بلهجة تقريريّة: لكنّها الآن حامل. سألتُ غيرَ مصدّقة: هل أنت متأكّدة؟ هزّت الأمّ رأسها وقالت باقتضاب: في شهرها الخامس. صُعقت، لكنّي تذكّرت سمنة دنيا الفجائيّة وضخامتها وما قلته لأمّها بذلك الخصوص، فبهتُّ وأصابني نوع من الجمود، وأفكاري تتقاذفني يمينًا وشمالًا حتّى وصلت إلى السّؤال الأهمّ: وسليم، هل يعرف؟ قالت بحسرة: لم أقل له لأنّي أعرف أنّه سيقتلها على طريقتكم أنتم العرب. هززت رأسي بعنف، كما لو كنت تلقّيت صفعة أو إهانة، وقلت بحدّة: لا، لا، سليم لن يفعل هذا، فهو إنسان حضاريّ متعلّم. حدّقت في وجهي كما لو كانت تعاتبني أو تلومني: لكنّه عربيّ، أليس كذلك؟ قلت بحدّة: وَلَوْ! سليم حضاريّ متعلّم وسيتفهّم. أنا متأكّدة. سليم لن يفعل ذلك. هزّت رأسها بحسرة: فعل، فعل. سألت بدهشة: فعل؟ متى؟ كيف؟ غطّت وجهها بيديها وأخذت تشهق. وحين هدأت قليلًا أخبرتني كيف فعل ذلك مع ابنته الكبرى التي لم أعلم بوجودها إلّا في تلك الساعة، وهي أكبر من دنيا بثلاث سنين. حين علم بحملها ركض خلفها بسكين المطبخ ليذبحها، فهربت من الدار وهو وراءها يصرخ ويشتم في الشارع كالمجنون ويهدّد بذبحها، وزوجته تركض خلفه لتمسك به وتحاول ثنيه، ولكن عبثًا. لجأت البنت إلى الجيران الأميركان فمنعوه من الاقتراب وهدّدوه بإحضار البوليس فعاد إلى بيته وهو يبكي ويشدّ شعره وما زال يهدّد ويتوعّد بذبحها لأنّها لوّثت شرفها وشرفه وشرف عائلته. غافلته الزوجة في صباح اليوم التالي وذهبت إلى

الجيران وأخذت ابنتها وهربت بها إلى بلدة صغيرة في جبل ولاية أخرى بعيدة حيث تعيش أمّها. وهناك عاشت البنت مع جدّتها الأميركيّة حتّى ولدت، وأعطت الطفل للتبنّي، وهي حتّى ذلك اليوم تعيش عند جدّتها وتعمل بائعة في مخزن للملابس بعد أن توقّفت عن دراستها. ومنذ ذلك الحين، فقدت الأمّ الصّلة بابنتها، وكذلك سليم، الذي اعتبر أنّ ابنته ماتت أو أنّه لم يُرزَق بها أصلًا، ولم تبق لديه إلّا دنيا، وها هي دنياه الآن حامل.

أيّ صدمة! طوال سنتين وأنا أزورهم ولم يأت أحد على ذكر البنت الكبرى ولو بالإشارة، ولا حتّى دنيا الصّغيرة ذكرتها. هذا، إذن، ما تفعله العائلة العربيّة. تقتل البنت إذا تعثّرت حتّى وهي حيّة! تقتل وجودها في العائلة، تقتل اسمها وذكرها وتصبح كأنّها لم تكن. لكنّ عائلة سليم ليست عربيّة صرفة، والبنت ليست عربيّة صرفة، فالأمّ أميركيّة، وسليم أيضًا أميركيّ الجنسيّة، لكنّ الجذور والعادات العربيّة بقيت كما هي، وتجاوزت الزوجة الأميركيّة والعادات الأميركيّة والقوانين الأميركيّة. وتذكّرتُ قصّة مشابهة كنت قد قرأتها في «الواشنطن بوست» عن عربيّ عاش معظم حياته في أميركا، في شيكاغو، وأصبح محاميًا ناجحًا ذا صيت وجاهٍ ويرأس مؤسّسة قانونيّة يعمل فيها أكثر من عشرين محاميًا ومحامية. وهذا المحامي الفذّ كان متعصّبًا ومتشدّدًا على زوجته وابنتيه، ويحاسبهن على كلّ شهقة أو زفرة. رضخت الزوجة الأميركيّة لعاداته وطباعه وتأقلمت، لكنّ البنتين المراهقتين قرّرتا الهرب والعيش بعيدًا عنه. وهذا ما فعلتاه، هربتا إلى ولاية بعيدة وعاشتا كما تعيش الفتيات الأميركيّات، أي تعملان نادلتين ليلًا في مطعم وتدرسان نهارًا في جامعة الولاية البعيدة. واستمرّت حياتهما على ذلك المنوال مدّة سنتين إلى أن فوجئتا بوالدهما المحامي القدير، ذي الشأن الخطير، يباغتهما فجأة، وسط المطعم، ليلًا، وفي يده مسدس عامر بالرصاص، ويُرديهما قتيلتين. كان قد استأجر مخبرًا (detective)، على الطريقة الأميركيّة، وقتلهما على الطريقة العربيّة. أي إنّ جذوره وتربيته الأساسيّة في طفولته تغلّبت على كلّ ما تعلّمه وعايشه ومارسه في كِبَره. تغلّبت ثقافته الأساسيّة على الثقافة المكتسبة أو الدخيلة، أو بالأحرى هو من عاش دخيلًا في حضارة لم تدخل في بنيته الأساسيّة. فهل هذا ما حدث لسليم: تتغلّب فيه القيم العربيّة على قيم الحضارة البديلة؟

كان لا بدّ من أن أدخل في ذاك النقاش مع صديقي الأستاذ الجامعيّ سليم حتّى أقنعه بتناقضات سلوكه ومنهجيّة حياته العائليّة. أهناك ما هو

أسوأ وأشدّ خطرًا وأقبح من القتل؟ أهناك ما هو أخطر؟ أهناك ما هو أكثر إجرامًا وجهلًا وأنانية؟

ذهبت الأمّ وتركت الطفلة الحامل لتنام عندي. أعطيتها شيئًا تلبسه لتنام به، وحين دخلتُ عليها وهي تخلع ملابسها فوجئت وذُهلت بمنظرها. جسد طفلة، ورأس طفلة، ووجه طفلة، وبطن امرأة حامل في شهرها الخامس. منظر مأساويّ محزن. وحين سألتها كيف حدث ذلك، أي الحمل، قالت بحيرة وبراءة: كنّا نلعب. ماما وبابا طوال النهار في الشغل، وأنا وحدي في الدار. يجيء أصدقائي ونلعب «بيت وبيت»، أنا الأمّ وتوم الأب. ولم أعرف أنّي حامل إلّا حين تحرّك شيء في بطني. حاولت إسقاطة بأن أخذت أقفز عن الشجر والسقيفة والسُلّم فلم ينزل. حكيت لأمّي فجاءت بي إليك، فهل تساعدينا على إسقاطه؟ لم أُجبها بنعم أو لا، لكنّي غطّيتها جيّدًا مع دبّها المصنوع من الفرو، والذي اعتادت على النوم وهي تحتضنه. وبقيت طوال اللّيل أفكّر فيما عليّ أن أقول لوالدها، وما هي أفضل الطرائق لتهدئته وتغيير موقفه وتليينه.

كنت أعرف أنَّ مصير دنيا متوقِّف على ما أقول لوالدها وعلى قدرتي على إقناعه. كتبت رؤوس أقلام لما سأقول حتَّى لا أتشتَّت أو أنسى أيّ تفصيل مهما عرفت. وأهمّ تفصيل، بل أهمّ تفصيلين هما: مأساة البنت الكبرى التي تكرَّرت في البنت الصغرى. والثاني: من المسؤول عن المأساتين؟ الأب، أم الأمّ، أم الطفلتان؟

كان عليّ أن أخوض ذلك النقاش وأوجِّه إصبع الاتِّهام إليه هو، لأنَّه هو ربّ الأسرة، وهو المسؤول عن ذاك التناقض. فإن كان يرغب في العيش كرجل عربيّ بتقاليد وسلوكيّات عربيّة، فلماذا جاء إلى أميركا أصلًا، ولماذا تزوَّج من أميركيّة واستقرَّ في أميركا؟ لماذا لم يفرض على زوجته الأميركيّة، كما فعل الكثيرون، أن تترك عملها وراتبها وتقعد في البيت لتحافظ على ابنتيها، وتفرض عليهما الحصار والرقابة كما تفعل المرأة العربيّة؟ كان عليّ أن أضعه في قفص الاتِّهام وأفلح في هزّ قناعاته وضميره حتَّى لا يظلّ يتعامل مع واقعه المتناقض كما لو كان هو صاحب الرأي السَّديد والسُّلوك الصائب. هو ينفِّذ حكم الإعدام في طفلتين كان هو المسؤول عمَّا آلتا إليه! هو من يحاكِم ويحكم ويعاقِب! هو؟ ومَن هو؟ أليس في الأصل هو المذنب؟

كان عليّ أن أنتقل من دور المدافعة وأتَّخذ دور الهجوم، فهل أفلح؟

طرق الباب في صباح اليوم التالي، ودخلت الأمّ بوجه معكَّر ومقطَّب. وتلكَّأ هو وتردَّد في الدخول والردّ على نداءاتي وترحيبي. وأخيرًا، حين دخل، لم يسلِّم، ولم يقل أيّ كلمة، وفاجأني برفضه الجلوس على الكنبة إلى جوارنا، إذ هبط على الأرض عند العتبة. كوَّر نفسه ووضع رأسه على ركبتيه وأخذ ينشج. تراجعت عمَّا كنت أنوي قوله بتوجيه إصبع الاتِّهام إليه وتحميله المسؤوليّة. أحسست بأنَّه ضعيف وأنَّه مثل الأخريات ضحيّةُ ضحيّةُ ظروفه وتربيته ومفاهيمه. فرضت عليه ظروفه الحياة في أميركا، لكنَّه لم يستطع التأقلم مع الجوّ الأميركيّ، في عاداته ومفاهيمه وسلوكيّاته. لم يتأقلم إلَّا مع ما كان يلبّي احتياجاته الماديَّة من حيث الدراسةُ والعمل والعيش برفاهية. لكن تربيته الأساسية وما فيها من قيم وعادات تخصّ المرأة والعرض والشرف وما إلى ذلك، ظلت كما هي لم تتغيَّر. حياته العمليّة شيء، وحياته الداخليّة شيء آخر. ألم يكن يعرف هذا وهو الأستاذ الجامعيّ المتعلِّم؟ ولو فرضنا أنَّه ما كان يعلم، ألم تعلِّمه

مأساة ابنته الكبرى وتفتح عينيه؟ أم كان الأسهل والأنفع بعد أن حدث ما حدث، أن يغضّ النّظر وينسى أو يتناسى، ويظلّ كلّ شيء على حاله؟ يظلّ هو وزوجته يعملان حتّى المساء من أجل توفير حياة الرفاهية تلك على حساب تربية البنتين ورعايتهما وحمايتهما والحفاظ على نسيج عائلته وصلاحها!

بادرته بقولي إنّ ما يحدث هو النتيجة الطبيعيّة للظرف الراهن. هذا الجوّ مختلف عن أجواء بلدنا، وبالتالي علينا، كأناس متعلّمين، ومثقّفين، وعقلانيّين، ألّا نتوقّع من هذا الجوّ أن يتوافق مع قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا. وأنت يا سليم رجل متعلّم ومثقّف، فكيف تتوقّع من طفلة، بل طفلتين، أن تعيشا في هذه الأجواء وتتصرّف كلّ منهما كأيّ فتاة عربيّة تربّت تربية تقليديّة؟ أنت تعمل طوال النهار ولا تعود إلى بيتك إلّا في اللّيل، وزوجتك تعمل ولا تعود إلى بيتها إلّا في العصر أو المغرب. أي أنّ دنيا، وأختها الكبرى من قبلها، عاشتا في فراغ وعدم توجيه من قبلكما أنتما الاثنين. أنت بعيد ومشغول عن حياتك العائليّة بعملك الذي يستنزفك، وزوجتك أيضًا مشغولة. كما أنّ زوجتك الأميركيّة، خوفًا من طباعك العربيّة وتشدّدك، خافت أن تقوم بما تقوم به الأمّ الأميركيّة في العادة من حيث توجيهُ ابنتيها بأخذ احتياطات وتدابير تمنع الحمل في أثناء الممارسات الجنسيّة التي أصبحت في الجوّ الأميركيّ عاديّةً ومألوفة. الأمّ الأميركيّة، في العادة، عند البلوغ، وقبله، تبدأ بتهيئة ابنتها لحياة جنسيّة منفتحة، فتشير عليها بما تفعل وما لا تفعل. وابنتاك لم تُربّيا، في هذه الناحية، على الطريقة العربيّة ولا على الطريقة الأميركيّة، فمن المسؤول؟ أنت لا تستطيع أن تأخذ من الحياة الأميركيّة ما ينفعك ماديًّا وتنسى بقية الأمور الحياتيّة. إن كنت ترغب في حياة عربيّة تقليديّة فنصيحتي بأن تترك أميركا وتعود بابنتيك وزوجتك إلى بلدك. وها هي كاثرين، على استعداد للذهاب معك، فهل أنت مستعدّ لترك أميركا؟

فوجئ بسؤالي وطريقتي في فهم الموضوع، فتوقّف عن البكاء ولم يقل سوى عبارة: أنا خجلان، مش قادر أرفع راسي وأحطّ عيني بعينك.

شجّعني قوله ذاك فقلت: وأنا خجلانة من تصرّفاتك. لا أستطيع أن أتصوّر كيف أنّ رجلًا، في مركزك، أستاذ جامعة، يتصرّف كما لو كان فلّاحًا جاهلًا من دون علم ولا ثقافة. أمن المعقول، يا سليم، أن تقبل على نفسك الركض في الشارع وبيدك سكين المطبخ وأنت تصرخ وتسبّ وتلعن وتهدّد بقتل ابنتك؟ أيهون عليك حقًّا أن تقتل ابنتك؟ أنت يا سليم؟ أنت الحنون

الكريم المتعلّم، أنت تقتل ابنتك؟!

انتهت الجلسة بعد أكثر من ثلاث ساعات بشرب القهوة، ثمَّ الشاي، ثمَّ بفطور خفيف متأخّر لأنَّه كان وكذلك زوجته، من دون أكل منذ مساء الأمس. وخرج الثلاثة من عندي صامتين. لم يكونوا سعداء ومبتهجين، لكنّهم كانوا على وفاق، ولو على مضض. اتَّفقوا على أن تتولّى كاثرين مسؤوليّة الوضع وتتصرَّف على الطريقة الأميركيّة، إذ إنَّ سليمًا رفض فكرة العودة إلى بلده والحياة هناك كأيّ عائلة عربيّة. رفض أن يترك أميركا وما بناه فيها من حياة مهنيّة ناجحة وامتيازات ماديّة وتطلُّعات مستقبليّة. لهذا، توصَّل إلى استنتاج أقرب إلى الواقعيّة. وذاك الاستنتاج يلخّصه القول المأثور: من يَعِش في روما فعليه أن يتصرَّف كالرُّومان.

أخذت الأمّ ابنتَها وذهبت بها حيث الجدّةُ وابنتها الكبرى، وبصعوبة وجدت طبيبًا ومستشفى يوافقان على إجراء إجهاض لدنيا، فقد كان الجنين كبيرًا، في شهره الخامس. أصرَّت كاثرين على التضحية بالجنين في مقابل إنقاذ مستقبل ابنتها. رفضت فكرة أن يحدث لدنيا ما حدث لأختها؛ أي أن تترك الدراسة وتعمل في بيع الملابس بقية عمرها، ويتحدَّد بذلك مصيرها كعاملة غير متعلّمة محدودة الدخل، في وضع بائس. وعادت وابنتها بعد الإجهاض إلى بيتها وحياتها السابقة مع بعض التّغيير في سلوكيّاتها وسلوكيّات زوجها.

رفضت البنت الكبرى العودة إلى بيت الأهل وفضَّلت البقاء مع جدّتها. أمَّا دنيا فقد أكلمت دراستها، وتعلَّمت بتوجيه من أمّها رقصَ الباليه وممارسة هوايات عديدة مفيدة تشغلها وتملأ وقتها. ولا أعرف ماذا حلَّ بها وبأختها بعد ذلك، لأنّي انتقلت إلى ولاية أخرى بعيدة. وعلى الطريقة الأميركيّة، يخفت التواصل بين الناس مع الوقت، ويبتعد المرء عن أهله وأصدقائه حين يسحبه وقع الحياة الأميركيّة السّريعُ بما فيه من ركض وعمل متواصل، ويعيش حياة خالية من الحنية والعواطف. وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى ترك أميركا، على الرّغم من كلّ المغريات، وفضَّلت العودة إلى حياة عربيّة كئيبة، تحت الاحتلال، وممارسة دوري ككاتبة وطنيّة، وناشطة نسويّة، وحيث جذوري وذكرياتي وأبعاد القضيّة.

تركت أميركا، على الرّغم من كلّ المغريات المادّيّة والمهنية. عرض عليّ أبواي الروحيّان، بول وهوالين، وظيفةً معتبَرة في برنامج الكتاب العالمي فاعتذرت. قلت إنّي لن أظلّ في أميركا وسأعود إلى بلدي فور مناقشة أطروحة الدكتوراه. كانت الانتفاضة الأولى قد بدأت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، وصُوَرُ الشباب الملفَّعين بالكوفيّات وفي أيديهم الحجارة تملأ الشاشات ووسائل الإعلام، وتُظهر ما يقوم به الجيش الإسرائيلي من نسف للبيوت وتكسير للعظام واعتداء فاضح على كلّ حقوق الإنسان. وعلى الرّغم من ذلك، وعلى الرّغم من الفارق الجسيم بين القوتين، الجيش الإسرائيلي المدجّج بالسلاح الأميركي والمدعوم أميركيًا وغربيًا في هيئة الأمم المتّحدة، وشباب عزّلٍ إلّا من الحجارة ومحرومين أيّ دعم خارجي، فإنّ الإعلام الأميركي كان يصوّرنا كما لو كنّا نحن المعتدين وإسرائيل هي الضحية. كان الشارع الأميركي ضدّنا على طول الخطّ، ويصوّرنا في هيئة برابرة متوحّشين، كما صوّر قبلنا الهنود الحمر، سكّانَ أميركا الأصليّين، وكما صوّر السُّود، وشعوبَ أميركا اللّاتينيّة الثائرة، ومعظمَ شعوب آسيا وأفريقيا التي تناوئ السياسة الأميركيّة وتتحدّاها. وكنت أسمع التعليقات هنا وهناك، تشير إلى ما يحدث في فلسطين كما لو كان إعادة لقصة داوود الصغير وجولياث الجبار[1]، إسرائيل هي داوود والعرب هم جولياث. وما تقوم به إسرائيل ضدّ الفلسطينيّين شبيه بما يحدث في أفلام الوسترن (الغرب الأميركي)، إذ تتغلّب مجموعة صغيرة من رعاة البقر الأشاوس على الهنود الحمر المتوحّشين. وكدت أصاب بانهيار نفسي لولا فسحةٌ من أمل تصوّر لي أنّ الانتفاضة قد تأتي بجديد ويزول الاحتلال. لكنّي كنت أعلم، في أعمق أعماقي، وقد توغّلت في معرفة المجتمع الأميركي والسياسة الأميركيّة، بأنّ ذلك لن يحدث لأنّ أميركا وحلفاءها لن يحيدوا عن تبنّي وجهة النّظر الإسرائيليّة. ووجهةُ النّظر الأميركيّة تلك لا تحدّدها وجهة النّظر الإسرائيليّة فحسب، بل إنّ عوامل تاريخية تمتزج فيها العنصريّة بالنزعة الدّينيّة والمصالح المادّيّة والأطماع السياسيّة، تجعل الغرب يكرهنا ويزدرينا، لا على مستوى الحكومات والإدارات السياسيّة فقط، بل على مستوى الثقافة الشعبيّة، وخصوصًا الثقافة الشعبيّة الأميركيّة. وهذا ما فسّره بوضوح تامّ المفكّر الفلسطيني إدوارد سعيد في كتابه الشهير: **الاستشراق**. ففي أميركا، باستثناء قلّة مثقّفة محدودة جدًّا، يتحيّز البيض ويميّزون ضدّ السود

والملوّنين في كلّ شيء. وعلى الرّغم من القوانين التي تنصّ على المساواة وعدم التحيُّز ضدّ الأعراق والأجناس المختلفة، فإنّهم يتحيَّزون ويميّزون في كلّ الميادين وعلى كلّ المستويات. وهذا، كما ذكرتُ، له أصولٌ تاريخيّة يختلط فيها الدّين بالعرق بالسياسة. وفي بعض الولايات، وخصوصًا في الجنوب، هناك جماعات إرهابيّة مثل الكوكّس كلان، يظهر أفرادها في المناسبات وهم يلبسون الأبيض من قمّة الرأس حتّى القدمين، ويحملون الصلبان الخشبيّة الضخمة والمشاعل، ويردّدون هتافات تهدّد بالموت سحلًا أو حرقًا للسود والملوّنين (عربًا ولاتينيّين) وحتّى اليهود. ونفذوا على مرّ الأجيال ما يهدّدون به من قتل وحرق وتدمير. أعدادهم محدودة، صحيح، وهم ملاحَقون من قبل الحكومة، صحيح أيضًا، لكنّهم داخليًّا، وفي الباطن، مدعومون بما تحويه الثقافة الشعبيّة الأميركيّة من عنصريّة وتعصُّب. وليست كراهية الأميركيّين للعرب إلّا نبذةً أو جزءًا لا يتجزّأ من تلك الثقافة. وعادت إليّ ذكريات ما حدث للجالية العربيّة في أميركا حين هجم سلاح الجوّ الأميركيّ على ليبيا عام ١٩٨٦. بعد ذلك الهجوم الذي صوّرته وسائل الإعلام الأميركيّة بالنّصر المُبين على «العرب المجرمين»، تولّت مجموعات من الشباب الأميركيّين، سواء من جماعة الكوكّس كلان أو غيرها، تكملةَ ما بدأه سلاح الجوّ في ليبيا، وواصل أفرادها الهجوم داخل أميركا نفسها بالاعتداء على من يشكُّون في أنّه عربيّ، فيعتدون بالضرب على من تقع أيديهم عليه، ويدمّرون المؤسّسات والممتلكات العربيّة. حتّى المساجد لم تسلم من تلك الهجمات، فاعتُدي على بعضها بالحرق والتّكسير ورش الدهان الأحمر الشبيه بالدم، ورمي أكوام الزبالة وبراز الحيوان وحتّى الإنسان. كان المشهد، لمن يتابعه، يتجلّى كما لو كان ثورة ضدّ العرب، سواء في الداخل أو الخارج، ولم أعرف في ذلك الوقت لماذا؟! اعتدى سلاح الجوّ الأميركيّ على ليبيا، فلماذا كلّ ذلك الحقدُ الموجّه ضد العرب في كلّ مكان؟ لم أفهم. وحين اتّصل بي بعض أساتذتي يطلبون منّي ترك بيتي واللُّجوء إلى أحد بيوتهم خوفًا عليّ ممّا قد يصيبني من أذى بعد أن اعتدى الطلبة الأميركان على عدد من الطلبة العرب داخل الحرم الجامعيّ، رفضت ذلك. قلت إنّي امرأة مسالمة، وفي سنّ أكبر من سنّ الطلبة الشباب، وإنّي بعيدة تمامًا عمّا قد يسبّب الاستفزاز ويثير العنصريّة والنعرة. لكنّي حين دخلت الفصل الذي أدرّسه كأستاذة مساعدة، فوجئت بجوّ مختلف تمامًا عمّا توقّعت. كان الفصل كخليّة نحل، وتشمل الفوضى كلَّ ما فيه من طلبة وطاولات ومقاعد. كان طلاب الفصل قد انقسموا إلى مجموعات تتكتّل في حلقات، يناقشون خلالها، وبأصوات

صاخبة محتدّة، ما قرأوه في الصحف وما سمعوه عبر شاشات التلفزة. وحين دخلت، التفتت إليّ بعض الوجوه وشملتني بنظرات مستنكرة عدائيّة، لكنّ الأغلبية أهملتني. أُصبت بإحباط شديد وخيبة أمل. فقد كان التواصل بيني وبين طلبتي جيّدًا جدًّا، بل ممتازًا. وطوال السنتين اللّتين درّست فيهما ذاك المساقَ في أربعة فصول متتالية، كنت أنال أفضل التقييمات من الطلبة على أدائي الأكاديميّ وعلى تواصلي الإنسانيّ[2]. كنّا نناقش الموادّ بشكل تتجلّى فيه الألفة والمرونة والمحبّة كما لو كنّا أفراد عائلة واحدة. ومنهم مَن كان يُعجَب بي ويخصّني بكلمات لطيفة يخطُّها على ورقته الأكاديميّة، أو يبعث إليّ ببطاقة معايدة بمناسبة كريسماس أو عيد الفصح وما شابههما. لكنّي فوجئت، في ذلك اليوم، بالصخب والفوضى، ففهمت الوضع. حاولت التعامل مع المشكلة بطريقة هادئة ومنطقيّة، فبدأتُ برسم خريطة الشرق الأوسط على اللّوح مركّزة في فلسطين وإسرائيل وشمال أفريقيا. وكتبت أسماء الدول على المواقع، بما فيها اسم ليبيا، فاستثير فضول البعض وأخذوا يترقّبون. قلت بصوت عالٍ لأسكتهم، إنّي سأشرح ما حدث مؤخّرًا إذا هدأوا. استدار البعض بوجوههم نحوي ونحو الخريطة المرسومة، وبقي البعض على حاله. وما إن بدأت بالشرح حتّى قاطعني أحدهم، وكان شديد الضخامة، رياضيّ البنية، ويذكّر ببطل هوليوود الأسطوريّ رامبو، وكلّ أفراد المارينز:

ـ أصحيح أنّ كلّ الفلسطينيّين إرهابيّون؟

توقّفت، وقد تسارعت دقّات قلبي وارتفع الدم إلى رأسي، وقلت وأنا أحدّق في وجهه:

ـ ما رأيك أنت؟ أتظنّ أنّي إرهابيّة؟

لم يُجب، فاستغللتُ الفرصة وقلت:

ـ تقصد بما أنّي فلسطينيّة فأنا إرهابيّة؟ وما هو، في رأيك، إذا سمحت، التعريف الدقيق لكلمة إرهابيّ، وهل ينطبق هذا التعريف عليّ؟

لم يُجب، وابتعد بعينيه عن عينيّ، فواصلت:

ـ أرجوكم، إن كان لأحد أيُّ تعليق في هذا الخصوص، فليتفضّل أو فاصمتوا واستمعوا إلى ما سأقول.

ساد صمت متوتّر، لكنّ العيون ظلّت عليّ، فاستدرت نحو الخريطة على اللّوح وبدأت أشرح باختصار كيف كان العالم العربيّ منطقة واحدة وقسّمها الغرب أجزاء حتّى يسهل التحكّم فيها واستغلال مواردها. وكيف

أعطت بريطانيا اليهود ما ليس لها، وهذا ما خَلَقَ إسرائيل التي لم تكن موجودة على وجه الأرض قبل عام ١٩٤٨. وقلت إنَّ الفلسطينيّين، بسبب قيام إسرائيل، طُردوا من بيوتهم ونُهبت ممتلكاتهم وشُرِّدوا في كلّ مكان. أي إنَّهم هم الضحية وليس العكس. هذا بالنسبة إليّ كفلسطينيّة، وإلى جميع الفلسطينيّين. أمَّا بخصوص ليبيا، فهي دولة صغيرة، وقياسًا بأميركا فهي محدودة الإمكانيّات وضعيفة. وعلى الرَغم من ذلك فإنَّ ١٠٠ طائرة من سلاح الجوّ الأميركي قصفتها، فدمَّرت العديد من المباني والمنشآت الحكوميّة والمدنيّة، وقتلت ١٥ مدنيًا ليبيًا. فمَن المعتدي ومَن المعتدى عليه: أميركا أم ليبيا؟ وعلى افتراض أنَّ الحكومة اللّيبيّة تستحقّ ذلك الهجوم، فما ذنب المدنيّين؟ ما ذنب العرب، كلّ العرب؟ وما ذنب الفلسطينيّين؟ وما ذنبي أنا؟ ولماذا أقابَل بكلّ هذه العدائيّة؟ ممكن أعرف؟

ساد الصمت بضع لحظات وظلَّت العيون ترمقني بعداء، وتشكّك، لكنَّ أحدًا لم يتكلَّم. حاولت استدراجهم إلى الكلام ونقاش الوضع، لكنَّهم لاذوا بالصَّمت، وظلَّت عيون الغالبية ترمقني بحقد وعداء. فخرجت من الفصل وأنا غاضبة ناقمة ممرورة. وحين هدأتُ، تذكَّرت كلّ ما قاله وكتبه نعوم تشومسكي[3] عن سبب إعجاب الأميركان بإسرائيل. قال إنَّ إسرائيل تذكِّر الأميركان بتاريخهم وتراثهم القائم على استلاب الأرض بالقوَّة من سكّان أميركا الأصليّين، وانتزاع ولايات بأكملها من المكسيكيّين. هذا عدا عن استعباد سود أفريقيا ومعاملتهم كما تُعامَل الحيوانات. وهؤلاء الطلبة ما هم إلَّا النتاج الطبيعي لتلك الثقافة. هم نتاج ما توارثوه عن أهلهم، وما يتلقّنونه في المدارس، وما يشاهدونه في التلفزيون والسينما، وما تبثّه أجهزة الإعلام الحكوميّة وغير الحكوميّة من صور مشوّهة ودعايات ملفّقة ضدّ العرب وغيرهم من شعوب العالم الثالث، وأيضًا شعوب الاتِّحاد السوفياتي في ذلك الوقت. كما تذكَّرت ما قاله أحد المفكِّرين الأميركان عن أنَّ الأميركيّين هم الشعب الوحيد على وجه الأرض الذي يصدِّق كلّ ما تقوله حكومته، ويصادق على ما تفعله من دون نقاش. شعب مدجَّن ومبرمَج تتحكَّم فيه أجهزة الإعلام الحكوميّة، ونفوذ الشركات والمصارف، ووقعُ الحياة العمليّة التي تجعل الفرد ماديًّا أنانيًا لا شاغل له إلَّا تكديس المكاسب والمشتريات لتثبيت حياة الرفاهية. شعب ينام بعد التاسعة مساءً بقليل ليصحو مع الفجر ليعمل كحصان يدور في حلقة مغلقة مغمَض العينين بلا تأمُّل. فلماذا ظننت أنَّ في استطاعتي التأثير في طلبة هم نتاجُ ذلك الواقع واستمرارٌ له؟ وصمَّمت على مغادرة أميركا في أسرع وقت حالما أنهي دراستي الأكاديميّة. وبعد سنتين، حين قامت الانتفاضة ورأيت

ردّات الفعل الأميركيّة العدائيّة، وكنت قد شارفت على الانتهاء من كتابة أطروحتي، استعدتُ ما كنت شعرت به في إثر ضربة ليبيا وردّات الفعل الأميركيّة. وما إن ناقشت الأطروحة حتّى غادرت وأنا أقسم ألّا أعود إليها ما حييت. لكنّي عدت، مرّة واحدة، وبناءً على دعوة من مؤسّسة خيريّة فلسطينيّة، لأحكيَ عن الانتفاضة وما يدور فيها من مقاومة للاحتلال ومَن يدعمونه، وأوّل الدّاعمين أميركا.

---

1 قصّة من الكتاب المقدّس تصوّر كيف استطاع الملك داوود الأعزل أن يصرع العملاق جولياث الذي يقود جيشًا جبّارًا ضدّ بني إسرائيل.

2 تُوزَّع على الطلبة قبل نهاية كلّ مساق قسائمُ فيها أسئلة محدّدة عمّا استفادوه من ذاك المساق وتقييمهم لأداء الأستاذ مهنيًا، وعلى مستوى التواصل الإنسانيّ.

3 مفكّر يهوديّ تقدُّميّ ذو نزعة إنسانيّة.

أختار من **الميراث** التي كتبتها، بوحي من قصّة دنيا ونساء بروكلين، مشهدًا يجسّد فنّيًا ما يحدث حين يحتدم الصراع بين مفاهيم وسلوكيّات لأفراد ينتمون إلى ثقافتين متناقضتين، وأحيانًا متصارعتين.

المشهد، في رأيي، من أهمّ مشاهد الرواية وأكثرها تأثيرًا، يضمّ شخصيّتين متناقضتين تمامًا: جدّة زينة الأميركيّة المستنبتة القرويّة، ووالد زينة الذي بدأ حياته بائعَ نشريات ممّن يحملون البضاعة على ظهورهم، ثمّ تطوّر وأصبح بقّالًا يملك العقارات والأرصدة. وعلى الرغم من غناه وتأقلمه مع الحياة العمليّة الأميركيّة، فإنّه ظلّ عربيًا في تركيبته الذهنيّة والنفسيّة.

تقول البطلة زينة، وهي الموازية فنّيًا للشخصيّة الحقيقيّة دنيا:

«حين اكتشفت حملي صعدت إلى السُدة وقفزت إلى الأرض عشر مرّات. وحين شعرت بالتعب جلست في الظلمة بين الأمتعة القديمة المغطّاة بالعفونة والفطريّات ولا أحد بجانبي سوى ذاك الدبّ، وضعته في حضني وأخذت أشهق في بطنه، فقد كنت خائفة أن يكتشف أبي حملي فيقتلني كما كان يهدّد، وقد حاول. لكنّي هربت من بروكلين ولجأت إلى الجدّة في واشنطن وعشت حياة طبيعيّة، أو بلا حياة على الإطلاق. فرق كبير بين هذا وذاك، أقصد، في الواقع، والمحسوس، فرق كبير بين بروكلين وبين الحياة في واشنطن، أو بالأحرى، بين الحياة مع الجدّة، وبين الحياة مع الوالد...»

«هذا وقد وصل التناقض بين أبي وجدّتي أقصاه حين حملت. ما حدث هو أنّه بعد إقامتي معها مدّة أسبوع، حضر إلينا. كنّا نخبز الكعك حين رأته جدّتي من الشبّاك. دفعتني بيديها نحو غرفة الخزين. دخل المطبخ فحاولت أن تحادثه لكنّه لم يردّ عليها، واندفع يفتش المكان بعيون مثل كلاب الصيد. بدا أكبر كثيرًا من عمره، وبشرته أكثر سمرة. لم أصدّق أنّه ينوي قتلي فعلًا، فقد كان الحبّ بيننا عميقًا بحيث لم أتخيّل أنّ بإمكانه ارتكاب تلك الفعلة، ولم أكن قد فقدت الأمل بعد على الرُغم من تحذيرات جدّتي المتكرّرة. كانت تقول: «ما شفتِ شو صار لهدى وغيرها؟ ما كانوا مثلك بنات صغار؟ وما كانوا أهلهن يحبوهن؟»

أمسكت أنفاسي وأنا أرقبه من خلال ثقوب الباب. كان وجهه مكفهرًا وعيناه جاحظتين. رأيته يدفع جدّتي بعيدًا. حاولت استعمال التلفون فخطف السمّاعة منها وسحب الأسلاك. صاح بصوت كالزلزال:

ـ مفيش فايدة يا ستّ، ما تتدخلي بالموضوع! خلص اعتبريها ماتت. لازم تدفع ثمن غلطتها، لازم أغسل عاري وعارها.

حاولت جدّتي أن تقنعه بأنّي لم أكن هناك، لكنّه رفض أن يسمع. بل ذهب إلى غرفة الجلوس وبدأ يكسّر كلّ شيء يعترض طريقه ويرفس برجليه ويصيح بأعلى صوته حتّى وصل إلى قمّة غضبه. وفي مثل تلك الحالات التي قلّما كانت تصيبه كان يصبح أشبه بوحش كاسر، بدون عقل أو إدراك. لم يعد أبي الذي أعرفه، بل بات رجلًا غريبًا تمامًا.

عاد إلى المطبخ ممسكًا الدبّ بيده. تراجعتُ إلى الخلف خوفًا وترقُّبًا فسقطت إحدى جرّات جدّتي على الأرض وتحطّمت. وفي لمح البصر وجدتني تحت قدميه. جرّني إلى المطبخ وجسمي ملطّخ بقطع الزجاج والمربّى وبقع الدم. شدّ شعري وصاح بأعلى صوته: «يا بنت الكلب واللّه لأشرب من دمك».

تشبّثت بأطراف بنطلونه وطلبت الرحمة، فردّ على توسّلاتي بضربات شديدة في بطني وعلى رأسي. شدّ شعري ورفع وجهي وسألني والشرر يتطاير من عينيه: «مين هو ابن الحرام؟» كان ثملًا ورائحة العَرَق تفوح من فمه، فبدأت أتقيّأ. أخذ يهزّني كما لو كنت شوالًا فارغًا ويصيح: «مين هو ابن الحرام، مين اللّي لطخني بالوحل؟

لم أستطع النطق بكلمة، وبدأت أفقد وعيي تدريجيًا. لكنّي كنت أحسّ بتحرّكاته وأيقنت أنّ نهايتي قد دنت. أغمضت عينَيّ بشدّة وضغطت ساقيه إلى صدري وانتظرت نزول السكين. وفجأة، سمعنا دويًا كانفجار القنبلة. اهتزّ المطبخ بأكمله وبدأت المرطبانات تترنّح مثل رقّاص الساعة. أحسست بعضلاته تتيبّس ثمّ انهار على الأرض بطوله. تلاقت عيناي بعينيه للحظة في نظرة مليئة بالاستغراب والألم المضني والدّهشة. سمعت صوت حركة فنظرت إلى الباب، وهناك كانت جدّتي تقف وفي يدها بندقية صيد. همست بصوت كالفحيح:

ـ أيّ حركة ويكون راسك شقف.

كان وجهها ساكنًا وعيناها تتحرّكان يمنةً ويسرة.

ـ ارمِ السّكين حالًا.

ردّ عليها محشرجًا: «يا بنت الكلب...»

فانطلقت رصاصة أخرى أصابت الطاولة بجانبه وانقلبت عليه.

ـ زينة تعالي هون، تعالي بسرعة.

لكنّي بقيت مذهولة ولم أستطع الحراك. وجّهت حديثها إليه:

ـ أنت عارفني يا حجّ، ارمِ السّكين.

رمى السّكين بيده اليسرى وهو يشدّ يده الجريحة إلى صدره.

ـ وأنت يا بنت تعالي هون وروحي لغرفتي ونادي البوليس، يا اللّه بسرعة.

صعدت الأدراج، لكنّي لم أجرؤ على طلب الشرطة. كان الإحساس بالذّنب والخزي والخوف والشّفقة والضياع يجمّد تفكيري ويشلّ يدي. جلست على طرف السّرير ونظرت من الشُّباك. كان الخريف في آخره وأوراق الشجر تتساقط، وأوراق أخرى بقيت عالقة على الأغصان. همست بحيرة: ما الذي فعلته؟ وماذا أفعل؟ وماذا بعد؟ أظلمت الدنيا في عينَيّ وشعرت بسكون كالقبر. وبقيت على تلك الحال لا أشعر بمرور الوقت. وحين نزلت إلى أسفل سمعته يصيح:

ـ إنت السّبب، أنت خليتيها تروح. خربت بيتي، وحرقت قلبي. إنت مش حرمة، ولا رجال.

ردّت عليه بهدوء وصبر:

ـ اهدأ يا حج وخليني أنظّف لك الجرح. أمسك هذا وشغّل عقلك وخلّينا نحكي برواق. زينة باقية هون وأنت روح لجماعتك وبلّغهم أنّك دبحتها وأنّك رجال. ما تحاول تلعب أو تروح للمحكمة أو غيره. أنت بتعرف النتيجة، حاولت مرّة في السّابق وما تحاول ثاني مرّة.انسَ زينة مثل ما نسيت قبلها أمّها.

ردّد باكيًا:

ـ أنا ما نسيت، ولا عمري أبدًا رح أنسى.

وأنا كذلك لم أنسه. عشت مع جدّتي سنوات وسنوات، ونسيت أمّي ونسيت ابني، لكنّي أبدًا لم أنسَ منظره وهو يقطع الممزّ: ذراعه مربوطة إلى عنقه، وظهره محنيّ تحت وطأة عارٍ تراكم منذ آلاف السنين. صحتُ بأعلى صوتي: «بابا سامحني».

أدار وجهه وأشار بيده السليمة نحو السّماء. كان الطريق موحشًا، وهو يمشي متثاقلًا: رأسه متدلٍّ وضماد مشدود إلى عنقه ويجرجر

قدميه فوق القش وأوراق الشجر.

صحت بضمير مذبوح:

ـ سامحني، بابا، سامحني.

لوّح بيده ثانية، واختفى في الطريق إلى الأبد.

* * *

كانت **الميراث** أصلًا روايتي عن أميركا. وحين عدت إلى بلدي وابتعدت عن الجوّ الأميركيّ، بات جوّي أنا، جوّي الفلسطينيّ العربيّ، الداخليّ والخارجيّ، هو هاجسي وليس أميركا. فأعدت كتابتها، كما سبق وقلت، ولم أبقِ منها إلّا الجزء الذي يصوّر ما يتعرّض له الإنسان العربيّ من اختلال وفقدان توازن بسبب تعرُّضه لحضارة بعيدة كلّ البعد عن انتماءاته الثقافيّة والدّينيّة والسياسيّة. أمّا الأجزاء الأخرى من **الميراث**، وهي الأكبر والأغنى، فسأعود إليها لاحقًا في الجزء الثاني من **روايتي لروايتي**، وفيه أحكي حكايات مشابهة تدور في خلفيّة كلّ رواية كتبتها بعد عودتي إلى الوطن، أي روايات ما بعد أوسلو والانتفاضة الثانية وضياع القدس، وما تبع ذلك من تعثُّر واختلال.

تولّد انطباع ضبابيّ بين نقّادي وقطاع غير قليل من قرّائي، بناء على ما كتبت وعملت وصرّحت به واجتهدت، أنّي أقلّد النسويّات الغربيّات، وأخرج على السياق الثوريّ الحقيقيّ، وأعمل على تلويث عقلية النّساء، وأبادر إلى طرح مرتكزات تساهم في تحطيم العائلة العربيّة المنزّهة عن كلّ شائبة وجريمة، وأساهم في شقّ الصفّ الوطنيّ العامّ.

لكنّ الأيّام تعمل على تغيير الثابت والجامد وتستبدله بالمتحرّك. وهذا المتحرّك كسر مع الوقت تلك التقوُّلات، فبدأت أحصد جوائز عربيّة توّجتها جائزة فلسطينيّة، بعد طول إغفال، حين كرّمتني وزارة الثقافة الفلسطينيّة على هامش فعاليّات معرض الكتاب الدوليّ في فلسطين لعام ٢٠١٤، إذ قدّمني مدير الحفل على أنّي روائيّة فلسطين الأولى، إلى جانب الكثير من النعوت الجميلة والراقية التي أخجل من ذكرها. وتلقّيت بعد تلك النعوت والاحترامات وسامًا لطيفًا من رئيس دولتنا الافتراضيّة، وسُمح لي بعدها بأن أقرأ كلمة لخّصتُ فيها قناعاتي وصراعاتي، إذ قلت فيها:

قيل لنا مرارًا وتكرارًا إنّ أدبَ النساء كالتالي: تبدأ المرأةُ بكتابة قصّتِها على اعتبار أنّها محور الكون والطبيعة وقلب الإنسان. هذا طبعًا في نظرها، أمّا الواقع، كما قالوا لنا، فإنّ المرأة تكتب نفثات لا روايات، أي مذكرات، أي اعترافات، أي إسقاطات، إذ ترمي الدنيا بأحمالها، وتقول: خذوا، هذا أنا، وأنا ضحية.

هذا ما قيل عبر السنين والأجيال فارتبكنا. بعضُنا، أقصدُ شاعراتِ وروائيّاتِ وقاضاتٍ وحتّى ناقدات، أصبن بالذُّعرِ فانطوين خجلًا واختبأن بهويّتهنّ الجنسيّة خلف ستار من الإنكار والاستنكار. وبادرن، في محاولتهن الدفاعَ عن النّفس، إلى القول إنّ لا وجود لأدب نَسَويّ، ولا لقضيّة نسويّة. وهنّ بذلك توخّين أن يُعترفَ بهن، ويُعترفَ لهنّ، بإنتاجِ أدبٍ أرقى وأسمى من أدب النساء، مع أنّهنّ، في الواقع، مهما تدارين أو أنكرن وتنكّرن، يُفصحن، عن غير قصد وباللّاوعي، عن هموم مكبوتة ومحتقنة ورثناها في مجتمع لا يتورّع حتّى الآن عن قمع النساء.

وصمّت بعضُنا آذانهنّ، وواظبن على نفث أشواقهنّ النّفسيّة والجسديّة، معتبراتٍ أنّ تلك الأشواقَ هي الأهمُّ والأغلى من أيّ هدف أو مطلب، لأنّ الأشواق، كما يبدو لهنّ، هي سرُّ الحياة والحرّيّة.

ونظرت بعضُنا، وأنا منهنّ، إلى العالم من خلال منظور مزدوج العدسة، لا يقفز على الأشواق والهوّيّة، ويتطلّع إلى ما هو أبعد، أي إلى بعدٍ يختلط فيه الخاصّ بالعامّ، والمحدودُ باللّامحدود، والمهمَّشُ بالمتميّز. وهذا المنظور يرى المرأة وأدب المرأة من زاويتين. **وأوّل زاوية هي الاعتراف** بأنّ المرأة تفتقر إلى القوّة في كلّ مجال، في العلم والأدب والفنّ والتقنيات، وأيضًا في الحبّ والجنس وإثبات الذات. وهذا الفقرُ في القوّة، أو هذا الضعف، إن كان لأحد أن يخجلَ منه فلستُ أنا، ولا أنتِ، ولا أنتِ، ولا هي وهي، بل التراثُ والبيئة، والثقافة. وإنّ ما عليّ أن أفعل في مقابل ضعفي، حتّى يعترفَ بي ويعترفَ لي، **وهذه هي الزاوية الثانية**، ألّا أهرب، وألّا أنكر أو أتنكّر، بل إنّ عليّ أن أثبتَ في مكاني وأقاوم، ولا أهتزّ، ولا أجبن، حتّى أتجاوزَ وأساهم في فعل النهضة والتّغيير.

وكم قلن لي، أقصد أخواتي وبناتي، كم قلن لي: لكنّا نُواجَه بأعراف وقوانينَ تحكم علينا وتتحكّم في مصائرنا وتُفقدنا القدرة على الحركة وعلى الإبداع، فماذا نفعل؟ وكنت أقول، وما زلت أقول: نظلّ نقاوم، ونقدّم أفضلَ ما فينا وما نقدر عليه حتّى نبرُز، ونثبتَ للناس وللدنيا أنّنا أفضل، وأصدق، وأشطر.

نحن النساء، حتّى وإن كنّا حجرَ الزاوية في الأسرة، وحنانَ الأمّ وسرَّ الخصب، وعددُنا وفير، ما شاء اللّه، أكثرُ من النصف، إلّا أنّنا بحكم الميراث، والقوانين، والعادة، قلّةٌ قليلة، وأقليةٌ، وينطبق علينا قانون الأقلّ والأدنى والمستضعَف. وفي هذا السياق، يحضرني قولُ زميلٍ سامريّ في نابلس، مسقط رأسي، إذ قال لي يومًا بأسًى، لكن بذكاء: نحن معشر السامريّين مضطرُّون إلى أن نكون الأصدقَ والأشطر. وحين رآني أفتح عيني قال مفسّرًا: هذا هو حكم أناس الأقليّات في كلّ مكان، حتّى يعيشوا ويُرضى عنهم، وحتّى لا يرفضهم المحيط ويعترف بهم، عليهم أن يثبتوا أنّ ما يقولونه هو الأصدق، وما يفعلونه هو الأشطر.

فكّروا معي يا أخواتي، ويا زميلاتي وزملائي، في حكمة هذا القول وبراعته: على أناس الأقليّات، أو من يُعتبرون أقليّة، حتّى يعيشوا ويُرضى عنهم، وحتّى لا يرفضهم المحيط ويعترف بهم، ويعترف لهم، عليهم أن يثبتوا أنّ ما يقولونه هو الأصدق، وما يفعلونه هو الأشطر. وفي رأيي، هذا صحيح إلى أبعد حدّ، فحين نُعامَل نحن النساء كأقليّة على الرّغم من عددِنا، وحين نُهمَّش ونحن القاعدةُ في الأسرة وجذرُ البيئة، وحين نُصنَّف في مرتبة أقلّ وأدنى، فلا إنكارُ هويّتِنا يرفعنا، ولا النّدبُ والتظلُّمُ يشفعان

لنا، ولا التَّركيزُ في الأشواق ونداءِ الحسّ يحرِّرُنا. بل الاعترافُ بالواقع، ثمَّ النهوض بهذا الواقع، وأن نثبت بالقول، وأيضًا بالفعل، أنَّنا الأصدق، وأنَّنا الأشطر... فيُعترف بنا.

لهذا ترون يا أخواتي، ويا سيِّدات ويا سادة، أنِّي أقف هنا لأتلقَّى هذا التكريم ، لا حبًّا فيَّ، ولا لأنِّي من جنس قويّ ومبجَّل، ولا لأنِّي مطواعة أقول آمين لمن حكموا، سواء في البيت أو الشارع أو رأس الحكم، ولا لأنِّي اللَّطيفة الظريفة ذات العينين الناعستين والصَّوت الخفيض والنبرة الهامسة الرقراقة، بل لأنِّي قدَّمت إلى بلدي وتاريخي وهموم الناس صورةً مجيدة لنضالاتٍ وقصصٍ بطولة نتعلَّم منها ونحفظها ونوثّقها، ونورثّها لأجيال جديدة، وننشرها وننمّيها، حتَّى نعلو على واقعنا ونرسخَ في الأرض. أنا تجاوزت كلّ حدودي، وحملت بدلًا من البارودة وزرع الألغام ريشةً صغيرة، أي قلمَ الصدق وقول الحقّ، ومجهودي، ورصدت العامل في المصنع، وكذا الفلاح في صراعه اليومي مع الاستيطان، وأرضًا تُسرَق، ورصدت المناضلَ في معركته، والانتفاضات، والاشتباكات، ونزفَ الدم، وذكّرت بأبطال غابوا عنَّا بفعل الزمن ومرور الوقت، وفوق هذا وذاك لم أنسَ أبدًا معركتي، معركتي أنا كأقليّة، أو في عداد الأقليّة، فقدَّمتُ الأصدق والأفضل وما أقدر عليه. وثبُت مكاني ولم أهرب على الرّغم من اتُّهامات ونعوت منحازة، ككارهة الرِّجال، ومفسدة النِّساء، ومدمِّرة الأنوثة والرقَّة، وناشرة الإفك والإلحاد. ومع ذلك، صمدت، وما تراجعتُ، وبقيت أحفر في التربة حتَّى أرسخَ قدميّ في أرض لي، هي من حقِّي وحقّ بناتي، وأزرع بذورًا تنمو في الأرض وتتفتَّح وتعلو على الضعف. وما جبنتُ، ولا اختبأت، ولا تقوقعت، بل بذلت الجهد، أضعافَ الجهد، وساهمت في الثورة والتثوير، فارتبكوا هم، ثمَّ مع الوقت اعترفوا بي. وها أنا هنا لأتلقَّى هذا الاعتراف وهذا التكريم فأشكركم، وأهنئكم، لأنَّكم أيضًا تجاوزتم قصورَ البيئة وحكمَ التهميش.

أشكركم يا سادة على التكريم.

وأشكركم يا سادة على الاعتراف،

وأشكر نفسي لأنِّي قاومت، وما جبنت ولا تنكَّرت لقضاياي، قضيَّةِ بلدي، وقضيَّةِ جنسي وتاريخي، وقضايا النهضة والتَّغيير، وقدَّمت إلى بلدي وأخواتي وبناتِ الجيل قدوةً ... قدوة ماذا، كيف أصفها؟ كيف نصفها؟ قدوة جليلة؟ قدوة شجاعة؟ قدوة سخيَّة؟ أو تحديدًا، قدوة نبيلة تعلو على الضعف، فنلت رضاكم وهذا التكريمَ، فشكرًا لكم، وطبعًا، أكيد، مع

شكر لي.